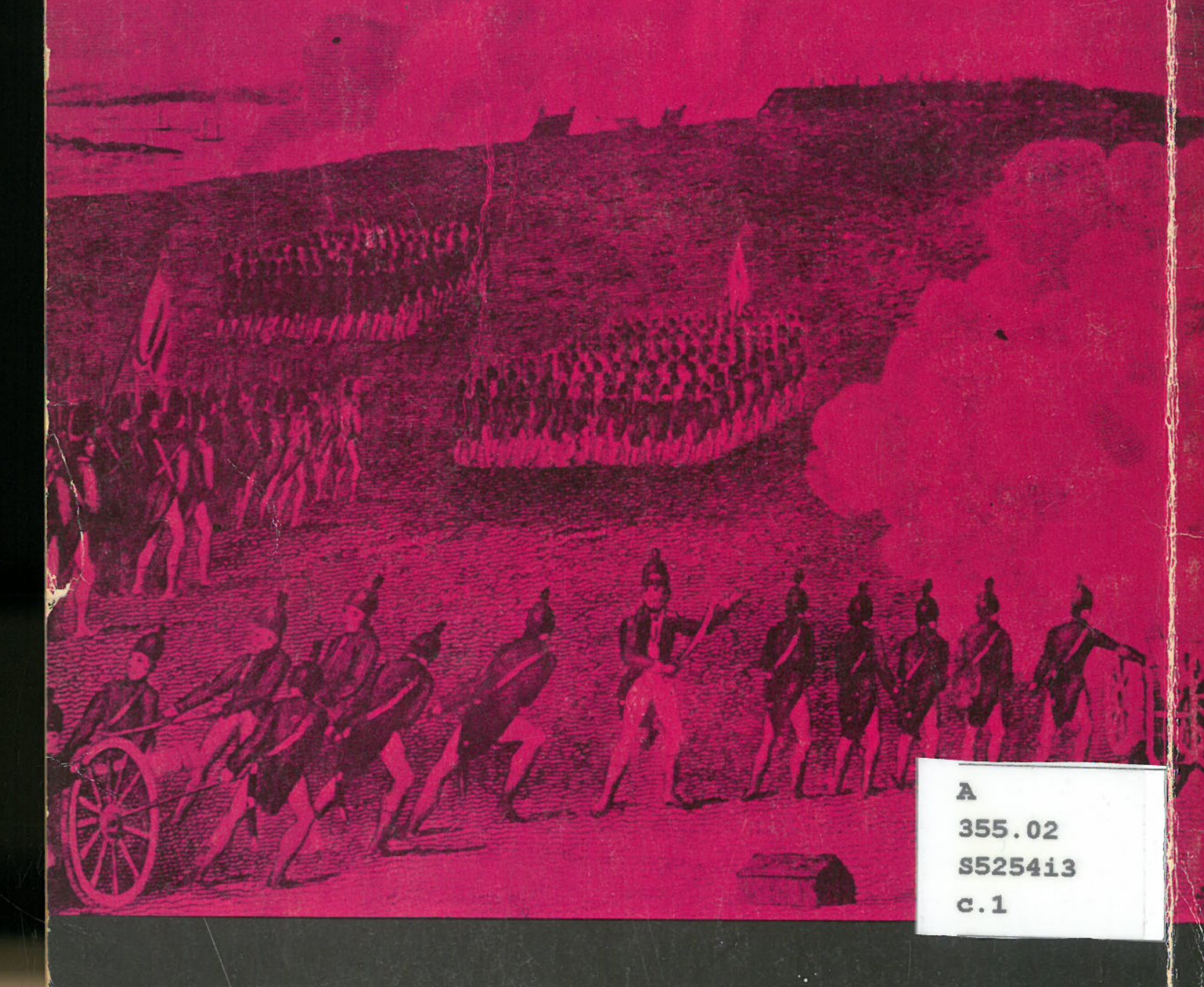
منير شفيق

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

علم الحرب





منير شفيق

علم الحرب

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثانية
تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٥

الطبعة الثالثة
شباط فبراير ١٩٨٠

تنويه

لقد اسقطت هوامش الاستشهادات من هذا الكتاب ، بسبب كثرتها من ناحية ، ومن اجل تسهيل قراءته بالنسبة للقارىء العادي من ناحية ثانية . اما المراجع الاساسية التي اخذت منها تلك الاستشهادات ، والتي اعتمد عليها في طرح موضوعات هذا الكتاب ، فقد اثبتت في نهايته قبل الملحق .

الحقت في نهاية هذا الكتاب دراسة تقارن بين حروب الفتوحات العربية الاسلامية الاولى وبين حروب نابليون ، تستهدف اظهار القمة التي وصل اليها فن الحرب على يد العرب . وقد افرد لها ملحق خاص لئلا يبدو التقييم الذي يتعلق بالعرب في سياق الكتاب ، تقييما منحازا لا يستند الى وقائع ملموسة .

اود ان اتوجه بالشكر الى الاخ الهيثم الايوبي لمراجعته هذا الكتاب ، وللملحوظات القيمة التي ابداها ، وقد افيد منها قبل ان يدفع الى المطبعة.

المؤلف

- ١ -

الحرب

الحرب عملية صدام وحشي يقتتل فيها البشر محطمين بعضهم بعضا جسديا – انها عملية قتل جماعي – بقصد تحقيق اهداف محددة . ولكن الحرب ظاهرة لها اسبابها . وقد رافقت المجتمعات البشرية منذ فجر الحضارة الانسانية حتى اليوم ، وستبقى الى زمن طويل قادم الى ان تلغى الاسباب الاجتماعية التي تولد الحروب .

اذا كانت الحرب تشن لتحقيق اهداف محددة – لا احد يقاتل من اجل القتال – فلا بد من ان ترى ضمن نطاق اهدافها وضمن طبيعة القوى التي تشنها . ان رؤية الحرب ضمن هذا الاطار يقسم الحروب الى قسمين رئيسيين : **حروب عادلة ، وحروب غير عادلة** . اما معيار العدالة او اللاعدالة في الحرب فينطلق من زاوية عدالة ، او عدم عدالة ، الاهداف التي تشن الحروب بقصد تحقيقها . انه ينطلق من طبيعة الطبقة او الطبقات التي تشن الحرب ، ولماذا تشنها ، وما هو الدور التاريخي الذي تلعبه كل من القوى المتحاربة ، هل هو دور تقدمي يدفع التطور الانساني الى امام ؟ ام هو دور رجعي يعطل التطور الانساني ؟ وهنا نجد انفسنا امام طراز من الحروب شنتها طبقات رجعية بقصد النهب والاضطهاد والاستعمار ، اي بقصد اخضاع الجماهير والشعوب والامم للاستغلال بمختلف اشكاله . هذا الطراز من الحروب شن ، ويشن ، منطلقا من طبيعة عدوانية استغلالية موجه ضد الجماهير العريضة من البشر ، وبالتالي فهو الطراز من الحروب، الذي يتسم باللاعدالة ، ويمكن رؤية امثلة عليه في الحروب التي وقعت بين الاباطرة والملوك والغزاة في الماضي، او بين الدول الامبريالية في العصر الحديث، مثلا، الحرب العالمية الاولى، الى جانب حروب الاستعمار القديم

والجديد ضد شعوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية . ولهذا فان الحروب اللاعادلة ذات ثلاثة اشكال :

١ – حروب بين الدول الامبريالية فيما بينها ، او بين الغزاة والرجعيين فيما بينهم ، مثلا الحرب العالمية الاولى .

٢ – حروب من جانب دول الاستعمار القديم ، او الاستعمار الجديد ، ضد الشعوب المتخلفة ، مثلا العدوان الامريكي على فياتنام .

٣ – حروب اهلية تشنها الطبقة الرجعية المحلية ضد جماهير بلادها ، مثلا حرب جيوش البيض (حروب التدخل) ضد الاتحاد السوفياتي بعد ثورة اكتوبر .

وفي المقابل كانت هنالك حروب عادلة شنت على مدى التاريخ ، وتشن في الوقت الحاضر ، وستشن في المستقبل ضد الحروب اللاعادلة ، وبقصد تحقيق اهداف هي لمصلحة الجماهير العريضة من البشر وفي اتجاه التقدم الانساني مثل حروب التحرر الوطني ضد الاحتلال الاستعماري ، او الحروب الاهلية لاسقاط الطبقات الاستغلالية الرجعية ، ومن اجل بناء مستقبل سعيد للبشرية خلو من الاستغلال والاضطهاد، وآمن من وحشية الحروب وبربريتها ، وهذا ما يعطي هذا الطراز من الحروب صفة العدالة والتقدمية . ولهذه الحروب ثلاثة اشكال رئيسية ايضا :

١ – حروب وثورات الشعوب المضطهَدة ضد الغزو الاجنبي والاستعمار والاحتلال . مثلا حرب التحرير الفياتنامية والثورة الفلسطينية والجزائرية ، والمقاومة المسلحة ضد دول المحور في الحرب العالمية الثانية .

٢ – حروب من جانب الدول المتحررة والتقدمية ضد الدول الامبريالية او الرجعية . مثلا حرب الاتحاد السوفياتي ضد الغزو النازي في الحرب العالمية الثانية ، او حرب الجمهورية العربية المتحدة ضد الكيان الصهيوني عام ١٩٦٧ ، او ضد الغزو الثلاثي ١٩٥٦ .

٣ – حروب اهلية تشنها الطبقات المضطهَدة المستغلّة ضد الطبقات الحاكمة

في بلادها . مثلا الحرب الاهلية في الصين ، والثورة المسلحة في لاوس ، وثورات اليونان والفيليبين والملايو في النصف الثاني من الاربعينات .

ان كلا من الاشكال الثلاثة الخاصة بالحرب اللاعادلة ، والاشكال الثلاثة الخاصة بالحرب العادلة ، عبارة عن الاشكال الرئيسية فقط ، اذ هنالك عدة اشكال اخرى هي جماع شكلين او اكثر من الاشكال ، مثلا حروب اهلية تشنها الطبقات الرجعية مصحوبة بحرب غزو امبريالي ، او في المقابل حروب تشنها الدول المتحررة والتقدمية مصحوبة بثورات وحروب الشعوب المضطهَدة الخ . وهنالك ايضا طراز من الحروب العادلة يعقد فيها تحالف بين بعض او كل الاشكال الثلاثة للحروب العادلة مع احدى الدول الامبريالية او الرجعية او اكثر ، ضد غزو امبريالي اشد رجعية وخطرا كما حدث في الحرب العالمية الثانية ، عندما تحالف الاتحاد السوفياتي مع امريكا وبريطانيا وفرنسا ضد دول المحور .

كان كلاوسفيتز Clausewitz قد عرّف الحرب بانها استمرار السياسة بوسائل اخرى – عنيفة . وقبلت الماركسية اللينينية هذه الموضوعة ، ولكنها ركزت على كشف طبيعة السياسة التي تشكل الحرب استمرارا وانعكاسا لها ، وذلك من اجل الكشف عن المحتوى الطبقي للحرب ، يقول لينين «ان الطبيعة الطبقية للحرب يجب البحث عنها ليس في التاريخ الدبلوماسي للحروب ، وانما بتحليل الواقع الموضوعي للطبقات الحاكمة في كل البلدان المتحاربة» . او كما يقول ، بعبارة اشمل ، «من هي الطبقة التي تشن الحرب وتستمر في شنها ، هذا هو السؤال الهام جدا !!» وذلك لتحديد الموقف من الحرب ، اي عدالتها ، وعدم عدالتها . ويستخلص لينين حتمية الحروب ليس بين الدول الامبريالية فيما بينها فحسب ، وانما ايضا ، امكانية وحتمية الحروب العادلة من جانب المضطهَدين ، ما دام هنالك امم مقهورة وطبقات مستغلّة . ويصنف الحروب الثانية – الحروب العادلة – الى ثلاثة اصناف : «اولا الحروب والثورات الوطنية الثورية ، وثانيا الحروب والثورات البروليتارية ضد البرجوازية . وثالثا حروب وثورات يجتمع فيها الطرازان السابقان الخ» .

اما ماوتسي تونغ فينطلق من موضوعة كلاوسيفتز وموضوعات لينين،

واخيرا يعطي تعريفا للحرب اكثر تكاملا من تعريف كلاوسيفتز فيقول : «الحرب هي اعلى اشكال الصراع لحل التناقضات بين الطبقات او الامم او الدول او المجموعات السياسية ، عندما تتطور تلك التناقضات الى مرحلة معينة . وقد وجدت هذه الظاهرة منذ بزوغ الملكية الفردية وتكوّن الطبقات» ... «واذا لم تفهم الظروف الواقعية للحرب وطبيعتها وعلاقتها بالاشياء الاخرى فلن تعرف قوانين الحرب ، او تعرف كيف توجهها ، او تكون قادرا على احراز النصر» .

وهنا نصل الى النتائج التالية :

١ ـ لا يكفي ان نصف الحرب بالوحشية ونشجبها لتنتهي الحروب وانما يجب رؤيتها كظاهرة تشكل اعلى اشكال الصراع لحل التناقضات عندما تبلغ مرحلة عدائية . وبالتالي علينا ان «نعارض الحرب بالحرب» نعارض «الحرب الامبريالية العدوانية بالحرب الثورية الوطنية» ونعارض «الحرب المضادة الطبقية الرجعية بالحرب الثورية الطبقية» او بكلمات اخرى ، علينا ان نعارض الحرب غير العادلة بالحرب العادلة . هذا هو الطريق للقضاء على وحشية الحروب وبربريتها .

٢ ـ الحرب هي استمرار للسياسة **بأساليب اخرى** ، او قل هي شكل صراع ـ اعلى اشكال الصراع ـ لحل التناقضات ، اي ان الحرب ميدان خاص مستقل تحكمه ظروف خاصة به ، وبالتالي له قواعده وقوانينه الخاصة . فالحرب استمرار للسياسة ولكنها ليست السياسة ، والحرب صراع لحل التناقضات ولكنها شكل خاص من الصراع. وبكلمات اخرى يجب ان تعامل الحرب كحرب، وبالتالي يجب ان تدرس وتعالج كمجال مستقل قائم بذاته من ناحية ، وكمجال متولد ومتأثر بمختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخ . من ناحية ثانية .

ولكي لا تبدو تلك الموضوعات نظرية تجريدية فلنلق نظرة سريعة على الوضع العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ، فسنلاحظ :

١ ـ اصبحت الحرب في العصر الذري عملية مستمرة حتى في ظل

ما يسمى بوقت «السلم» ، فالعالم او على الاصح الدول الكبرى ، في حالة حرب دائمة غير معلنة ، وما السباق النووي والصاروخي والتكنيكي والفضائي الا حالة حرب ـ وسنعالج هذه القضية تفصيلا في فصل لاحق مستقل .

٢ ـ شهد العالم سلسلة من حروب الغزو الامبريالية نذكر منها العدوان الامريكي على كوريا وفياتنام ، والعدوان الثلاثي على مصر ، والعدوان الصهيوني ١٩٦٧ الخ .

٣ ـ شهد العالم سلسلة من الثورات المضادة ـ اندونيسيا وغانا والاردن الخ .

٤ ـ سلسلة من الثورات والانتفاضات التحررية والثورية ـ الجزائر، فياتنام ، كمبوديا ، لاوس ، فلسطين الخ .

واذا القينا نظرة على وضع بلادنا العربية فسنجد ان الحرب بكل اشكالها تعيش بين ظهرانينا دائما :

١ ـ الحرب الصهيونية لاحتلال القسم الاكبر من فلسطين ١٩٤٨ـ١٩٤٩ .

٢ ـ حرب العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ .

٣ ـ التدخل الامريكي العسكري في لبنان ، والانزال البريطاني في الاردن عام ١٩٥٨ .

٤ ـ حرب الغزو الصهيوني حزيران ١٩٦٧ ـ احتلال كل فلسطين وسيناء والمرتفعات السورية وتعطيل قناة السويس .

٥ ـ حرب اشتباكات مستمرة على قناة السويس لمدة سنتين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ بين الجمهورية العربية المتحدة وبين الجيش الصهيوني .

٦ ـ الحرب في اليمن .

هذه فقط الحروب ذات الطابع النظامي او الحرب التقليدية ، فضلا عن سلسلة طويلة من الثورات المسلحة والاشتباكات الغوارية وغير الغوارية مع القوى المضادة للثورة والتهديدات الامبريالية بالتدخل المباشر، الى جانب سعي العدو الصهيوني في فلسطين لامتلاك القنبلة الذرية .

ان كل هذه الوقائع تجعل مسألة دراسة الحرب وفهمها مسألة حيوية ليس بالنسبة للمختصين فحسب، وانما ايضا بالنسبة للمثقفين والصحفيين والسياسيين والفنيين والعلماء والمناضلين والجماهير . بل ان ظاهرة تحول الثقافة العسكرية الى ثقافة عامة للشعب ، اصبحت ظاهرة عالمية في كل البلدان . لان الحرب ومسائلها اصبحت تعتمد اليوم اكثر من اي يوم مضى على الجهد الجماعي للامة كلها سواء في عمليات المؤخرة او الميدان . اذ لم تعد عملية قيادة الحرب ووضع استراتيجيتها من اختصاص الجنرالات وحدهم فقد اصبحت الاستراتيجية –حتى في الدول الغربية الراسمالية– ترسم على طاولة مستديرة يلتف حولها القادة السياسيون والجنرالات والفنيون والعلماء والمثقفون . اما في الصين الشعبية ، مثلا ، فان دراسة الحرب وقواعدها جزء اساسي من برامج التعليم في المدارس والجامعات ، ومن الثقافة العامة للشعب كله . وعندما نتحدث عن الثقافة العسكرية او دراسة قواعد فن الحرب لا نقصد التدريبات او التمرينات العسكرية على فك السلاح واطلاق النار والصف بالطابور فهذه تحصيل حاصل ، وانما نقصد دراسة الموضوع على اعلى مستوى اي على مستوى الاستراتيجية والعمليات والتكتيك .

ان بلادنا العربية تواجه خطرا يتهددها الى اجيال قادمة، وهذا الخطر مدجج بالسلاح ويلجأ للحرب لتحقيق اهدافه وغاياته العدوانية التوسعية والاستعمارية . انه خطر الكيان الصهيوني والجيوش الامبريالية . وليس لنا من سبيل الا الدفاع عن بلادنا وجماهيرنا ومستقبلنا، وستكون الحرب جزءاً هاما في هذا الدفاع ، وعلينا ان ندركها ونعرف كيف نعد لها ونواجهها ونخوضها بنجاح . واذا كانت الحرب عملية صدام وحشي يحمل الكوارث والدمار والويلات ، الا انها مفروضة علينا وتعيش بين ظهرانينا ، وعلينا ان نواجه هذه الحقيقة المرة ونحوّل مرارتها الى حلاوة انعتاق انساني . ان الذين يدركون قواعد فن الحرب ويعرفون كيف يعالجون مسائلها ويعرفون كيف يقودونها ، هم وحدهم الذين يخففون من ويلاتها ويستطيعون

ازالة اخطارها . اما استمرار الجهل في هذا المجال ، او محاولة دفن الرؤوس في الرمال ، فلن يدفعا الحرب عنا ولن يخففا من وحشيتها وويلاتها ، وسيلدان دائما هزائم من طراز هزائمنا عام ١٩٤٨ / ١٩٤٩ ، وعام ١٩٦٧ .

هل الحرب علم ام فن ؟

ثمة عسكريون ومثقفون يتشددون بتسمية الحرب بعلم الحرب ، وثمة آخرون – وهؤلاء الاغلبية – يسمونها بفن الحرب . وكثيرا ما دارت مناقشات حول هذه التسمية لانها هنا ليست مجرد خلع اسم ما على موضوع ، وانما لانها تحمل في طياتها موقفا من موضوع الحرب ، هل ينظر الى مجال الحرب كمجال خاضع للدراسة العلمية والخروج بالقوانين العلمية التي تحكمه ؟ ام ينظر اليه كمجال لا يستطيع العلم معرفته وضبط قوانينه ، وبالتالي فهو ضمن مجال الفن لا العلم ؟

في الواقع ، ثمة صراع ، منذ امد طويل ، في المجال الفلسفي والثقافي حول مسألة الظواهر الاجتماعية هل هي محكومة بقوانين في حركتها يمكن اكتشافها ومن ثم التحكم بها ، اي هل تدخل ضمن مجال العلوم ، ام هي مجرد تراكم عرضي للاحداث لا تخضع للدراسة العلمية لانها غير محكومة بقوانين في نشوئها وتطورها وديناميكية حركتها وزوالها ؟ وصل الاتجاه الثاني قمة التعبير عن نفسه على يد كيركفارد الذي اكد ان الضرورة او القانون ينطبقان على الذرات او على المادة اللاواعية ، او حسب تعبير كيركفارد «على الجثث» . اما البشر والمجتمع فلا ضرورة ولا قوانين تحكم حركتهما . اما الاتجاه الثاني – بيكون ، ديكارت ، سبينوزا ، كانط ، هيجل ، ماركس – فقد اعتبر التاريخ الانساني والنشاط الاجتماعي والظواهر الاجتماعية ليست مجرد تراكم عرضي للاحداث وليست مجالات لا يمكن فهمها واكتشاف القوانين التي تحكم حركتها ، او بكلمة اخرى ان حركة المجتمع ومختلف ظواهره تقع ضمن مجال العلم ، وبذلت المحاولات لجعل التاريخ علما وكذلك الاقتصاد والسياسة ومختلف المجالات الاجتماعية والسيكولوجية . ولكن كان من الواضح لاكثر الذين عالجوا هذه المجالات كعلوم ان مفهوم العلم هنا او على الاصح القوانين التي تعمل في

المجال الاجتماعي هي قوانين ذات اتجاه وهي تقريبية نسبية تقع ضمن الارادة الواعية للبشر وفعلها . فهي تؤثر على صياغة تلك الارادة ولكنها تتم من خلال تلك الارادة ووعيها . ولهذا حين تستخدم كلمة علم في دراسة اية ظاهرة اجتماعية واكتشاف قوانينها ، يجب الا تفهم بالمعنى الضيق للعلم الذي ينطبق على المجالات المادية الطبيعية، لان قصر العلم على المجالات التي يمكن ضبطها بقوانين تنطبق على كل حالة جزئية من حالات الظاهرة الواحدة — بمعنى تكرار الظاهرة — يستبعد العلوم الانسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والاقتصاد والاشتراكية العلمية كما يستبعد مجال الحرب ، بل يستبعد ايضا مجالات من العلوم الفيزيقية والرياضية مثل السبرنطيقا وعلم الاحتمالات ورؤية الاتجاهات في حركة ادق الاجزاء المادية . اما اذا حمل العلم تعريفا اوسع ليكون بمقدوره دراسة الظواهر الاكثر تعقيدا ، خاصة ، دراسة الظواهر التي لا تكرر نفسها على صورة واحدة في عملية حركتها وتطورها ، عندئذ يكون بمقدوره اخضاع مختلف الظواهر الاجتماعية — بما فيها الحرب — الى المنهج العلمي في الدراسة واستنباط اعم قوانينها، الى جانب ايجاد الوسيلة لاستنباط قوانين كل ظاهرة في حركتها الحاضرة والمستقبلة وبالتالي معالجتها رغم انعدام صفة التكرار .

ولكي نكون اكثر وضوحا فلنتناول ظاهرة الماء في المجال الطبيعي وظاهرة الحرب في المجال الاجتماعي ، فسنجد ان الفرق الاساسي بين الظاهرتين يكمن في كون جزئيات الماء هي نفسها في كل حالة — اي صفة التكرار — وبالتالي يصبح بالمقدور القول ان الماء يغلي على درجة مائة وتحت ضغط جوي ٧٦ وسنجد الماء يغلي في كل الحالات التي تتوفر فيها درجة حرارة مائة وضغط جوي ٧٦ . اما الحرب فنحن لا نستطيع ان نقول اذا تقابل طرفان وكان احدهما يمتلك سلاحا متفوقا سينتصر في المعركة ، لان ظاهرة الحرب عبارة عن تداخل وتشابك وترابط بين مجموعة كبيرة من العناصر . وتأثير هذه العناصر على بعضها البعض ومدى اهمية كل عنصر ليست مقادير ثابتة — متكررة — في كل حرب او في كل معركة . ولهذا فان القوانين التي تحكم كل حرب وكل عملية وكل معركة تختلف في كل حالة . وهذا ما جعل ضبط كل الحالات بقوانين تضمها كقوالب حديدية امرا محالا وخاطئا . وهذا ما جعل الاتجاه الذي لا يعتبر الحرب علما يسميه فنا . وهذا ما جعل الاتجاه الذي يعتبر الحرب علما يعطى لمفهوم

العلم في هذا المجال معنى أوسع من مفهومه في العلوم الفيزيقية .

الذين يقولون ان الحرب فن لا ينكرون وجود قواعد عامة لهذا الفن ، كما لا يعتبرون الحرب شيئا غيبيا ، او لانها ظاهرة تتألف من عناصر غير موضوعية . فهم يرون كل حرب ، وكل حالة جزئية في الحرب تخضع لظروف الزمان والمكان والارض والتكنيك وتوازن القوات الخ. ولكن عملية الحرب نفسها اي قيادتها وتوجيهها فهي خاضعة ايضا لفن القائد في المعركة . ولكن اذا سألنا ما هو فن القائد في المعركة ؟ فسنجده عبارة عن مقدرة القائد على التقييم الصحيح لكل العناصر التي تشكل الحالة التي امامه ، ومن ثم مقدرته على تحديد افضل خط للعمل — للتنفيذ — بناء على هذا التقييم . او بعبارة اخرى مقدرته على اكتشاف قوانين الظاهرة التي امامه بالاستناد الى الوقائع الملموسة المعطاة ، وبالتالي اكتشاف قوانين التطبيق ضمن المعطيات الملموسة التي بين يديه ، او التي يمكن ان يوفرها، مقابل تلك التي في الجبهة المقابلة . الان ، هل نسمي هذه العملية فنا ، ولكن بماذا تختلف عن الدور الذي يقوم به العالم في المختبر وهو يدرس ظاهرة جديدة ويحاول اكتشاف قوانينها ، فاذا كانت عملية الاكتشاف والمقدرة العقلية على الاكتشاف تسمى فنا . فعندئذ يجب ان تفهم كلمة فن حين تطلق على الحرب ضمن هذا الاطار . كما يجب ان تفهم كلمة علم حين تطلق على الحرب ضمن هذا الاطار . ولنتذكر ان عبارة « فن القائد » اصطلاح قديم كان يعني الاستراتيجية .

هنا نجد انفسنا مضطرين الى بحث هذه المسألة من زاويتين :

الاولى : دراسة الحرب كمجال عام ، وهنا نستطيع ان نطلق على هذه الدراسة علم الحرب اذ يمكن دراسة تاريخ الحروب دراسة علمية والخروج بالقوانين الاعم التي حكمت هذه الظاهرة الاجتماعية . ان هذه الامكانية هي التي دفعت كلاوسيفتز وجوميني الى دراسة الحروب السابقة ، وخاصة، حروب نابليون ، دراسة منهاجية علمية ، واستنتاج أعم قواعد الحرب وقوانينها ، وتحديد علاقة هذه الظاهرة الاجتماعية بالظواهر الاخرى. وقد توالت الدراسات العلمية للموضوع بعد ذلك ، واخذ علم الحرب يزداد تحديدا ودقة ، شانه شأن مختلف العلوم .

ان علم الحرب لا يقتصر على دراسة اساليب الحرب واشكالها او كل

ما يتعلق بالاستراتيجية بشكل عام فحسب ، ولا يقتصر على دراسة المسائل المتعلقة بخوض الاعمال القتالية المرتبطة بفن العمليات والتكتيك فحسب ، وانما يشمل ايضا المسائل النظرية المتعلقة بالاستراتيجيـــة والعمليـات والتكتيك ، او على الاصح ، انه يشمل اكتشاف القوانين الموضوعية لهـذه المسائل . وهذه القوانين لا تتصف بالقالبية ، ولا تشتق وفقا للرغبـات الذاتية ولكنها تنبع من شروط موضوعية عديدة يقف على راسها تطور قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية والشروط الاجتماعية والسياسية في كل فترة تاريخية ، اذ يكفي ان ينزل الى الميدان سلاح جديد نتيجـــة تطور ادوات الانتاج والتقنية ، او يحدث تغيير في العلاقات الانتاجية ـ تغيير في البنية الطبقية ـ حتى تنشأ قوانين جديدة في الحرب . وهذا بدوره ، او عـلى التحديد اكتشاف هذه القوانين الجديدة ، هو الذي يعطي اهمية كبـــرى للنشاط العقلاني ـ او على الاصح للعامل الذاتي ـ في الحرب ويجعل من الحرب فنا مبدعا يحتاج الى الخلق والابتكار ، او الى ما يسمى بشعلـة العبقرية . لهذا فان التأكيد على القوانين الموضوعية التي تحكم الحرب لا يلغي دور العامل الذاتي بل يؤكده ، كما ان التأكيد على دور العامل الذاتي او فن القائد والكوادر والجنود في الحرب لا يلغي تلك القوانين الموضوعية ، بل يؤكدها ويرتبط بها .

الثانية : دراسة ديالكتيك تطبيق تلك القواعد على الحالات الجديدة . او حسب التعبير العام الدارج دراسة فن التطبيق . ان استخدام كلمـة ديالكتيك هنا او فن تستهدفان التأكيد على ان تطبيق قواعد علم الحـرب تختلف عن تطبيق قواعد ـ او قوانين ـ العلـوم في المجال الطبيعي . لان الحرب لا يواجه ظاهرة متكررة ، وانما يواجه في كل مرة ، وفي كل حالة ظاهرة متجددة ذات فرادة خاصة ، لذلك فان عمل القواعـد العامة لهـذا العلم تأخذ ، في كل مرة ، وفي كل حالة ، طابعا شديد الخصوصيـــة ، تحكمه قوانين خاصة . ولكن هذه القوانين الخاصة تقع ضمـــن اطـــار ومفعولية القوانين العامة غير انها ليست القوانين العامة . ولهـذا فـــان التطبيق في الحرب له شروطه الخاصة به ، لانه يعالج واقعا معطى مرتبطا بحركته المستقبلية بالشروط المادية القائمة وبالارادة والوعي بما في ذلـك الخيار بين عدة احتمالات . وبالتالي عليه ان يعالج الواقع المادي ، ويعالج حركة العامل الذاتي ، ويحدد العلاقة بينهمـا ، لان العامـل الذاتي ليس مستقلا عن الواقع الملموس ، او غير محكوم به ، ولكن فعله ، من خـــلال

الواقع المعطى يتضمن مجموعة من الخيارات التي يتيحها ، ويفرضهـــا ، الواقع المعطى ، في كل مرة ، وفي كل حالة . هذه عملية معقدة ، ولكنهـا تحوي جانبين : الواقع الموضوعي والحكم الذاتي . وهذا الحكم الذاتي على هذا الواقع الموضوعي هو الذي يسميه العسكريون حس المعركة ، او شعلة العبقرية او فن الحرب . ولكن هذا ما يواجه كل عملية بحث علمي في مجال الطبيعة ايضا ، والفرق الجوهري ان واقع الحرب أشد تعقيـدا وبالتالي يحتاج الى مستوى من الذكاء والتجربة أعلى من تلك التي يحتاجها البحث العلمي المختبري ، خاصة ، وان اصدار حكم واخذ اجراء كثيرا ما لا يتيح فرصة اخرى ، في المجال العسكري ، لاعادة التجربة بعد ان يكون المحظور قد وقع وتغيرت نسب كل العناصر التي كانت معطاة . واذا أضفنـا دور العامل النفسي والمعنوي والانساني الذي يبدل في كثير من الاحيان قوانين علم الحرب على اعتبار ان الاداة الاساسية في القتال هي الانسان ووعيـه وعواطفه وشجاعته وخوفه ولمحات عبقريته والقضية التي يقاتل من اجلها الخ. وهذه كلها ليست مقادير يمكن تعدادها كميا او ضبطها بقوالب جامدة، وبالتالي فهي من الامور التي دفعت الكثيرين الى اعتبار علم الحرب اقـرب الى الفن . رغم ان هذه ايضا لم تعد بعيدة عن تناول علم الاجتماع وعـلم الثورة والسياسة ، خاصة ، بعد توفر الحصيلة النظرية العلمية المتولـدة عن تجارب الحروب الثورية في الاتحاد السوفياتي والصـين وفياتنـــام وكوريا الخ.

لذا فان مجال علم الحرب يزود بقوانين عامة ، تشكل دليلا للعمـل ، بينما المجال الواقعي للحرب يولّد ، باستمرار ، حالات تحتاج الى اكتشاف قوانينها الخاصة ، بما في ذلك قوانين المعالجة . ومن هنا لا بد من دراسة الحرب كعلم ، ومعالجة التطبيق في الحرب بمنهج علمـــي يستنـــد الى الحصيلة العلمية المتوفرة ، والى اكتشاف قوانين الحالة المعطاة ، شريطة توفر المقدرة على عملية التقييم والحكم والتنفيـذ ، بصورة صحيحـــة . وبكلمة ، ان العمل في مجال الحرب شبيه بالعمل في مجال مركز ابحـاث علمي ، حيث لا بد للعالم الباحث ان يكون متمكنا من كل الحصيلة العلمية المتوفرة في مجال بحثه ولكنه يواجه ظاهرة جديدة ضمن ذلك المجـــال ، وعليه ان يستخدم تلك الحصيلة العلمية مقرونة بواقع الظاهرة الجديدة ، مُطَبقا منهجا علميا في بحث مختلف جوانب الظاهرة، وفي تقييم المعلومات المتوفرة والخروج بالقانون او القوانين التي تحكمها . هنا عمل العلم يختلف

عن عمله في المصنع حيث تطبق القوانين العلمية نفسها لتكرر انتاج الظاهرة نفسها .

لعل أقرب تصوير للعلاقة بين العلم والفن في مجال الحرب قول ماركس : « ان الثورة المسلحة اليوم فن بالقدر نفسه الذي أصبح فيه علم الحرب ، او اي فرع اخر ، فنا قائما بذاته» . اي انه علم من ناحية ، وفن من ناحية اخرى . انه علم في دراسته ومنهجه، وفن في التطبيق . لذلك لا بد من دراسة الحرب كعلم ومن امتلاك ديالكتيك التطبيق او فن التطبيق. واذا قبلت هذه الموضوعة فربما كانت افضل تسمية هي فن علم الحرب . وذلك لرؤية الحرب كظاهرة متحركة لها قوانينها العامة ، ولكن حركتها ليست حركة تكرارية ، وبالتالي ان كل لحظة من لحظات تلك الحركة بحاجة الى اكتشاف جديد وفن تطبيق جديد .

ان فن الحرب يقوم على الوحدة العضوية المستمرة بين النظرية والتطبيق .

ان هذه الدراسة لتستهدف تقديم موضوع الحرب كعلم بقصد الكشف عن قوانين الاستراتيجية والعمليات والتكتيك في الحرب ، كما تستهدف كشف فن الاستراتيجية والعمليات والتكتيك في التطبيق . .

- ٢ -

الاستراتيجية

مدخل

يدرس علم الحرب عادة من ثلاثة اوجه رئيسية :

١ ـ الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي

٢ ـ العمليات الاستراتيجية والتخطيط للعمليات الاستراتيجية ويشمل دراسة قواعد علم الحرب .

٣ ـ التكتيك والتخطيط التكتيكي .

ويقسم العسكريون السوفيات منذ زمن بعيد هذه الفروع الى (١) الاستراتيجية (٢) فن العمليات (٣) التكتيك . والفرق هو فن العمليات ، وهنا علينا ان نلاحظ اختلاط فن العمليات منذ القديم في الاستراتيجية والتكتيك ، ولم يصبح فرعا قائما بذاته الا بعد تكون الفكر العسكري السوفياتي . وقد عرفه الجنرال ستروكوف : « ان اساليب واشكال اعداد العمليات وخوضها من اجل تحقيق الاهداف الاستراتيجية للحرب تشكل موضوع فن العمليات. ومن اهم واجبات هذا الفن ما يلي: تحديد فكرة العملية، تخطيط استخدام القوى والوسائط ، انتقاء الاساليب والاشكال المرتبطة باستخدام وقيادة التشكيلات الكبرى (الجيوش والجبهات) ، تنظيم التعاون العملياتي للقوى والوسائط المختلفة المشتركة في العملية » .

وهنالك من يضع هذه الفروع الثلاثة تحت عنوانين رئيسيين : أ ـ التخطيط (ب) التنفيذ . ولكن ثمة فرع آخر متضمن فيها ، وقد اصبح يحظى بأهمية متزايدة ، خاصة ، منذ عهد نابليون ، واكثر خصوصية منذ الحرب العالمية الثانية حتى الان ، وهو اللوجستيك .

اللوجستيك : Logistics

كان اللوجستيك في الماضي ايام الفراعنة واليونان والرومان والفرس والعرب والى أواخر عصر الاقطاع او على الاصح حتى غوستاف ادولف ، يتركز اساسا في حل مسألة اطعام الجنود وصيانة العربات القليلة واصلاح الدروع وتأمين عسكرة الجنود . ولهذا كانت اكثر الجيوش القديمة تحمل وراءها ذيلا من المدنيين للقيام بالخدمات ، ولكن الاعتماد الاساسي كان على المناطق التي يفتتحها الجيش من اجل تأمين المتطلبات المادية للجنود . بل كثيرا ما كانت هذه المسألة تحكم استراتيجية المعارك حيث توجه الحرب الى المناطق التي يمكن ان تؤمن تلك المتطلبات .

ادرك غوستاف ادولف (١٥٩٤ ـ ١٦٣٢) ملك السويد ، ان الحركة التكتيكية ترتكز على الانضباط الجيد ، بينما يقوم الانضباط الجيد على اساس وجود ادارة كفؤة تثق بها القوات. فأقام نظاما دائما للصيانة ، وأمن للجيش الثياب والاحذية والخيام، وزودهم بمخصصات وطعام على اسس ثابتة منتظمة ، اما في زمن الحرب فعمد الى اقامة المستودعات والمخازن التي لم تكن معروفة قبله ، وحسن الاسلحة والمعدات والادوات الهندسية والخدمات الطبية . وبهذا أخذ اللوجستيك معنى جديدا يتناول مسائل التزويد والحركة للجيوش . ان هذا التطور جاء وليدا للتطور الصناعي والتكنيكي الذي حمل معه انتاج المدافع والاسلحة النارية وتطوير العربات والطرقات والنقل ، وما يتبعها من مسائل الادارة والصيانة والتزويد .

زادت اهمية اللوجستيك في زمن نابليون الذي جاءت جيوشه تعبيرا عن تجنيد امة بأسرها كتجسيد للتطور البرجوازي بعد انتصار الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . وقد ادت تنظيمات نابليون لهذا الجيش

الضخم ، وتقسيمه الى فرق شبه مستقلة ، تضم مختلف صنوف الاسلحة ولها هيئة اركانها ، كما لها عملياتها المستقلة الى جعل مسائل اللوجستيك ذات اهمية خاصة ، وبالتالي ضرورة حسابها سلفا قبل تحريك تلك الجيوش باتجاهات مختلفة وعلى طرقات مختلفة . اذ اصبح من الضروري تأمين كل ما تحتاجه تلك الفرق من معدات ولباس وطعام وعربات ومعدات، وتأمين طرقاتها واستمرار تزويدها بالذخائر والحاجات المادية الاخرى الى جانب الصيانة . وبهذا اصبحت وظيفة اللوجستيك: (١) النقل (٢)الصيانة (٣) دعم الجيش والعمليات . وهذا يعني الادارة والخدمات .

كان القرن التاسع عشر عصر التجنيد العام الاجباري ونمو كثافة النيران وزيادة قوة الحركة . وجاءت الخطوط الحديدية لتصبح في منتصفه الثاني في خدمة نقل الجيش ، وقد ادت الى تطوير السرعة ، وقوة المناورة الاستراتيجية ، وزيادة احجام الجيوش في الميدان . اذ جعلت من الممكن نقل اعداد كبيرة من الرجال الى الميدان بسرعة وتزويدهم بالمؤن والمعدات والذخائر بالطريقة نفسها. مما اكسب اللوجستيكا اهمية حاسمة، بل اصبح هدف العمليات محاولة تعطيل نظام اللوجستيك في الجيش المقابل كما اصبح اي تحرك في العمليات الاستراتيجية يتطلب المحافظة على خطوط المواصلات الذي يعنياساسا المحافظة على الشرياناللوجستيكي للجيش . ولهذا اثبتت تجربة الحرب الاهلية الامريكية ان تخريب الخطوط الحديدية وقطع طرق التموين والتزويد. لهما اثر حاسم على مصير المعركة، وكذلك تجربة الحرب الروسية ـ اليابانية .

كشفت الحرب العالمية الاولى عندما ركدت الجبهة، وتحولت الى حرب استنزاف طويلة الامد ، اهمية المقدرة اللوجستيكية لدى الامة والجيش في تقرير مصير الحرب في نهاية المطاف . فقد تزايد الاعتماد على المؤخرة وهنا اصبحت مسألة النقل والتزويد المستمر للجبهة والصيانة الخ. تلعب دورا اساسيا حاسما . وقد جاء هذا تأكيدا لصحة موضوعة كلاوسيفتز حول العلاقة بين الوضع الاقتصادي والمدني للامة وبين الحرب .

اما في الحرب العالمية الثانية مع نمو سلاحي الطيران والدبابات ثم التطورات التكنيكية التي عرفتها آلة الحرب بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم ، فقد اصبح الجانب الاداري والنقل والصيانة والتزويد المستمر

احد الجوانب فقط في مجال اللوجستيك (١) ، اذ اصبحت اللوجستيك تشمل تنظيم الاقتصاد القومي وتعبئة كل المصادر – الصناعة ، والزراعة ، والطاقة ، والخدمات الطبية ، والابحاث العلمية ، والميكانيكا ، والتكنيك ، والانتاج المدني والعسكري . وبالتالي فقد اصبح اللوجستيك يحتل مساحة واسعة في التخطيط الاستراتيجي – التحضير – كما يغطي ساحة واسعة في عملية التنفيذ العسكرية نفسها .

ان تعقد مسألة النقل – خاصة الطيران – والصيانة وتأمين اكوام المخزونات واستمرار التزويد بالبترول والمعدات والذخائر الى جانب الحاجات المادية للمعيشة جعل من الضروري وجود هيئة اركان خاصة في الجيوش الحديثة لهذا الفرض . كما ان ازدياد الدور الذي اصبح يلعبه التحضير في تقرير مصير الحرب اوجب تشكيل لجنة قومية على اعلى مستوى في الدول الحديثة لحل مسائل اللوجستيك وتأمينها ليس للجبهة فحسب ، وانما ايضا ، للمؤخرة ، وهذا يعني ان اللوجستيك اصبح يغطي مجالا يمتد من الوضع المدني حتى فوهة البندقية في خط النار ، وغدا جزءا رئيسيا في الاستراتيجية العليا التي تقع بين السياسة وبين الاستراتيجية العسكرية .

نلحظ مما تقدم ان اللوجستيك يعالج جانبا ماديا ملموسا يخضع للتخطيط والتنفيذ العلميين مباشرة. ولذلك فان حل مسائله مرتبط بالوضع المادي والتكنيكي للجبهات المتحاربة . الامر الذي يجعل قوانين عمله تختلف من حرب الى حرب وتختلف من امة لاخرى ، فمثلا ان حل مسائل اللوجستيكا في حرب تخوضها دولة كبيرة متطورة علميا وتكنيكيا وانتاجيا كالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تختلف عن الحلول التي تقدمها الشعوب المتخلفة ، وهي بالتالي تلعب دورا اكثر حسما في تقرير مصير تلك الدول في الحرب مما تلعبه لدى الشعوب المتخلفة . ولهذا فهي تدخل

---

(١) نقلت كلمة لوجستيك دون تعريبها الدارج «الشؤون الادارية» لان معناها ومجال مهامها يتعديان الشؤون الادارية التي بقيت جزءا من اللوجستيك . واذا استخدمت عبارة الشؤون الادارية كترجمة لكلمة لوجستيك، فيجب فهمها بمعنى شامل يتعدى المفهوم التقليدي لعبارة شؤون ادارية .

كفرع ذي استقلال ذاتي ضمن الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي والتنفيذ، ومن هنا سنركز في دراستنا على الفروع الثلاثة الرئيسية واعتبار اللوجستيك متضمنة فيها لان التخطيط والتنفيذ اللوجستيكيين مرتبطان عضويا بمسائل الاستراتيجية ، والتخطيط الاستراتيجي ، والعمليات الاستراتيجية ، والتخطيط للعمليات الاستراتيجية ، والتكتيك والتخطيط التكتيكي . او بعبارة ابسط بنوع كل تخطيط وكل تنفيذ .

الاستراتيجية عبر العصور

اصبح استخدام كل من كلمتي استراتيجية وتكتيك فضفاضا ، وكثيرا ما استخدمتا . وتستخدمان ، في غير محلهما ، فيخلط بين الهدف والاستراتيجية او بين الاستراتيجية والتكتيك، او بين مفهوم الاستراتيجية ودورها من مجال لآخر . بل ان اكثر الذين حاولوا تعريف الاستراتيجية والتكتيك قدموا تعريفات اما ناقصة واما غير منطبقة الا على مجال محدد.

يرجع اصل كلمة استراتيجية الى جذر يوناني استراتيجوس Strategos ويعني العام general ، كما يرجع اصل كلمة تكتيك الى جذر يوناني ايضا : تاسو Tasso ويعني يعالج او يدبر arange ولكن سرعان ما اصبحت كلمة استراتيجية تحمل مضمونا اكثر شمولا من معناها الاصلي : عام ، وكذلك كان الحال بالنسبة لكلمة تكتيك .

وانتقل التعبيران الى ميدان الحرب ، واخذا محتويات مختلفة عبر العصور تبعا للمرحلة التاريخية والاجتماعية ، ولقوانين الحرب واشكالها بالنسبة لكل مرحلة . ثم اخذا يستخدمان في منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين في ميادين اخرى الى جانب استخدامهما في مجال الحرب، وخاصة ، في مجال الصراع السياسي . ثم اذا اضفنا الى كل ذلك تعدد اشكال الاستراتيجية ومحتوياتها ، وظروف طرحها وتطبيقها في كل حالة، فسوف ندرك سبب تعدد التعريفات وكثرة الخلط الذي اكتنف ، ويكتنف، استخدام عبارتي الاستراتيجية والتكتيك .

قبل ان ندخل في مناقشة مختلف التعريفات ودراسة مسائل

الاستراتيجية واشكالها يحسن ان نستعرض ، بسرعة ، تطور محتوى ، او مفهوم كلمة استراتيجية تاريخيا ، آخذين بعين الاعتبار ان المحتوى او المفهوم ينبعان من الدور الذي تلعبه الاستراتيجية في كل مرحلة تاريخية وفي كل حالة .

لقد مرت الاستراتيجية بثلاث مراحل رئيسية حتى نابليون بونابرت .

المرحلة الاولى : كان الملوك والاباطرة ، في عصر العبودية ، يجمعون السلطتين العسكرية والسياسية بأيديهم، وكانت الجيوش تتالف اساسا من ملاك العبيد ، ومن « المواطنين » . وكانت وظيفة الاستراتيجية العسكرية تتركز في حشد القوات المسلحة وتنظيمها والاعداد للحرب. وتقرير ضد من توجه الحرب ، مع اختيار وتحديد مكان الحملة وزمانها . وكيف يقاد الجيش من اجل تامين تفوق على العدو مقدما . اما الاهداف الاستراتيجية العسكرية فكانت القضاء على جيش العدو او الاستيلاء على مدنه . اما فيما يتعلق باستراتيجية العمليات اي مرحلة الانتقال الى ساحة المعركة فقد تركزت اساسا في الانتقال من نقطة في المكان الى نقطة في المكان بشكل الجيش ككتلة واحدة بقصد الالتقاء في ساحة المعركة مع الجيش المقابل . ولم تخل هذه الحركة من مناورات بسيطة، ولكن كان الشيء الحاسم متوقفا على عملية الاشتباك نفسها . وكثيرا ما كانت تحكم الاستراتيجية في تحديدها لاتجاه الحرب بمسألة الدخول الى مناطق تؤمن جرايات الجيش وحاجاته، فضلا عن خدمتها للهدف السياسي ــ الاقتصادي الذي هو فتح الممالك والامصار لتصب الخيرات في اهراء عاصمة دولة الاسياد ، وجلب مجموعات العبيد من الشعوب المقهورة .

المرحلة الثانية : هبط مستوى الاستراتيجية في العصور الوسطى ــ عهد الاقطاع ــ وهي عهد الفروسية والفرسان المدرعين . اذ بعد ان كانت ، في المرحلة الاولى ، تعالج قضايا الحشد والتعبئة على مستوى البلاد بأسرها ، اصبحت الآن مقتصرة على نطاق ضيق جدا .

كان الملك او الامير عندما يقرر الحرب يشكل الجيش من الفرسان nights مقابل الاراضي التي منحوها ، فيعينهم على رأس تابعية الجنود، ولم تعد الاستراتيجية اكثر من تكليف كل امير او اقطاعي او فارس بحشد

القوات في تابعيته ، وقد غابت المناورة الاستراتيجية قبل المعركة غيابا تاما ، وغدت الحرب عبارة عن تطبيق اصول محددة ، ملك ضد ملك ، فارس ضد فارس الخ. وكان الملوك والفرسان يقاتلون كالجنود . بل لقد سميت الحرب في هذه المرحلة « المعركة بالاتفاق » وهكذا لم تتجاوز الاستراتيجية مسائل تحضير القوات المسلحة ، وتحديد وسائط النقل مع تحديد هدف الحملة ، واختيار اساليب واشكال الصراع المسلح .

المرحلة الثالثة : تمتد هذه المرحلة من القرن الرابع عشر حتى الثورة الفرنسية الكبرى او على الاصح حتى عصر نابليون .

لقد دخل البارود الى اوروبا عن طريق العرب في القرن الرابع عشر . ورافق ذلك ، مع نهاية القرن الخامس عشر ، حدوث تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية هامة ، او بعبارة اخرى بدات الطبقة البرجوازية بالنمو والظهور على المسرح حاملة معها التطور الصناعي والتكنيكي والعلمي مقرونا بتباشير عصر النهضة . وقد ادى ذلك الى تطور المدفعية ــ كان الاتراك في القرن السادس عشر قد طوروا مدفعية الحصار ــ والى ادخال اصلاحات في تنظيم الجيوش واساليب الحرب . ومع ذلك لم يحصل تقدم في الفكر الاستراتيجي بما يتناسب مع التطورات الجديدة لان الحروب بقيت تقاد بالملوك والامراء وكان القتال مقصورا على الجيوش المحترفة اما مجتمعاتها فظلت بعيدة عن المشاركة الفعلية .

كان مكيافيلي (١٤٦٩ ــ ١٥٢٧) اول من عكس التقدم الذي حدث في احشاء المجتمع الاقطاعي ، وجاءت افكاره حول الحرب تعبيرا عن التطور البرجوازي الذي ما زال في مراحله الجنينية ، وجاءت فاتحة للتفكير الاستراتيجي المعاصر فيما يتعلق بمسائل الحرب الحديثة ، وقد الف كتابا اسماه « فن الحرب » انطلق فيه من مفهوم خاطىء في النظر الى الحرب اذ اعتبرها ضرورة وشيئا طبيعيا ابديا لانها تعبر عن تنازع البقاء بين الاحياء . ولكن المهم في الكتاب انه نزع الحرب من المفاهيم الاخلاقية والدينية والاقطاعية وفسرها بأسباب اقتصادية وسياسية وقومية ودستورية ، وطرح مفهوما يقضي بجعل الدولة كلها تنخرط في الحرب ، وضرورة استمرار الحرب حتى الحصول على نتيجة لمصلحة الامة كلها وليس لارضاء رأس الدولة . وحاول اشتقاق القواعد الاساسية

للاستراتيجية السياسية وشملت دراسته المسائل العسكرية ، واقام رابطة بين تفصيلات الحرب وبين هدف الحرب ، واقام رابطة ايضا بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية ، وقال يجب ان تشن الحرب من قبل كل الامة ، وبالمقابل يجب ان يكون هدف النصر لمصلحة الامة كلها .

وبكلمة ، اصبح مفهوم الاستراتيجية يعني الحرب الكلية ، من قبل الامة اجمع، وبالتالي ضرورة تعبئة الامة وتنظيم مصادرها من اجل خوض حرب تستهدف خدمة مصالح الامة ككل . وكانت هذه الموضوعة اول محاولة لاعطاء مفهوم الاستراتيجية معنى شاملا . ولكنها بقيت شيئا نظريا ولم تتحول الى واقع لانها تعبر عن نظرة البرجوازية للحرب بينما كانت اوروبا لم تزل تحت سيطرة الاقطاعية .

كان غوستاف ادولف (١٥٩٤ — ١٦٣٢) القمة الثانية بعد مكيافيلي ، كتعبير عن التطور الصناعي الجديد الذي اصبح يفرض اعلان الطلاق مع التقاليد الاقطاعية في الحرب ، فحاول احياء الفن العسكري وتخليصه من الفوضى ، ولكن ظلت اصلاحاته في حدود تطوير التكتيك اكثر من انقاذ الاستراتيجية المتدهورة ، فأعاد تنظيم كل سلاح تنظيما كاملا ثم جعل تكتيك كل الاسلحة يقوم على شكل جماعي اساسه النيران والحركة. وكان اول من انشأ الجيش النظامي مكان الجيوش المرتزقة الاوروبية الاقطاعية ، واخضعه لتدريب منتظم دقيق وطور اسلحة الجيش ، وخاصة ، مدفعية الميدان الخفيفة كما اعاد الاعتبار الى دور المشاة كقوة حاسمة . ثم اخذت باقي جيوش اوروبا تقتفي خطواته .

ادت هذه الاصلاحات في تكوين الجيوش النظامية الى زيادة اهمية المشاة ونسبتها في كامل هيئة الجيش . حقا ان تأثير هذه الاصلاحات تناول مسائل تكتيك الحرب الا ان من الممكن اعتبارها تطويرا للاستراتيجية ايضا من زاوية تنظيم الجيش ككل ، ونظرية تعاون مختلف الاسلحة — النيران والحركة — وهي قضايا من صلب مسائل الاستراتيجية كما سنرى فيما بعد ، هذا فضلا عن انها مهدت لتكوين جيوش غالبيتها من المشاة مما ادى الى الاهتمام بالموقع الطوبغرافي، وضرورة احتلال المواقع الاستراتيجية كشيء حاسم في المعركة ، واصبح هذا جوهر العمليات الاستراتيجية كتحضير للاشتباك وقد بلغت هذه النظرية — توزيع القوات

لتلائم الارض واحتلال المواقع الاستراتيجية — اوجهـا على يد مارلبورو Marlborough (١٦٥٠ — ١٧٢٢) . وهنا يجب ان يضاف الى تطوير مارلبورو تطويرا آخر كان تورين Turenne قد احدثه بالنسبة للحركة التكتيكية قبل الاشتباك فغير نظام الخطوط المتوازية بتشكيلات اقل جمودا، وهذا اتاح له وضع بعض العلامات لفن المناورة اثناء الزحف .

على ان القمة الثالثة بعد مكيافيلي وغوستاف ادولف يقف عليها فريدريك الكبير البروسي (١٧١٢ — ١٧٨٦) الذي نظم مشاة الجيش على ثلاثة خطوط Lines لتتخذ شكل مربع اجوف ⊔ اضلاعه الثلاثة متساوية الطول تقريبا وتتحرك جميعها ككتلة واحدة وفقا لنظام التحرك العسكري في المعركة ، وهذا اتاح عمقا بالنسبة للخطوط المتوازية واتاح للجناحين بعض الحركة سواء بالتقدم الى امام قليلا ، او التراجع الى الوراء قليلا . ولكن هذا التشكيل ظل ثقيل الحركة ، وليس له من قيمة الا على الارض المنبسطة .

نلحظ مما تقدم ان الفكر الاستراتيجي الذي بدا مكيافيلي في طرحه لم يصب تقدما خلال المائتي سنة التالية الا في مجال تنظيم الجيش وتكوين نظريات تكتيكية جديدة على يد كل من غوستاف ادولف ومارلبورو وتورين وفريدريك الكبير . ولكن هذه الخطوات كانت الجنين للقفزة الكبرى التي سيحدثها نابليون في مجالي الاستراتيجية والتكتيك ، جنبا الى جنب مع تطور قوى الانتاج واندلاع الثورة الفرنسية وسقوط الاقطاع في فرنسا .

لعل مارشال دي ساكس Marshal de Saxe (١٦٩٦ — ١٧٥٠) خير من عبر عن استراتيجية العمليات في هذه المرحلة : « انا لست من انصار المعركة ، وانا مقتنع ان الجنرال القدير يستطيع ان يشن حربا لمدى الحياة ، دون ان يجبر على القتال . ولكن يجب ان يكون هنالك عدد من الاشتباكات المحلية لانهاك العدو تدريجا ، واخذه قطعة قطعة . ان هذا هو الاسلوب الامثل لتركيع العدو وتحقيق هدفنا . لا اريد القول ان المرء يجب الا يهاجم اذا سنحت فرصة لسحق العدو ، ولكنني اريد القول ان من الممكن شن حرب دون اتخاذ المخاطرة التي تتضمنها المعركة . واذا ما استطاع الجنرال ان يفعل ذلك وصل قمة الكمال والقدرة » .

كانت مسألة تجنب المعارك الفاصلة احدى سمات الاستراتيجية في

هذه المرحلة، وذلك بسبب عظم التكاليف التي يقتضيها تكوين الجيش في ظل عصر الملوك الذي ما زال في براثن العلاقات الاقطاعية ، ولكن ضمن تطور صناعي تقوده البرجوازية الناشئة . وبكلمة، كانت استراتيجية حرب مواقع وتحصينات ودفاع بينما كانت الاوضاع تتمخض عن ولادة استراتيجية جديدة عبر عنها نابليون حيث اصبحت الحرب على يده حرب حركة ومناورات استراتيجية. وحل مفهوم فرض قرار استراتيجي – نصر في معركة فاصلة – مكان مفهوم كسب الارض .

الاستراتيجية في عصر نابليون

اذا كانت استراتيجية العصر السابق ، رغم التقدم التكنيكي والتكتيكي. ورغم المفاهيم الاستراتيجية الجديدة التي طرحها ميكيافيلي ، واصلاحات غوستاف ادولف، والمناورات التكتيكية البارعة لفردريك الكبير، تعمل ضمن حدود دفاعية وجيوش صغيرة نسبيا ، وتجنب المعارك الكبيرة ، وعدم السعي لفرضها ، وذلك بسبب السلطات الرجعية المحافظة التي راحت تئن تحت وطأة المصاريف التي اخذ يتطلبها التطور الجديد ، مما جعلها تفضل التهديد ، والمناورات التكتيكية ، والقتال الدفاعي عموما ، فقد جاءت الثورة الفرنسية الكبرى لتطلق عنان القوى الاجتماعية الجديدة ، وتجعل التطور التكنيكي يعمل باقصى طاقته محطمة معاقل الملكية والاقطاعية .

كانت حرب الاستقلال الامريكية قد افتتحت عهدا جديدا في استراتيجية الحرب وتكتيكها وذلك بالغاء نظام تشكيلة الخطوط Lines ثقيلة الحركة ، فراح الثوار يقاتلون بزمر موزعة وقوات سريعة الحركة من القناصة تحت غطاء الغابات وصخور الجبال ، فلم يتح لتشكيلة الخطوط الانكليزية فرصة ملاقاتهم على ارض منبسطة مكشوفة ، مما جعل تشكيلة الخطوط ملغاة ، تحت مثل هذه الظروف ، ونزلت بها الهزائم . وبهذا أعيد اكتشاف فن المناوشة ، وهو اسلوب جديد في الحرب ، كما يقول فردريك انجلز ، جاء نتيجة لتغير المادة الانسانية في الحرب ، اي استبدال الجنود المرتزقة بالمقاتلين الذين يقاتلون في سبيل مصالحهم .

« اكملت الثورة الفرنسية ، في المجال العسكري ايضا ، ما قد بدأته الثورة الامريكية ، فقد كان عليها مثل الثورة الامريكية ان تواجه جيوشا

مرتزقة حسنة التدريب تابعة للتحالف ، وكان جنود الثورة الفرنسية عبارة عن جماهير عريضة قليلة التدريب تمثل تجنيد امة باسرها . ولكن كان على هذه الجماهير ان تدافع عن باريس ، اي كان عليها ان تحمي منطقة محددة . ولهذا السبب كان تحقيق الانتصار في معركة مكشوفة وعلى نطاق جماهيري ضخم امرا بدهيا . اذ لم يعد اسلوب المناوشات الصرف كافيا ، ولهذا كان لا بد من اكتشاف شكل جديد يستخدم من قبل كتل كبيرة من الجنود ، وقد وجد هذا الشكل التعبير عن نفسه بتشكيلة الرتل column ، مما اتاح لقوات . حتى قليلة التدريب، ان تتحرك بدرجة جيدة من النظام والتحرك بسرعة » ...

واذا اضفنا الى تحليل انجلز اعلاه مسألة زيادة كثافة النيران لوحدة صغيرة وانطلاق القوى الاجتماعية المنتصرة للافادة من التكنيك والتطور مصحوبا بحماسة ثورية عالية ، فضلا عن تراث المرحلة السابقة ، فسوف نجد الارضية التي جعلت بالامكان دخول الاستراتيجية مرحلة جديدة ارقى ، بصورة نوعية ، من اية مرحلة سابقة . وذلك باعطاء الحرب صفة متحركة، وذات مناورات استراتيجية حاسمة، ومتابعة الحرب حتى نهايتها لتحقيق نصر استراتيجي ، كل ذلك ضمن استراتيجية سياسية – عسكرية كلية .

جاء نابليون ضمن هذه الظروف الجديدة ليعبر عسكريا عن كل سمات التطور الجديد :

١ – استراتيجية التجنيد العام وتعبئة الامة كلها للحرب ، وهنا بدأت الاستراتيجية تلعب دورا حاسما قبل الدخول في الحرب .

٢ – زاد تطور الطرق والمواصلات من قوة المناورة الاستراتيجية ، وولد استراتيجية العمليات او التكتيك الكبير ، وولد مفاهيم جديدة مثل « خطوط العمليات » و« الخطوط الداخلية » و«الخطوط الخارجية».

كانت اولى الخطوات التي جسد فيها نابليون ملامح العصر الجديد ، انه قسم جيوشه الضخمة الى فرق شبه مستقلة،تشكيلتها الرتل column وجعل كل فرقة تتألف من مختلف صنوف الاسلحة وتحت قيادة هيئة

اركان مستقلة قادرة على القيام بعمليات مستقلة ودخول معارك لوحدها .
وقد فتحت هذه العملية امكانات استراتيجية وتكتيكية كبيرة .

ان تقسيم الجيش الى فرق بتشكيلات الرتل column اعطى نابليون فرصة للقيام بمناورات استراتيجية مقرونة بالمرونة والسرعة ، بينما بقيت جيوش خصومه تتحرك بنظام الخطوط Lines ككتلة واحدة ، اي كانت تفتقر للسرعة والمرونة وامكانات المناورة الاستراتيجية .

استخدم نابليون في معاركه مرحلتين تبدأ اولاهما بمناورة استراتيجية قبل المعركة او الاشتباك وكان يسميها التكتيك الكبير Grand tactics او « العمليات » بينما تتبعها المرحلة الثانية وهي المعركة نفسها .

كان نابليون في تكتيكه الكبير ـ المناورة الاستراتيجيـــة ـ يحـــرك جيوشه من نقاط مختلفة لتلتقي بعد سلسلة من العمليات في النقطة التي حددها للمعركة الفاصلة . وكانت هذه المناورات تأخذ اما شكل تطويــــق للعدو بالتفاف حول اجنحته ومؤخرته ، بحركة فائقة السرعة ، كما حدث في اولم Ulm . واما قطع خطوط مواصلاته كما حدث في يينا Jena واخيرا عندما يصبح العدو في وضع غير ملائم تماما، تدخل مرحلة التدمير بتشكيلات هجومية . وهنا لا بد من ملاحظة شدة الشبه بين تقسيمـــات نابليون للجيش وعملياته الاستراتيجية وبين تقسيمات العرب المسلمـــين لجيوشهم وعملياتهم الاستراتيجية . ولكن الذي حدث ان تطويرات العرب للفن العسكري ، خاصة من ناحية ، العمليات الاستراتيجية ، لم تتابع في اوروبا . وبقيت شيئا منفصلا لوحده (1) .

---

(1) جاء العرب في عهد الاسلام ليقفزوا بفن الحرب قفزة علت على اية قمة سبقتها ، وبقيت ارقى من اية قمة بعدها حتى جاء نابليون ، ولن يكون من الصعب رؤية شدة الشبه بين فن نابليون العسكري والفن العسكري العربي ـ طبعا فن نابليون في محتوى جديـد وهو وجود الاسلحة النارية .

قسم العرب المسلمون جيوشهم الى فرق، وكل فرقة مؤلفة من مختلف الاسلحة، وذات اكتفاء ذاتي . وتقوم بخط عمليات استراتيجية تحت قيادة مستقلة ، وبين مختلف الفرق اتصال دائم بحيث تضم لبعضها البعض عند النقاط الحاسمة. وتصبح كلها تحت قيادة =

جاءت استراتيجية العمليات هذه فراقا مع استراتيجية العمليات في المرحلة السابقة . اذ كانت العمليات والمعركة شيئين مختلفين . وذلك لان المعدات العسكرية والاسلحة كانت لا تسمح لوحدات صغيرة ان تقاوم امدا طويلا ، اي اذا كان عليك التحرك فيجب ان يكون جيشك كتلة واحـــدة متراصة . ولما كان الجيش المقاتل ، في الماضي ، صغيرا نسبيا فحركته كانت عبارة عن انتقال من نقطة في المكان الى نقطة المعركة لمواجهة العدو ، ولم يكن من الممكن استخدام الجيش الا بعد ان يأخذ تشكيلة القتال ، لذلك كان من الممكن لاحد الطرفين المتحاربين ، او كلاهما ، ان يرفض القتال عن طريق الانسحاب من نقطة التماس مع العدو . ولهذا كانت الوسيلة الوحيدة لاجبار العدو على دخول المعركة في ظروف غير مؤاتية هي غزو بـــلاده .

= موحدة . كما حدث مثلا في معركتي اليرموك واجنادين .

لقد طبق العرب المسلمون استراتيجية الحرب المتحركة مستخدمين الصحراء كقاعدة آمنة ، في بادىء الامر ، ومن اطرافها راحوا يشنون عمليات مناوشة . ثم انتقلوا الى الحرب المتحركة ، بكل ما تحمل الكلمة من معنى عندما دخلوا بر الشام ، وهي حرب اعتمدت على سرعة الحركة والمناورة الاستراتيجية وعلى تكتيك المناوشات والحركة التكتيكية ذات الزخم في الهجوم والدفاع ـ الكر والفر على مستوى جيوش ـ كما استخدموا طوبغرافية الارض جيدا ، وقد جمعوا بين توزيع الفرق للعمليات الاستراتيجية ـ خاصة الالتفاف علـــى الاجنحة ومحاصرة العدو وقطع طرق مواصلاته ـ وبين التركيز اللازم للمعارك الحاسمة .

في الواقع ان هذا الشكل من العمليات الاستراتيجية والحركة التكتيكية في المعركة لم يعرف ، على هذا الشكل والمستوى ، من قبلهم او من بعدهم حتى نابليون الذي لـــم تختلف عملياته ومناوشاته في المعركة ، في جوهرها ، عما طبقه العرب ، خاصة ، تحت قيادة خالد بن الوليد . وكان هذا التطوير احد العوامل الحاسمة التي جعلت العـــرب المسلمين يحطمون الجيوش البيزنطية والفارسية التي كانت ارقى سلاحا، ومتفوقة في مجال التنظيم والادارة واللوجستيكا ، وقد عوض العرب عن كل ذلك باستراتيجية وتكتيك الحرب المتحركة من ناحية وبالتقشف ومستوى الشجاعة لدى المقاتل الى جانب المستوى المرتفع جدا للمراتب القيادية الصغيرة والمتوسطة وارتفاع مستوى المبادرة على النطاقين الجماعي والفردي من ناحية ثانية. (راجع الدراسة المرفقة حول الموضوع في اخر الكتاب) .

وهنا اخذ الدفاع شكل نقاط قوية على الطرق التي يمكن ان يمر بها الجيش . وهذا اضطر المهاجم ان يلجأ الى حصار المدن الهامة والتهديد باحتلالها من اجل اجبار العدو المدافع على دخول المعركة . وكانت النتيجة، خاصة في القرن السابع عشر ، حملات طويلة غير حاسمة ومحددة بالحصار .

ان تطور البندقية ، ومدفع الميدان ، الى جانب التجنيد العام الذي اتاح خلق قوات كثيفة ، جعل من الممكن لنابليون تقسيم الجيش الى فرق لتسهيل حركته ومناورته ، والجمع بين نظام التشكيلات الموزعة للعمليات الاستراتيجية وبين التركيز المطلوب للمعركة . وادى توزيع نابليون لقواته وتوسيع الفرق الاستراتيجية الى جعل اعدائه في حيرة من امرهم غير قادرين على تحديد اين سيكون تركيز نابليون ، وهذا اعماهم وشلهم . وبهذا اصبح بمقدور نابليون ان يكسب حرية الحركة والمفاجأة والمبادرة بحيث يقرر نقطة المعركة كما يريد، ويضع عدوه في ظرف غير مؤات ، دون ان يترك له حرية الخيار في قبول المعركة ، او عدم قبولها ، ولقد اصبح يفرض عليه معركة فاصلة . وهنا كانت العمليات ـ الحركة الاستراتيجية ـ هي العامل الحاسم في تقرير مصير المعركة بينما كان تحقيق نصر استراتيجي في المعركة يمضي الى نهايته القصوى بحيث اصبح الهدف من المعركة ليس هزيمة العدو فحسب وانما احراز نصر استراتيجي ينهي امره دون ان يتيح له فرصة اعادة تجميع قواه والقتال من جديد .

قام جوهر العمليات الاستراتيجية لدى نابليون على سلسلة من الحركات المحسوبة :

١ ـ التوزيع المركز نسبيا ، والتحرك من عدة خطوط باتجاه نقطة المعركة الحاسمة .

٢ ـ جعل اللوجستيكا محسوبة سلفا مما ادى الى امكانية القيام بتلك المناورات الاستراتيجية .

٣ ـ التركيز الشديد في المعركة الفاصلة .

٤ ـ محاصرة العدو ، او الالتفاف حوله ، او قطع خطوط مواصلاته .

٥ ـ ضبط مختلف الحركات الاستراتيجية ضمن خطة متماسكة متناغمة .

لقد اتاح هذا كله لنابليون ان يجعل قواته سريعة مرنة . تستطيع فرض المعركة على العدو حسب اختيارها ، او الانسحاب بسرعة . وبهذا اصبحت استراتيجية العمليات تشمل ساحة حرب واسعة ، وذات طبيعة متحركة لم يسبق لها مثيل الا في حروب الفتوحات الاسلامية .

انكب اثنان من كبار المنظرين العسكريين وهما كلاوسيفتز وجوميني. على دراسة حروب نابليون ، واستخلصا من استراتيجيته . واستراتيجية عملياته ، ومن تكتيكه ، اعم القواعد الاساسيه لعلم الحرب . وقد اصبحت تحليلاتهما ونظرياتهما الاساس الذي قام عليه علم الحرب الحديث طوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، بل ان كثيرا من نظرياتهما ما زالت تحمل قيمة معاصره حتى في ظروف العصر النووي والصواريخ عابرة القارات .

انصب اهتمام جوميني (١٧٧٩ ـ ١٨٦٩) ، اساسا . على النواحي الفنية الصرف في دراسته لاستراتيجية نابليون ، والقضايا العملية في الحرب ، وعلى التحديد ، في مجال المناورة الاستراتيجية . لذلك فقد اهتم العسكريون في القرن التاسع عشر بدراساته اهتماما بالغا . اما كلاوسيفتز (١٧٨٠ ـ ١٨٣١) فقد تناول موضوع الاستراتيجية الكلية ومسائل الحرب بروح فلسفية عميقة متأثرا بفلسفة كانط وديالكتيك هيجل. وقد ركز ، بصورة خاصة ، على التأثير السياسي الضخم على الاستراتيجية العسكرية ، وعرف الاستراتيجية العسكرية بانها نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف السياسي . ومن هنا اعتبر الحرب استمرارا للسياسة بوسائل عنيفة . ولكن الاهم من ذلك رؤيته للعلاقة بين الحرب وبين الاقتصاد والوضع المدني في الامة ، وتناول موضوعات مثل «طبيعة الحرب» و«الاستراتيجية والتكتيك» ، والهجوم والدفاع وتنظيم القوات وخطة الحرب ، وركز على اهمية العامل المعنوي .

على الرغم من ان كلاوسيفتز تناول الموضوع تناولا اشد عمقا من جوميني الا ان جوهر نظرياته ظل بعيدا عن فهم العسكريين الذين اخذوا منه المسائل المتعلقة بالحرب مباشرة مثل التجنيد العام وتحويل الوضع المدني الى عسكري، ولكن دون ان يروا العلاقة الديالكتيكية التي اقامها بين الوضع المدني والاقتصاد والسياسه في الامة من جهة وبين الحرب من جهة اخرى . فمثلا اعتمد العسكريون الالمان على نظريات كلاوسيفتز ، ابتداء من مولتكي (١٨٠٠ ـ ١٨٩١) ومرورا بقاده الحرب العالمية الاولى وانتهاء بهتلر وهينة اركانه . الا انهم تكشفوا عن جهل لجوهر نظرياته فيما يتعلق باهمية ودور الوضع الاقتصادي والمدني للامة، التي تخوض الحرب، على الحرب نفسها ، فقد اخذوا منه مسألة الاستراتيجية الكلية وبناء آلة حرب شاملة ، وعسكرة البلاد ، والاقتصاد ، والتجنيد العام ، والعمل على اساس اخذ قرار حاسم في المعركة عن طريق انزال الهزيمة بالقوات الرئيسية للعدو . ولهذا خاضوا عدة حروب على اساس تقديرات عسكرية صرف ، واستراتيجية عسكرية صرف ، دون ان يروا الامكانات الاقتصادية للتطور التقني واهمية الوضع المدني والسياسي والتحالفات السياسية لدى خصومهم . اما ما هو اغرب من ذلك فتقييم فردريك انجلز لكل من جوميني وكلاوسيفتز ، في رسالته لويدماير Weydemeyer في نيسان (ابريل) ١٨٥٣ حيث يقول : «ان حملات نابليون بسيطة الى حد يصعب معه ان يضل المرء في فهمها . في الواقع ان كل ما ذكر حولها يجعل جوميني افضل مؤرخ حقا لتلك الحملات ، بينما كلاوسيفتز هذا العبقري الفطري لا يروق لي تماما رغم العديد من المقطوعات الرائعة التي كتبها» . وقد نتج عن اهتمام انجلز بجوميني اكثر من اهتمامه بكلاوسيفتز ان اخطأ في تقييم الحرب الاهلية الامريكية حيث لم ير امكانات الشمال الاقتصادية الى جانب وضعها المدني، وحصر تقييمه بالجوانب العسكرية الصرف ، في حين فعل ماركس العكس وجاء تقديره أصح فيما يتعلق بنتائج تلك الحرب .

لم يقصر كلاوسيفتز تقييمه للحرب على القوات العسكرية المتوفرة فحسب ، وانما ايضا اهتم برؤية امكانات كل دولة على التعبئة والتنظيم والانتاج وتموين الحرب الخ . ولهذا كان يصعب على العسكريين الذين يرون الحرب من جوانبها العسكرية الصرف ان يدركوا جوهر نظريات كلاوسيفتز ، وبالتالي يميلون اكثر الى جوميني .

انشغل جوميني في تنظيم المبادىء الاساسية لاستراتيجية العمليات :

١ ـ «جلب غالبية الجيش ، باجراءات استراتيجية تباعا ، لاخذ ادوارها في المناطق الحاسمة في مسرح الحرب ، وبقدر الامكان على طرق مواصلات العدو ، ولكن دون تعريض طرق مواصلاتك للخطر» .

٢ ـ («التفوق في المعركة» عن طريق مناورات تكتيكية ، اي وضع قواتك الرئيسية في المنطقة الحاسمة من ارض المعركة ، او ضد ذلك الجزء من قوات العدو الذي يؤدي التغلب عليه الى تغيير توازن القوى لمصلحتك) .

٣ ـ «بالاضافة الى جلب هذه الكتل لتأخذ المواقع الحاسمة في المعركة ، يجب تنظيم سير الامور بشكل يجعل هذه الكتل من الرجال تعمل ، بسرعة ، وجماعيا ، بشكل يجعل الكل عبارة عن جهد موحد في وقت واحد » .

اعطى جوميني هذه المبادىء العامة اسماء : «خط العمليات» ، «الخطوط الداخلية» ، «المبادرة الاستراتيجية» . وعرف خط العمليات بانه ذلك الجزء من منطقة الحملة التي يختارها الجنرال لمناورته ، سواء كانت طريقا واحدا ، او عدة طرق من طرق المواصلات . ويضرب مثالا على اخذ خطين مزدوجين للعمليات حيث يمكن للجيش تجنب الخطر الكامن في فصله الى جيشين عن طريق أيجاد قيادة موحدة للخطين وجمعهما بسرعة قبل الدخول في اية معركة حاسمة . وقد حبذ اتباع الخطين في المناورة الاستراتيجية شريطة ان تؤمن «الخطوط الداخلية» ، او عندما يتوفر تفوق عددي كبير على قوات العدو . ولهذا يشدد جوميني على اهمية «الخطوط الداخلية» . ولكن هذه المناورة تغدو عديمة الجدوى اذا استطاع العدو ان يقدر نقطة الضرب . لذلك فهو يضع الاهمية الكبرى على مسألة كسب المبادرة الاستراتيجية التي يعرّفها بانها جمع بين المعلومات (معرفة نقاط ضعف العدو ، بينما تخفي نقاط ضعفك) وبين التركيز (من خلال الاستخدام الصحيح لخطوط العمليات) وبين الملاحقة حتى النهاية بعد معركة ظافرة .

الاستراتيجية في القرن التاسع عشر

كان القرن التاسع عشر عصر الدول القومية في اوروبا مصحوبا بنهوض صناعي وتكنيكي وعلمي شمل كل المجالات . فقد ترسخت سلطة البرجوازية وتطورت صناعة الاسلحة كما تطورت الاسلحة نفسها خاصة المدافع – مدافع الميدان – والبندقية السريعة التي تعبأ من المخزن . الى جانب تطور الطرقات ووسائط النقل ، خاصة ، القطارات .

واذا ترجمنا هذا الى اللغة العسكرية فسيتحول الى تجنيد عام في كل الدول الكبيرة مع زيادة كثافة النيران وتطور الحركة وتضخم حجم القوات . وهذا بدوره حوّل تشكيلات المناورة النابليونية – شبكة واسعة من الارتال – الى جبهة متماسكة سواء وزعت للحركة الاستراتيجية او للمعركة ، اذ اصبح الرجال مكثفين لتشكيل كتلة قتالية متأهبة دائما ، وهذا بدوره زاد امكانات الدفاع لجبهة واسعة مستمرة ، ولم تعد عملية الاختراق اسرع من عملية جلب الاحتياط الدفاعي ، مما ادى الى جعل استراتيجية نابليون بالية رغم ان الجنرالات ظلوا اسرى استراتيجية العمليات النابليونية ، ولم يستطيعوا ان يروا مغزى التطورات الجديدة والتكافؤ النسبي بين مختلف الدول الكبرى الاوروبية . وبالتالي لم يستطيعوا ان يجددوا بما يتفق والوضع الجديد .

ان التطور الاستراتيجي الذي حدث في هذا القرن يتركز في مسألة التجنيد العام مصحوبا بانتاج ضخم للاسلحة ضمن مخطط لعسكرة البلاد . اما العمليات الاستراتيجية فقد ظلت ضمن النابليونية وقد ادت الى نجاحات في حالات محددة مثل حرب سكليزويغ–هولشتاين ١٨٦٤ ، والحرب البروسية النمساوية ١٨٦٦ .

اما الحروب التي تمثل المرحلة التي تلت العصر النابليوني فهي الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ – ١٨٧١) ، والحرب الاهلية الامريكية ، والحرب الروسية – اليابانية ١٩٠٤–١٩٠٥ حيث حدث توازن بين الحركة وحجم القوات وكثافة النيران ، وبالتالي ركود الجبهة امام الخنادق والتحصينات وتفوق الدفاع وسرعة انتقال الاحتياط ، بما يوازي سرعة المهاجمين . وهنا لم تعد العمليات الاستراتيجية تلعب الدور الذي كانت تلعبه في العهد النابليوني . وقد تخلت عن الضربة المركزة على احدى نقاط

جبهة العدو ، واصبح التركيز على عمليات الالتفاف والهجوم على عدة اتجاهات الى حد سميت معه باستراتيجية الخطوط الخارجية التي تستهدف ضرب طوق على العدو .

سنترك الان متابعة التطورات التي حدثت مع الحرب العالمية الاولى ثم الحرب العالمية الثانية لنناقشها جنبا الى جنب مع تطور التكتيك اما استراتيجية العصر النووي فسنبحثها تحت فصل خاص بها .

الان ، فلنلاحظ ما يلي :

اولا : ان اللمحة التاريخية اعلاه تعطي صورة للاسباب التي جعلت كلمة الاستراتيجية تأخذ محتويات مختلفة من مرحلة تاريخية لاخرى ، بل في قلب المرحلة التاريخية الواحدة .

ثانيا : ان الحرب المطلقة ، او الحرب الكلية ، جاءت نتاج تطور القوى الانتاجية ، وبهذا نقل مركز الثقل في الاستراتيجية الى الجبهة المدنية ، لتحقيق التعبئة الكاملة ، لكل المصادر المادية ، والبشرية ، والروحية للبلاد .

ثالثا : ارتبطت استراتيجية العمليات بمسألة حجم القوات والحركة وكثافة النيران وساحة الحرب وكان مركز الثقل يتنقل من الواحدة للاخرى ، واحيانا وجود نوع من التوازن المتغير، ولكن كان لكل منها دوره بدرجات متفاوتة من حيث الاهمية حسب مرحلة التطور التكنيكي والمكان والوضع المدني .

ما هي الاستراتيجية ؟

ثمة تعريفات عديدة للاستراتيجية لا بد من استعراض اغلبها وتحليلها من اجل الخروج بالجواب عن السؤال ما هي الاستراتيجية . ولنبدأ بالاستراتيجية العسكرية .

تعريف كلاوسيفتز : «التكتيك هو استخدام القوات العسكرية في المعركة.

الاستراتيجية هي نظرية استخدام هذه المعارك لتحقيق هدف الحرب» .

يحصر كلاوسيفتز التكتيك بمسألة استخدام القوات العسكرية في **المعركة** . بينما يضع مهمة الاستراتيجية تحقيق الهدف السياسي للحرب من خلال استخدام المعارك . ومن هنا نخرج بالنقطة الرئيسية وهي التفريق بين الهدف السياسي وبين الاستراتيجية حيث يقف الهدف السياسي في المقدمة ، وتأتي الاستراتيجية لتقوم بمهمة تحقيقه . فالاستراتيجية ليست الهدف السياسي ، وانما هي نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف السياسي ، فعلاقتها بالهدف هي علاقة الوسيلة بالغاية . ولكن سنرى فيما بعد ان الاستراتيجية ليست نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف فحسب ، وانما ايضا ، تشمل مجالات اخرى . كما ان مفهوم كلاوسيفتز للاستراتيجية محصور باستراتيجية القرار الحاسم او «الدفع حتى الحد الاقصى» ، فالحرب «عمل عنيف صعّد حتى الحد الاقصى» ويجب ان ينتهي دائما بسحق العدو ، والاطاحة به ، اي «الحرب المطلقة» . ومن هنا حصر الاستراتيجية بمفهوم تحقيق الهدف النهائي للحرب – سحق العدو فيزيقيا او تجريده من السلاح – ولكن هذا الشكل من الاستراتيجية لا يغطي كل الحالات ، فمثلا استراتيجية بعض حروب التحرير لا تستهدف سحق القوات الرئيسية للعدو في المعركة وتجريده من السلاح ، وانما استخدام المعارك والنضال السياسي والراي العام العالمي والازمة الداخلية للعدو .

تعريف جوميني : لم يخرج تعريف جوميني عن تعريف كلاوسيفتز عموما ، ولكنه ركز على الاستراتيجية في المجال العسكري – استراتيجية العمليات والمناورة الاستراتيجية . وهذه لم تعد كما حددها فمثلا اصبح الاشتباك في الحرب العالمية الثانية مقدمة للعمليات الاستراتيجية ، كما سنرى فيما بعد .

تعريف كراسة التدريب المشترك Combined Training البريطاني ١٩٠٢ :

«التكتيك هو فن قيادة القوات في المعركة . اما الاستراتيجية فهي فن التخطيط والاشراف على الحملة . فالاستراتيجية هي الاسلوب الذي يحاول القائد عن طريقه جلب عدوه الى المعركة، بينما التكتيك هو الوسائل

التي بوساطتها يسعى لانزال الهزيمة بالعدو في المعركة» .

يتفق هذا التعريف مع تعريف كلاوسيفتز حول التكتيك ، اما بالنسبة للاستراتيجية فهو يسقط الهدف – وهذا نقص اساسي – ولكنه يوسع مفهوم الاستراتيجية الى **«فن التخطيط والاشراف على الحملة»** . فهي لا تقتصر على نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف وانما تتناول مسائل التخطيط للحملة والاشراف عليها .

تعريف هاملي Hamley : «ان مسرح الحرب هو مجال الاستراتيجية، اما ساحة المعركة فمجال التكتيك» .

يقوم هذا التعريف على تحديد نطاق عمل الاستراتيجية ونطاق عمل التكتيك ولكنه لا يحدد ما هي الاستراتيجية وما هو عملها .

فوندرغولتز Vonder Goltz : «تشغل الاستراتيجية نفسها، عموما، بالاجراءات ذات النطاق العام التي تخدم دفع القوات الى العمل في الجبهة الحاسمة تحت افضل الظروف الملائمة الممكنة ، بينما يتناول التكتيك ما يجري في الاشتباك بالذات ، يمكن ان تسمى الاستراتيجية علم الجنرالية بينما يمكن ان يسمى التكتيك علم قيادة القوات» .

يتناول هذا التعريف الاستراتيجية من شقين :

١ – الاستراتيجية تعني باتخاذ الاجراءات ذات الطبيعة العامة بالنسبة لمسرح الحرب ككل .

٢ – واجب الاجراءات الاستراتيجية وضع القوات في الجبهة الحاسمة في افضل الظروف الملائمة الممكنة (جزء من تعريف جوميني) .

ولكن يظل هذا التعريف محصورا في مرحلة ما قبل المعركة بينما يشدد كلاوسيفتز على دور الاستراتيجية بعد المعركة – نظرية استخدام المعارك .

تعريف ليدل هارت : «الاستراتيجية فن استخدام القوات العسكرية

لتحقيق الغايات التي وضعتها القيادة السياسية» .

يرتكز هذا التعريف في جوهره على تعريف كلاوسيفتز ، بجعل الاستراتيجية قائمة على اساس تحقيق الهدف السياسي ، ولكن الفرق هنا ان ليدل هارت وسّع مفهوم كلاوسيفتز لهدف الحرب بحيث جعل الهدف مرنا غير محصور بمفهوم «الحرب المطلقة» ، وربط الاستراتيجية بتحقيق مختلف الغايات التي تضعها القيادة السياسية بما في ذلك تلك التي ذات الطابع المحدود. ولكنه حصرها بفن استخدام القوات العسكرية، وبهذا اسقط عملية دورها في التحضير ، او على الاصح حصرها في مرحلة استخدام القوات العسكرية .

تعريف فيرديناند فوش F. Foch : «الاستراتيجية عملية تنبع من اشتباك بين ارادتين متنازعتين» .

يحاول هذا التعريف التشديد على الجانب السيكولوجي في الحرب ودور الاستراتيجية في هذا المجال .

تعريف اندريه بوفر A. Beaufre : «الاستراتيجية هي فن استخدام القوة لتقوم باكبر اسهام في اتجاه تحقيق الغايات التي وضعتها السياسة»، اما التكتيك فهو «فن استخدام السلاح في المعركة بطريقة تجعله يمارس اكبر تأثير » .

يعتمد هذا التعريف على الجمع بين تعريف ليدل هارت وتعريف فوش وذلك باسقاطه كلمة عسكرية من تعريف ليدل هارت واستبدلها بمفهوم كلمة قوة في تعريف فوش لجعل الاستراتيجية تشمل الجانب العسكري والسيكولوجي ، مضافا ضرورة استخدام تلك القوة بصورة تجعلها تمارس اكبر تأثير لتحقيق الغايات التي وضعتها السياسة .

تعريف مولتكي Von Moltke : ان الاستراتيجية تقوم من خلال قيادتها للجيوش وتركيز القوات في ميدان المعركة بتأمين فرصة الضرب للتكتيك، والضرب بنجاح . ولكن الاستراتيجية ، في المقابل ، تتقبل ايضا نتائج كل اشتباك (تكتيك) » .

الشيء الجديد في هذا التعريف هو اقامته للعلاقة الراجعة لنتائج التكتيك على الاستراتيجية .

تعريف كنت روبرتس غرينفيلد K. R. Greenfield: «تتضمن الاستراتيجية مفاهيم ــ مفاهيم استراتيجية ــ وخطط القوى او التحالف لفرض ارادتك على العدو ، وتتضمن استخدام الاساليب التي ثبتت صحتها وتجنب تلك التي ثبت عدم صحتها ، من اجل تحقيق هذا الفرض» .

تشمل هذه التعاريف للاستراتيجية : (١) مفاهيم استراتيجية (٢) خطط استراتيجية (٣) اجراءات استراتيجية بقصد فرض ارادة احدى القوتين المتحاربتين على الاخرى .

تعريف تروتسكي : «الاستراتيجية والتكتيك غير مشتقين من مفهوم للبروليتارية حول العالم ، وانما من شروط التكنولوجيا العسكرية المحددة ومن وسائل التزويد والتموين والمواصلات والوضع الجغرافي» .

ينزع تروتسكي هنا من الاستراتيجية والتكتيك عنصر المفاهيم ويربطهما كليا بالجانب المادي واللوجستيكا والوضع الجغرافي ، وهذه محاولة لرؤية الاستراتيجية بصورة احادية الجانب فقط .

تعريف الجنرال ستروكوف (جنرال سوفياتي معاصر) : تهتم الاستراتيجية العسكرية بدراسة «اساليب واشكال خوض الصراع المسلح، واعداد القوات المسلحة واستخدامها في الحرب ، وهي تهتم بخوض الحرب بالكامل وبالحملات العسكرية» . وان اهم واجبات الاستراتيجية هي : «تحديد القوى والوسائط الضرورية لخوض الحرب بنجاح، وكذلك القوى والوسائط والاساليب المعادية ، وانتقاء اتجاه الضربة الرئيسية ، واعداد القوات المسلحة ، ومسارح العمليات للحرب ، واختيار اساليب واشكال الصراع المسلح ثم استخدامها وربطها بشكل حاذق» . ويدخل في مهام الاستراتيجية العسكرية : «وضع خطة الحرب ، تحديد دور بعض انواع القوات المسلحة والصنوف المختلفة ثم تنظيم التعاون فيما بينها خلال الحرب ، توضع القوات المسلحة ، تخصيص الاحتياطات ، واستخدامها بشكل صحيح ، تنسيق اعمال القوات المسلحة في بعض مسارح العمليات

مع الاعمال الحربية للقوات المسلحة للدول الحليفة ، التأمين المادي والفني للقوات المسلحة وغير ذلك من المسائل المرتبطة باعداد وخوض الحملات العسكرية والحرب بالكامل» . وتستند الاستراتيجية العسكرية «على الاستخدام الصحيح للعوامل الاقتصادية والسياسية والمعنوية التي تقرر مصير الحرب المعاصرة» . وهي ترتبط مع السياسة وتوجد في تبعية مباشرة لها .

يتناول تعريف الجنرال ستروكوف الاستراتيجية العسكرية من حيث مهامها وواجباتها ونطاق عملها كما يؤكد على خضوعها للاستراتيجية السياسية وتبعيتها لها .

تعريف لينين : يقول في احدى تعليقاته على كلاوسيفتز : « ان اصح استراتيجية في الحرب هي التي تؤجل العمليات حتى يصل الانحلال المعنوي لدى العدو الى حد يجعل الضربة القاضية ممكنة وسهلة» .

ان هذا التعريف لا يعطي صورة كاملة لكل ابعاد مفهوم لينين حول الاستراتيجية ، ولكن يلقي ضوءاً على ضرورة عدم حصر **الاستراتيجية العسكرية** بفن استخدام القوات المسلحة ، ويركز على اهمية اختيار اللحظة الحاسمة لانزال الضربة القاضية بالعدو ، بصورة سهلة وشبه مضمونة ، او بكلمات اخرى يركز على اهمية العمل السياسي التحضيري قبل المعركة الفاصلة . وعندما تحدث عن الاستراتيجية السوفياتية قال : يجب ان تكون مشبعة باكبر قدر من الحسم وينبغي لها ان تسحق العدو سحقا كاملا «لا يكفي ضرب العدو ، بل يجب سحقه عن بكرة ابيه» .

تعريف ستالين : «الاستراتيجية تستهدف كسب الحرب ككل» .

يقتصر هذا التعريف على تحديد مهمة الاستراتيجية .

تعريف ماوتسي تونغ : «قوانين الحرب محكومة بالزمان والمكان وطبيعة كل حرب» ، و«محكومة بالتطورات التكتيكية والاستراتيجية في جانب جبهة العدو وفي جانبنا ، اذ ان الظروف تختلف من مرحلة الى اخرى حتى ضمن الحرب الواحدة» . لذا :

فان «الاستراتيجية هي دراسة قوانين الحرب ككل» .

«ان مهمة الاستراتيجية هي دراسة تلك القوانين التي تحكم الحرب في وضع حرب ككل . ان مهمة علم العمليات وعلم التكتيك هي دراسة القوانين الخاصة بقيادة الحرب في وضع جزئي » .

نظرة سريعة الى كل هذه التعريفات تجعلنا نلاحظ ما يلي :

اولا : بعد تحديد الهدف السياسي تأتي الاستراتيجية لتعالج المسائل المختلفة التي تؤدي الى تحقيق الهدف السياسي . اي هي الجسر الذي يمتد من الهدف الى تحقيقه، مرورا بالتطبيق، تاركة للتكتيك معالجة مسائل الجزئيات . ومن هنا فان مجال الاستراتيجية هو الحرب ككل .

ثانيا : تتضمن المسائل المختلفة التي تؤدي الى تحقيق الهدف ومن بينها تحديد جملة من القضايا التي تعالجها الاستراتيجية نذكر منها دون حصرها كلها :

١ ـ نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف .

٢ ـ نظرية العمليات والتكتيك .

٣ ـ نظرية بناء القوات المسلحة وتنظيمها وتسليحها وتدريبها وتركيزها وتوزيعها .

٤ ـ التخطيط والاشراف على الحملة .

٥ ـ الاجراءات العسكرية والمعنوية والاعداد السياسي التي تضع القوات ككل في افضل الظروف الملائمة والممكنة .

٦ ـ قيادة القوات المسلحة بالصورة التي تجعلها تمارس اكبر تأثير على العدو (فن استخدام القوات العسكرية) .

٧ ـ اختيار الاهداف الحاسمة ، او الهدف الحاسم ، واختيار اللحظة

الحاسمة لانزال الضربة القاضية .

٨ – اتخاذ الاجراءات المضادة لاستراتيجية العدو واحباطها والمساهمة في اضعاف جبهة العدو ماديا ومعنويا .

٩ – مسائل اللوجستيكا ودور المؤخرة .

١٠ – التركيز على ما يمس الحرب ككل والاهتمام بالعلاقة بين مختلف العمليات ، وبالعلاقة بين مختلف مراحل العمليات ، وبالعلاقة بين نشاط جبهتها ككل ، ونشاط جبهة العدو ككل .

وهنا نأتي الى تعريف ماوتسي تونغ الذي يحدد الاساس الذي تقوم عليه الاستراتيجية لكي تستطيع ان تحل كل تلك المسائل حلا صحيحا في كل حالة معطاة ، اي انه يدلنا على كيفية وضع نظرية استخدام المعارك لتحقيق هدف الحرب ، وكيف توضع نظرية العمليات والتكتيك ، ونظرية بناء القوات المسلحة وقيادتها الخ . اذ ما دامت قوانين الحرب محكومة بالزمان والمكان وطبيعة الحرب ومحكومة بالتطورات التكتيكية والتكنيكية والاستراتيجية في كل جانب من الجانبين المتحاربين ، وما دامت الظروف في داخل الحرب الواحدة تختلف من مرحلة لاخرى ، فان الاستراتيجية بالتالي ، تصاغ من خلال دراسة قوانين الحرب المعطاة ككل . ان اكتشاف هذه القوانين هو المفتاح لحل مسائل الاستراتيجية في كل حرب وفي كل مرحلة وفي كل حالة .

ثالثا : لا توجد هنالك استراتيجية جاهزة تصلح لكل زمان ومكـان وحرب . لان الاستراتيجية تتأثر بطبيعة الحرب التي تخوضها وتعمل ضمن الامكانات المادية والتكنيكية والبشرية والسياسية المتوفرة او التي يمكن توفيرها مستقبلا كما تتأثر بالمكان والزمان ومستوى استراتيجية وتكتيك العـدو .

رابعا: مهمة الاستراتيجية تحقيق الهدف السياسي،بغض النظر عن الامكانات المتوفرة ، والشروط المستكملة ، اذ عليها ، خاصة ، عند مواجهة عـدو متفوق ببعض المجالات الهامة ، ان تعمد الى توفير الامكانات ، وتعمل على

استكمال الشروط ، واختيار العمليات الانسب ، والتكتيك الانسب ، من اجل التعويض عن تفوق العدو ، وبالتالي تأمين اسباب تحقيق النصر عليه. ولكن هذه العملية لا تتقرر تجريديا وانما وفقا للوضع الملموس .

خامسا : يلاحظ من جميع النقاط اعلاه انها تعتمد على اجهاد التفكير لان اغلب المسائل الهامة التي تواجهها الاستراتيجية ، مثلا تقييم الوضع ككل وتحديد انسب طرق العمل ضمنه الخ . قضايا لا ترى بالعين وانما تفهم بالتفكير المنهجي العلمي العميق بعد جمع المعلومات والتفكير بهـا وتنسيقها واستبعاد غير المهم وابقاء المهم كما يقول ماوتسي تونغ ، ثم يؤخذ الوضع من كل جوانبه ، وتأثير كل جانب على الاخر ، وبهذا يحكم على الوضع وترسم الاستراتيجية وتعمل الخطة او الخطط الاستراتيجية.

على اننا عند هذا الحد نكون قد حصرنا ، قدر الامكان ، الاستراتيجية العسكرية . ولكن ثمة الاستراتيجية الكلية ويعرفها باليت (جنرال بريطاني معاصر) بانها «فن تعبئة وتوجيه مصادر الامة أو مجموعة الامم ، بما في ذلك القوات المسلحة ، من اجل تحقيق الهدف السياسي» ، ويقول ان للاستراتيجية مستويات مختلفة : الاستراتيجية السياسية، والاستراتيجية العسكرية ، واستراتيجية العمليات ، ولكنها كلها تتناول مختلف المستويات للاستراتيجية ضمن وحدة مفهوم عام . اما بوفير (جنرال فرنسي معاصر) فيقسم الاستراتيجية ايضا الى مستويات ويعرف الاستراتيجية الكليـة «هي التي تقود الصراع سواء كان عنيفا مباشرا ، او غير عنيف ، او غير مباشر ، سواء دار في الميادين السياسية، او الاقتصادية ، او الدبلوماسية، او العسكرية ، أو فيها كلها في وقت واحد لان المسألة في الواقع كلية لا يمكن رؤية الاستراتيجية من وجهة نظر عسكرية صرف، لان ذلك سيغفل مجموعة من العوامل» .

من هنا ، نخرج بالنتائج التالية حول الاستراتيجية عموما :

١ – الاستراتيجية ليست محصورة بمجال من المجالات دون اخر . اذ ان كل مجال يوضع له هدف للوصول اليه ترسم له استراتيجيـة لتحقيقه . وتقوم الاستراتيجية عموما بـ :

أ ـ تقييم الوضع في المجال المعطى واكتشاف القوانين الاساسية التي تحكمه .

ب ـ وضع خطة استراتيجية تتضمن تلك القوانين ـ او القواعد والمفاهيم الاساسية ـ وتعين الاجراءات الاستراتيجية الواجب اتخاذها ، وانسب اساليب العمل والممارسة لتحقيق الهدف .

ج ـ تحدد نظرية التطبيق (او التكتيك في المجال العسكري او السياسي) وخطوطه العامة العريضة وتشرف عليه وتقوده ككل .

٢ ـ عندما نتحدث عن الاستراتيجية يجب :

أ ـ تحديد المجال او المجالات التي تتناولها الاستراتيجية .

ب ـ تحديد السمات الرئيسية للاستراتيجية التي نتحدث عنها اذ ان استراتيجية حزب ثوري تختلف من بلد لبلد ، كما تختلف عن استراتيجية القوى المضادة، وتختلف من مرحلة الى اخرى ، كما ان الاستراتيجية الكلية لحرب ثورية تختلف من بلد لبلد كما تختلف عن الاستراتيجية الكلية لدولة امبريالية الخ .

٣ ـ نظراً للترابط الكلي بين مختلف المجالات .

أ ـ يحدد الهدف العام الكلي ، او الاهداف العامة الكلية ، عن طريق اعلى سلطة سياسية في الدولة او الحزب . ثم ،

ب ـ تحدد الاستراتيجية الكلية من اجل تحقيق الهدف العام الكلي، او الاهداف العامة الكلية، وتكون مهمة هذه الاستراتيجية **تعبئة وتنظيم** كل المصادر المادية والمعنوية في مختلف المجالات ، وجعلها تعمل بصورة منسجمة موحدة وبأقصى طاقتها وامكاناتها . وهذا يقتضي :

١ ـ وضع القوانين او المبادىء او المفاهيم الاساسية للتخطيط والممارسة على نطاق عام .

٢ ـ وضع الخطة الاستراتيجية الكلية .

٣ ـ توزيع الاهداف المطلوب من كل مجال تحقيقها .

٤ ـ التنسيق بين استراتيجيات كل مجال بحيث يحدد المجال الاكثر اهمية في كل مرحلة الخ .

٥ ـ قيادة الوضع ككل والاشراف على التنفيذ وحل كل المسائل المتعلقة بالوضع ككل . اذ ان مهمة الاستراتيجية لا تقتصر على وضع الخطوط الاستراتيجية فحسب ، وانما ايضا ، اختيار التكتيك المناسب ، ليس هذا فحسب ، وانما ايضا قيادة العمل التكتيكي ككل، والاشراف عليه من اجل ان يلعب دوره المناسب في انجاح الاستراتيجية في مجاله، والاستراتيجية الكلية من اجل تحقيق الهدف او الاهداف ، الذي او التي ، وضعتها اعلى سلطة سياسية (قد تكون برلمانا او مؤتمر حزب او مجلس اعلى قومي الخ) .

ج ـ عندما يتسلم كل مجال اهدافه من الاستراتيجية الكلية يعمد الى رسم استراتيجيته وتحديد تكتيكه (او ممارسته) ، وبكلمة اعادة العملية اي وضع المبادىء او المفاهيم او القوانين الاساسية للتخطيط والممارسة ثم وضع الخطة الاستراتيجية الخ .

٤ ـ لما كان العمل في كل مجال ، او في الوضع ككل يحمل دائما فرادة خاصة ، وبالتالي تحكمه قوانين خاصة في المرحلة المحددة وفي الزمان والمكان وطبيعة كل من القوى في الصراع ، فان المحور الذي تحل بوساطته كل قضايا الاستراتيجية يتطلب وجود منهج علمي في التفكير وفي جمع المعلومات، ثم في التقييم وفي القرار، ثم في التخطيط والممارسة ، فان كل العملية الاستراتيجية تتوقف على دعامتين اساسيتين :

أ ـ الواقع الموضوعي المعطى من كل جوانبه ـ المادية والتكنيكية والبشرية والوعي والتنظيم الخ .

ب ـ التفكير العميق الصحيح الذي يقيّم ذلك الواقع الموضوعي، ويحدد

نوع الاستراتيجية التي هي انسب ما تكون لمصلحتك، وضد مصلحة العدو ، ويظل دائما في مستوى كل ما يحدث من تغييرات في الواقع الموضوعي مع تلقي نتائج الممارسة ، بل يكون ابعد نظرا حيث يرى اتجاهات التغيير والتطور سلفا بقدر الامكان .

نأتي الان لنبحث ديالكتيك الاستراتيجية في المجال العسكري .

ديالكتيك الاستراتيجية العسكرية :

بعد ان تكون قد وضعت استراتيجيتك وفقا للخطوط العريضة السابقة واخترت تبعا لتقييمك للوضع المعطى من كل جوانبه طراز استراتيجيتك العسكرية مثلا :

أ ـ هل من الانسب لك خوض حرب هجومية خاطفة سريعة القرار عن طريق التركيز لسحق القوات الرئيسية في جيش العدو ؟ (كلاوسيفتز وجوميني) .

ب ـ هل ستخوض حربا نظامية تعتمد الاسلوب غير المباشر ؟ (ليدل هارت) .

ج ـ هل ستخوض حرب غوار تستهدف استنزاف العدو وتعبئة الراي العام العالمي ضده وبالتالي شل ارادته على القتال ؟ (الجزائر) .

د ـ هل ستخوض حرب شعب طويلة الامد تبدأ بالدفاع الاستراتيجي وتنتقل الى التوازن الاستراتيجي ثم الهجوم الاستراتيجي ؟ (ماوتسي تونغ ، وهوتشي منه) .

هـ ـ هل ستخوض مختلف اشكال النضال حتى يتوفر وضع ثوري ، فتختار اللحظة الحاسمة فيه لاندلاع ثورة مسلحة عامة تحقق نصرا استراتيجيا سريعا ؟ (لينين) .

ان مسألة تحديد استراتيجيتك لا ترتبط بتفضيل احدى هذه

الاستراتيجيات بصورة تجريدية . اذ ان اختيار استراتيجيتك (او على الاصح تحديدها) يرتبط بمجموعة من العوامل هي التي تقرر طراز الاستراتيجية المثلى بالنسبة لك ، فمثلا ان استراتيجية خوض حرب هجومية خاطفة سريعة القرار عن طريق التركيز لسحق القوات الرئيسية في جيش العدو ، تتوقف ، اساسا ، ـوان لم يكن هذا هو العامل الوحيدـ على توفر تفوق مادي ـ سلاح ، عدد ، حركة ، تقنية ـ على العدو . او اذا كان هنالك نوع من التوازن في القوى المادية ولكن جبهة العدو مخلخلة من الناحية المعنوية ، والتنظيمية والسياسية الخ . بينما اذا كان العدو متفوقا نسبيا ، ولم تكن قد اكملت استعداداتك ، ولديك ساحة حرب واسعة تستطيع المناورة فيها بحيث تنهك العدو وتشتت قواه، لبينما تجمع قواتك وحلفاءك ، فان خوض حرب نظامية تعتمد الاسلوب غير المباشر (استراتيجية بريطانيا التقليدية في الحربين العالميتين الاولى والثانية) تكون الانسب في مثل هذه المعطيات . كما ان تبني استراتيجية حرب شعب طويلة الامد (على اختلاف استراتيجياتها ـ الطراز الجزائري ، او الفياتنامي او الصيني ، او الروسي البلشفي الخ) ، محكومة بتوفر تفوق مادي كاسح في جبهة العدو ، في حين لا تستطيع انت الا تبني استراتيجية تعتمد على الدفاع الاستراتيجي بسبب ضعفك المادي وضرورة الاعداد الطويل في اثناء الصراع ، وبالاعتماد اساسا على العناصر الانسانية ـ الوعي ، التنظيم ، الجماهير، وخلخلة جبهة العدو ـ من اجل الانتقال الىالتوازن الاستراتيجي ثم الهجوم الاستراتيجي وانزال الهزيمة بالعدو ، وحتى شكل استراتيجيتك في مرحلتي التوازن الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي تقررها موازين القوى ـ كل القوى (المادية والمعنوية ، والسياسية ، والدولية الخ) .

ان العلاقة الجدلية بين موازين القوى ـ كل القوى هي التي تقرر طراز الاستراتيجية الانسب في كل وضع ، مع الاخذ بعين الاعتبار حجم ساحة الحرب والطوبغرافية والكثافة السكانية والوضع المدني والطبقي والاقتصادي الخ ، وكذلك ضرورة الاخذ بعين الاعتبار مسألة الزمن ، اي هل اطالة امد الحرب لمصلحتك ام لمصلحة العدو .

الان ، بعد ان تحدد استراتيجيتك وتكتيكك فان العدو سيفعل كذلك في المقابل ، اي سيختار نوع استراتيجيته وتكتيكه ، وهنا تبدأ عملية صراع منذ الوهلة الاولى حتى نهاية الحرب . وسيتخذ الصراع طريقه على

عدة جبهات في المؤخرة وفي الجبهة ، في المجالات السياسية والاقتصادية والسيكولوجية وفي المجالات التنظيمية والايديولوجية، وعلى مستوى الرأي العام العالمي والمحلي الخ. هذا فضلا على الصراع في العمليات الاستراتيجية والمعارك التكتيكية . وسيكون هنالك دائما نقاط ضعف ونقاط قوة في جبهتك وكذلك الحال في جبهة العدو . ولو اخذنا مسألة نقاط الضعف ونقاط القوة كمثل على ديالكتيك الصراع الاستراتيجي ، فسنجد ان الجوهر في كل عملك سيتركز على حماية نقاط ضعفك ، ومنع العدو من استغلالها حتى الحد الاقصى ، وتصعيد نقاط قوتك لتعمل باقصى فعالية . ولكن العدو سيحاول منعك من الافادة من نقاط قوتك وجعل فعاليتها تهبط الى الحد الادنى . بينما ستدور معركة مشابهة من جانبك على جبهة العدو بحيث تحاول ان تضرب نقاط ضعفه وتفيد منها حتى الحد الاقصى بينما سيحاول العدو حمايتها ، ومنعك من استغلالها ، كما ستحاول منعه من الافادة من نقاط قوته حتى الحد الاقصى ، وجعل فعاليتها تهبط حتى الحد الادنى .

ان هذه العملية كما يلاحظ تتخذ شكل سلسلة مترابطة من المواقف الدفاعية والهجومية ، وتمتاز بمحاولات فرض واحباط في وقت واحد . وستتخذ في الجوهر شكل صراع على كسب حرية الحركة وحجبها عن العدو ، او عرقلة حرية حركة العدو واستعادة حرية الحركة من جانبك ، في اثناء عرقلة حرية حركته ، وكما قلنا ، سيفعل هو الامر نفسه . وهذا بدوره يجعل ساحة الحرب في حالة حركة وتغير مستمرين، ويجعل توازن القوى في حالة تقلب ، ويجعل خططك الاستراتيجية في حالة صدام دائم مع مقابلاتها في جانب العدو ، وفي علاقة حية دائمة مع التطبيق ونتائجه، الامر الذي يتطلب اعادة تقييم الوضع ككل باستمرار ، وكذلك احداث تغييرات وتعديلات بالخطط الاستراتيجية وبالعمليات والتكتيك من اجل امتلاك زمام المبادرة او استعادته ، وامتلاك حرية الحركة او استعادتها ، وهذا يتطلب باستمرار انطباق الحكم الذاتي والممارسة على معطيات الواقع الموضوعي والذاتي في الصراع .

من هنا يمكن رؤية طبيعة ديالكتيك الاستراتيجية في الحرب ، ومدى اهمية دور العامل الذاتي ، خاصة ، عبقرية القيادة في معالجة ديالكتيك الصراع في الحرب .

اشكال الاستراتيجية

لا يمكن ادراك ابعاد الاستراتيجية الا بأخذ امثلة ملموسة بحيث نضع امامنا مجموعة من الاشكال والمحتويات التي اخذتها الاستراتيجيات العسكرية المختلفة ، وعندما نتأمل تلك الاشكال نستطيع ادراك ما هي الاستراتيجية ، بصورة اكثر وضوحا من التعريف .

يقول ماوتسي تونغ : «ثمة قوانين مختلفة لقيادة الحروب المختلفة . تولدها الظروف المختلفة لتلك الحروب .. مختلفة طبيعة وزمانا ومكانا» . ويعرف طبيعة الحرب بانها تتولد من طبيعة القوى والاهداف التي تمثل كل جانب في الحرب ، فمثلا طبيعة الحرب المضادة للثورة ، وبالتالي ، قوانينها تختلف عن طبيعة الحرب الثورية ، وبالتالي ، قوانينها . اما الزمان فهو مرتبط بالمرحلة التاريخية وسماتها الخاصة ، ولهذا فان قوانين الحرب لها سمات خاصة في كل مرحلة تاريخية ـ مستوى تطور الاسلحة والتكنيك الخ . وبالتالي لا يمكن تطبيق تلك القوانين على حرب في مرحلة تاريخية اخرى . اما المكان فمرتبط بوضع كل بلد وامة اذ ان لقوانين الحرب سمات خاصة في كل بلد وامة، وما ينطبق على احداها لا ينطبق ، ميكانيكيا ، على الاخرى .

لذلك فان القوانين التي تحكم الاستراتيجية عديدة بعدد اختلاف الحروب المختلفة طبيعة وزمانا ومكانا .

كما يجب ان يلاحظ ان نسب تأثير عوامل طبيعة الحرب والزمان والمكان لا تقوم على اساس مقادير ثابتة، اذ احيانا تلعب طبيعة الحرب دورا اكثر حسما ، في تحديد الاستراتيجية بينما يلعب الزمان ـ التطور التكنيكي والانتاجي ـ دورا اكثر حسما في حالات اخرى وهكذا ، ولكن يظل هنالك مكان للعوامل الاخرى . والآن لنأخذ بعض اشكال الاستراتيجية .

الاستراتيجية في الحرب العالمية الاولى

كانت طبيعة الحرب العالمية الاولى ذات طابع استعماري عدواني من

جانب كل الدول المتحاربة . وكان التطور التكنيكي العسكري متقاربا بين الاطراف المتحاربة ، وان كان الوضع المدني والاقتصادي في جبهة الحلفاء اكثر تطورا ، وامكانات ، بالمقارنة مع جانب المانيا .

دخلت كل الاطراف المتحاربة الحرب تحت استراتيجية واحدة وهي استراتيجية كلاوسيفتز ، رغم ان بريطانيا تبنت استراتيجية الحرب غير المباشرة في بعض الجبهات (القتال في المضائق التركية ، حملة فلسطين الخ). الا ان استراتيجيتها العسكرية الاوروبية اعتمدت اساسا الاستراتيجية المباشرة كباقي الاطراف . وفي الواقع ، لقد سادت استراتيجية الهجوم الكثيف الكاسح لسحق القوات الرئيسية للعدو ، على عقــول جنرالات الحرب العالمية الاولى . انها استراتيجية القرار الحاسم في المعركة عــن طريق تركيز قوات متفوقة على قوات العدو الرئيسية والعمل على سحقها من خلال الالتفاف حول الاجنحة او شق الجبهة بهجمات جماعية مباشرة. ولكن سرعان ما تحطمت هجمات الطرفين امام الخنادق والاسلاك الشائكة ومن ورائها المدافع الرشاشة ، وامام سرعة انتقال الاحتياط الدفاعــي بسرعة لا تقل عن سرعة الهجوم نفسها ، مما حوّل الحرب الى خطوط جبهة طويلة راكدة، واخذت الاستراتيجية بعد هذه المرحلة تتحول الى استراتيجية استنزاف طويل الامد مع الاعتماد كليا على كثافــة النيران وزيادتها . واخيرا جاء الهجوم الالماني في ربيع ١٩١٨ نتيجة فشل هجمات الحلفاء ١٩١٥ - ١٩١٧ ، ولكنه تحطم امام الدفاع مما اتاح للحلفاء شن الهجوم المضاد في اوائل خريف ١٩١٨ الذي انتهى باستسلام المانيا ، وعلى كل حال سنبحث هذه القضية تفصيلا في بحث التكتيك .

الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية

اعتمدت استراتيجية هتلر في جوهرها على استراتيجية كلاوسيفتز . فهو من ناحية وضع البلاد كلها تحت التعبئة العسكرية الكاملة ، ورســم استراتيجية شن حرب عدوانية تعتمد على سحق القوات الرئيسية للعدو عن طريق التركيز في المعركة ، ولكن بعد القيام بعملية اختراق من نقطتين او ثلاث لخط الدفاع ، والقيام بعمليات مناورة استراتيجيــــة في قلب

الخطوط الداخلية للعدو تتم فيها السيطرة على طرق المواصلات ، وقطع القوات الرئيسية للعدو ، ثم فرض معركة حاسمة عليها بعد ان يكون قد امن تفوقا من نواح عديدة تضمن تحقيق نصر حاسم . لقد ساعد التطور التكنيكي في الدبابات والطيران وقوات المشاة المحمولة على انجاح هــذه الاستراتيجية التي حملت طابع الحرب المتحركة التي تنتهي بقرار فــي المعركة وبانتصار استراتيجي . كان انتصار هذه الاستراتيجية محتوما على استراتيجية خطوط الدفاع الجامدة - خط ماجينو - بسبب زياده سرعة الهجوم على سرعة جلب الاحتياط ولاسباب اخرى طبعا - سنبحثها تفصيلا في موضوع التكتيك .

ولكن استراتيجية هتلر تلك اصطدمت باستراتيجية الاتحاد السوفياتي التي لا تعتمد على خط الدفاع الثابت، وانما على الدفاع العميق المتحرك الذي يرتكز الى العمق، والضخامة البشرية، وسعة المساحة، فضلا عن الطبيعة الشعبية الثورية العادلة للحرب من جانب الاتحاد السوفياتي، وقوة التنظيم ورسوخ الوضع المدني . لهذا قامت الاستراتيجية العسكرية السوفياتية في الحرب العالمية الثانية على اساس استيعاب راس رمح العدوان بدلا من مواجهته بخط دفاع ثابت ، وبعد انهاكه حين يصطدم بالنقاط الدفاعيــة الرئيسية - موسكو ، لينينغراد ، ستالينغراد الخ - تنتقل الاستراتيجية الى الهجوم الشامل الذي يعتمد على الضخامة والزخم بدل الاختراق من نقاط على نمط تكتيك بليتزغريغ الالماني .

اما بريطانيا فجزيرة محدودة الامكانات بشريا ومساحة ومصادر ولكنها دولة امبريالية عالمية لا تغيب الشمس عن مستعمراتها . لذلــك قامت استراتيجيتها العسكرية على الاسطول البحري في محتوى عالمي ، ومن هنا لجأت الى توزيع قواتها بدقة واقتصاد على الكرة الارضية ، تاركة امامها اهدافا مرنة قابلة للتغيير والتعديل حسب الظروف . ولقد عبرت هذه الاستراتيجية عن نفسها في الحرب العالمية الثانية باتباع الاستراتيجية غير المباشرة عن طريق ايقاف توسع هتلر من خلال حسن توزيع القوات : في بريطانيا وشمالي افريقيا ، وجبهة العراق - ايران ، الى جانب تحالفات دولية واسعة ، والانتظار لبينما تستكمل الولايات المتحدة استعداداتها ، وتكون المانيا قد انهكت خاصة في الجبهة الشرقية جنبا الى جنب مع تصعيد القصف الاستراتيجي على المواقع الصناعية والانتاجية في المانيا .

اما الولايات المتحدة الامريكية فقد بنت استراتيجيتها في الحرب العالمية الثانية على مرحلتين . المرحلة الاولى عملية استكمال استعداداتها العسكرية وبناء قواتها المسلحة ، خاصة ، سلاح الطيران ، مع مساندة بريطانيا على الصمود ، وهذه المرحلة امتدت من ١٩٤١ حتى ١٩٤٣ وقد وضعت اسس هذه الاستراتيجية في اجتماع ممثلي اركان الجيشين البريطاني والامريكي، سرا، في واشنطن وقد اتخذوا قرارين استراتيجيين:

١ ـ اذا اضطرت امريكا دخول الحرب فسيكون هدف البلدين هزيمة دول المحور بما في ذلك اليابان .

٢ ـ اذا دخلت اليابان الحرب فان الحلفاء يركزون على هزيمة المحور الاوروبي اولا ، ويبقون في الدفاع في المحيط الهادي حتى يقضى على المانيا ـ العدو رقم ١ .

واعتبر هذان القراران حجر الزاوية في الاستراتيجية الغربية ويجبان يتحولا الى خطط استراتيجية . وكان تقدير الامريكيين بعد مسح امكاناتهم المادية والبشرية والانتاجية ان بمقدور الحلفاء التحول الى الهجوم العام في ١٩٤٣ ، وقدم روزفلت خطة النصر Victory Program وهي تقضي بوضع ثلاثين فرقة امريكية في بريطانيا و٣٢٥٠ طائرة حربية مع اللوجستيكا اللازمة بهدف شن هجوم على فرنسا من القناة البريطانية . بل ان الامريكيين طالبوا بتنفيذ هذه الخطة في ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٢ وذلك لتحقيق هدفين :

١ ـ اذا انتصر هتلر على الاتحاد السوفياتي يمنع من جني ثمار النصر .

٢ ـ اذا انتصر الاتحاد السوفياتي يكون الغرب في قلب الاختراق وبالتالي يجني اكثر ما يمكن من المكاسب .

وهنا دار صراع حاد بين الاستراتيجيتين البريطانية والامريكية لان بريطانيا اصرت على تقوية الجبهات المفتوحة في شمالي افريقيا ، والسيطرة على البحر المتوسط ، ووافق روزفلت على ارسال قوات الى شمالي افريقيا ضد راي هيئة اركان الجيش الامريكي التي اعتبرت ان اي جهد

خارج الجبهة الاوروبية اضاعة للوقت والطاقات .

هذا الصراع كان يعكس الخلاف بين الاستراتيجية المباشرة (كلاوسيفتز) وبين الاستراتيجية غير المباشرة التي تعتمد المناورة ، وطول النفس ، واقتناص المناسبات ، دون التقيد بخطة محددة تنفذ بصرامة .

ان استراتيجية امريكا هي انعكاس لقوة مصادرها المادية والبشرية وارتفاع مستوى طاقتها الانتاجية والتكنيكية مقرونة بزخم الدولة الامبريالية الطامحة لاعادة اقتسام العالم .

اما الاستراتيجية السوفياتية، فقد فرض عليها الهجوم النازي الصاعق المفاجىء استراتيجية الدفاع الايجابي العميق الذي يتأهب الى الانتقال للاستراتيجية المباشرة في اكثر اشكالها حسما . ولهذا فقد اتصف الدفاع الاستراتيجي للقوات المسلحة السوفياتية والشعب والحزب والدولة السوفياتية ، بالصلابة والفعالية الكبيرة والهجمات المحدودة المستمرة مع التحضير الحثيث للحظة الانتقال للهجوم المضاد العام الاستراتيجي ، خاصة، بعد كسر شوكة هجوم العدو . وعندما تم الانتقال الى الهجوم الاستراتيجي اصبحت الاستراتيجية المباشرة الشيء الاساسي والحاسم ، فكان اختيار الضربة الرئيسية يعمد في توجيه العمليات الهجومية الى التحشدات الاساسية للعدو التي يؤدي تدميرها الى فتح الطريق نحو الزحف الشامل للاجهاز كلية على جيش العدو .

ولنأخذ الان مثالا اخر لاستراتيجية عسكرية تعتمد استراتيجية حرب الشعب طويلة الامد كما وصفها ماوتسي تونغ .

حدد ماوتسي تونغ اربع سمات رئيسية للحرب الثورية في الصين :

١ ـ بلاد واسعة شبه مستعمَرة ، متفاوتة التطور اقتصاديا وسياسيا، ومرت بتجربة ثورة عظيمة .

٢ ـ عدو كبير وقوي .

٣ ـ جيش احمر صغير وضعيف .

٤ – ثورة زراعية .

ويقول ماوتسي تونغ ان هذه السمات تحكم خط الحرب الثورية في الصين، والكثير من استراتيجيتها وتكتيكها . اذ يشير البنـــدان الاول والرابع الى ان من الممكن للجيش الاحمر ان ينمو ويقضي على العدو . بينما يشير البندان الثاني والثالث الى ان من المحال للجيش الاحمر ان ينمـو بسرعة ويقضي على عدوه بسرعة، ولهذا لا بد من ان تكون الحرب طويلـة الامد ، ولكن من الممكن فقدانها اذا لم تقد بدقة ومهارة وبصورة صحيحة .

بعد تحديد تلك القوانين او السمات الرئيسية للحرب تشتق منها عدة قوانين :

١ – استراتيجية حرب طويلة الامد .

٢ – حملات ومعارك ذات قرار سريع .

٣ – جبهة متحركة وحرب متحركة وتجنب خط الجبهة الثابت، وحرب المواقـع .

٤ – تبنّي استراتيجية عمليات تقضي بالضرب بقبضة واحدة ، في اتجاه واحد ، في الوقت الواحد . وتجنب استراتيجية الضرب بقبضتين في آن واحد .

٥ – نسبة توازن القوى: استراتيجيا العدو عشرة والجيش الاحمر واحد، اما تكتيكيا فالجيش الاحمر عشرة والعدو واحد .

٦ – النمو اثناء القتال ، ووضع العمل السياسي بين الجماهير فـي المقدمة ، بل ان الجيش الاحمر نفسه يلعب دور المنظم السياسـي وناشر الوعي السياسي .

طبعا هذه القوانين لا تغطي كل قوانين حرب الشعب في مرحلة الدفاع الاستراتيجي كما ان المراحل الاخرى ، التوازن الاستراتيجي والهجـوم

الاستراتيجي تشتق منها ولها قوانين اخرى .

كان كلاوزسيفتز قد وضع ثلاثة قوانين للاستراتيجية المباشرة :

١ – تركيز الجهد .

٢ – العمل بقوة ضد القوات الرئيسية للعدو ، وتحقيق نصر فـي المعركة في مسرح العمليات الرئيسي .

٣ – يمكن ان يكون التكتيك : دفاعي / هجومي .

اما ليدل هارت فقد اشتق ثمانية قوانين للاستراتيجية التي تتبـع الطريق غير المباشر كما اسماها ، عندما تطبق من قبل دولة قوية نسبيا مثل بريطانيا ، ويمكن تلخيص تلك القوانين :

١ – اجبار العدو على تفريق قواته عن طريق اجراءات غير مباشرة .

٢ – تحقيق المفاجأة باختيار اساليب غير متوقعة من قبل العدو .

٣ – العمل بقوة ضد نقاط الضعف لدى العدو .

٤ – تحقيق قرار عن طريق العمل في مسرح ثانوي ان امكن .

هذه نماذج فقط ، ولا تغطي مختلف الاستراتيجيات ، ولكن يمكـن تلخيص الاشكال الرئيسية التي طبقتها الاستراتيجية :

اولا : استراتيجية الهجوم الاستراتيجي – الطريق المباشر .

اذا كانت المصادر المادية اقوى، وثمة قوات عسكرية ضاربة كافية ، فستشن الحملة هجوميا ، ويكون الهدف اخذ قرار سريع في المعركـة الحاسمة – قوانينها الرئيسية تلك التي وضعها كلاوسيفتز .

ثانيا : استراتيجية دفاعية / هجومية – طريق مباشر .

اذا لم يكن التفوق واضحا ، او اذا كان الهجوم بسبب ظروف تكتيكية،

او جغرافية ، او نقص الاستعدادات غير قادر على تحقيق نتائج . قانونها: انهاك العدو بعمل دفاعي او استيعاب زخم الهجوم وشله، يتبعه هجوم مضاد كاسح (وصلت هذه الاستراتيجية قمتها لدى السوفيات) .

ثالثا : **استراتيجية الهجوم المباشر تسبقه عمليات هجومية في نقاط ثانوية او استراتيجية الطريق غير المباشر .**

اذا لم يكن التفوق واضحا وكان العدو يمتلك قوة متفوقة نسبيا ، يلجأ الى هذه الاستراتيجية لاجبار العدو على تفريق قواته عن طريق هجمات غير مباشرة (ليدل هارت) .

رابعا : **استراتيجية الدفاع الاستراتيجي من اجل تحقيق التوازن الاستراتيجي ثم الانتقال للهجوم الاستراتيجي .**

اذا كان العدو متفوقا جدا وكان الجيش المقابل صغيرا، ولكنه يمثل ارادة جماهير واسعة، ويعمل على ارض شاسعة، فهو يلجأ الى استراتيجية الدفاع الاستراتيجي على شكل حرب متحركة طويلة الامد، ولكن معاركها وعملياتها سريعة القرار الخ. وهي تستهدف الانتقال الى التوازن الاستراتيجي. وهنا تلتقي في بعض الملامح مع استراتيجية الطريق غير المباشر، ثم تلتقي في بعض السمات مع استراتيجية الهجوم المباشر . ولكن هذه الاستراتيجية لا يمكن ان تطبق الا من قبل قوى ثورية تخوض حربا ذات طبيعة شعبية ثورية . وقد طبقت هذه الاستراتيجية بخطوطها العريضة في الصين وفياتنام .

خامسا : **استراتيجية حرب الغوار ضمن استراتيجية كلية .**

اذا كان العدو متفوقا جدا ولا توجد امكانات لخوض حرب متحركة ضمن الدفاع الاستراتيجي والانتقال الى التوازن ثم الهجوم الاستراتيجي ، اما لصغر حجم البلاد ، او لاسباب جغرافية ، او سكانية ، فيلجأ الى استراتيجية حرب الغوار طويلة الامد بقصد انهاك العدو واستنزافه ، ضمن استراتيجية كلية يكون مركز الثقل فيها للعمل السياسي والدبلوماسي على النطاق المحلي وفي البلد المتربول (العدو) وفي النطاق العالمي ، مما يصل في النهاية الى شل ارادة العدو على القتال ، وتعميق ازمته الداخلية ومحاصرته عالميا . وقد طبقت هذه الاستراتيجية في حرب التحرير الجزائرية وفي قبرص .

سادسا : **استراتيجية الثورة المسلحة العامة .**

يطبقها عادة حزب ثوري ، يستهدف الاطاحة بنظام رجعي عن طريق الانتفاضة المسلحة العامة ، وهي استراتيجية ترتكز على فترة تحضير طويلة ضمن اطار استراتيجية كلية يستخدم فيها القتال الغواري احيانا ، والتظاهرات ، والاضرابات ، مع تشديد على تكوين التنظيم الثوري الطليعي، والمنظمات الجماهيرية الى جانب مختلف اشكال النضال من اجل الوصول الى لحظة انفجار الثورة المسلحة العامة ، وقد عرفها ستالين بانها «تحديد اتجاه الضربة الرئيسية في مرحلة معطاة من مراحل الثورة ووضع خطة بموجبها لتوزيع قوات الثورة (القوات الرئيسية والاحتياط الثانوي) . والقتال لتنفيذ هذه الخطة خلال المرحلة المعطاة للثورة» . ولكن هذه الاستراتيجية اذ تعتمد على فترة طويلة من التحضير الا انها تعتمد بصورة رئيسية على القدرة في تعيين اللحظة الحاسمة التي وصفها لينين بانها اللحظة التي تكون فيها قوات الثورة على اعلى درجات النشاط والتماسك، وتكون فيها قوات العدو مفككة ومتفسخة ، وتكون الفئات الوسطى شديدة التردد ، ويمكن تحييدها او كسبها . او كما حددها ، بمناسبة اخرى ، عندما تكون الطبقة الحاكمة غير قادرة على ان تحكم بالطريقة القديمة ، وتكون جماهير الشعب لم تعد قابلة لان تحكم بالطريقة القديمة ، ويكون نشاط الجماهير في اعلى درجات حدّته . لقد طبقت هذه الاستراتيجية في روسيا عام ١٩١٧ مرتين كما طبقت في فياتنام عام ١٩٤٥ .

هذه الانماط من الاستراتيجيات تشكل نماذج فقط ، اذ ثمة انماط اخرى قد تكون مزيجا من نمطين او اكثر ، وهنالك استراتيجيات بدات باستراتيجية الهجوم الاستراتيجي ، ثم انتقلت الى الدفاع الاستراتيجي الى التوازن الاستراتيجي ثم الى الهجوم الاستراتيجي – كما حدث في الحرب العالمية الاولى .

ان هذه الانماط عامة في كل بند ، بينما تظل تفصيلات تطبيق كل استراتيجية مرتبطة بقوانين خاصة – بسبب اختلاف طبيعة الحرب والزمان والمكان ، بالاضافة الى القانون العام الذي يحكم الاستراتيجية المعنية . وكما قلنا من الخطأ الظن ان هنالك استراتيجية افضل من الاخرى ، لان لكل حرب استراتيجيتها الاكثر مناسبة والاصح . واخيرا ثمة ظاهرة هامة جدا، وهي ان الاستراتيجية الصحيحة والقيادة الاستراتيجية

الكفوءة تلعبان دورا حاسما عندما لا يتوفر تفوق حاسم على العدو ، اذ انهما تستطيعان ان تجعلا الاضعف ينتصر على الاقوى . فقد خسرت حروب كثيرة ، بسبب اخطاء استراتيجية ، وعجز القيادة الاستراتيجية. كما ان كثيرا من الحروب كسبت بسبب صحة الاستراتيجية وعبقرية القيادة الاستراتيجية في ظروف عدم توازن في القوى المادية والتكنيكية لمصلحة العدو .

الاستراتيجية في العصر النووي

لا يمكن مقارنة السلاح النووي ومعه الصاروخ عابر القارات باي سلاح تقليدي اخر . اذ ان الفرق بين الاسلحة النووية وبين الاسلحة التقليدية كيفي وليس كميا . فمثلا ان قنبلة نووية حرارية (ميغاتون واحد فقط) تستطيع ان تدمر مئات الاميال المربعة وتقضي على اي اثر للحياة فيها ، واذا اضيف الى ذلك توفر الصاروخ عابر القارات الذي يحملها ويضرب من اية نقطة على الكرة الارضية الى اية نقطة اخرى في النصف الاخر ، وبدقة عالية جدا، نستطيع ان ندرك التغيير الكيفي الذي احدثه السلاح النووي والصاروخ .

ثمة فرق حاسم آخر بين السلاح النووي وبين الاسلحة التقليدية ، وهو كون السلاح النووي ذا طابع هجومي اساسا، اي عكس السلاح التقليدي الذي هو دفاعي / هجومي حسب مقتضيات الحرب . وهذا يعني ان السلاح النووي مفتقر للمرونة كما انه افقد قيمة الدفاع في الحرب الى حد بعيد، ومن هنا حكم السلاح النووي اية استراتيجية بتصعيد القدرة الهجومية، وجعل الاولوية للقوة الضاربة النووية ، خاصة ان ما بدا من امكان اتخاذ اجراءات دفاع سلبي زمن القنابل الذرية قد سقط من الحساب مع اختراع القنابل النووية الحرارية ، الى جانب تكاليفه الباهظة الخيالية . وجاءت الصواريخ عابرة القارات لتسقط كل امكانية دفاعية . وقد جرت محاولات لاكتشاف وسائل لمقاطعة الصواريخ وحرفها عن مسارها ولكن القدرة الهجومية ـ الاختراق ـ كانت قد خطت في ذلك الحين خطوتين الى امام مع السيطرة على الفضاء .

واذا كان تطور التحكم بالسلاح النووي قد ادى مؤخرا ، الى تولد ما

يسمى بالاسلحة النووية التكتيكية المخصصة لاستخدام القوات الآلية دفاعيا / هجوميا ، فان هذا لا يلغي الطابع الجوهري الاساسي للسلاح النووي اي الهجومية ، اذ ان الشكل الرئيسي لهذا السلاح هو القوات الصاروخية الاستراتيجية ، اي الصواريخ عابرة القارات ذات الرؤوس النووية ، التي لا تستطيع الا ان تكون اسلحة هجومية وعلى المستوى الاستراتيجي .

كانت التغييرات المادية في الماضي تطرأ على التكتيك اولا، ثم تعود لتؤثر على الاستراتيجية. اما في العصر الراهن فان الاسلحة النووية ، خاصة السلاح الصاروخي النووي ، خرجت كاسلحة استراتيجية فورا ، واعطت للاستراتيجية طابعا جديدا يختلف عن الاستراتيجية قبل الاسلحة النووية. فقد كان مدى الاستراتيجية يرتبط بمدى التكتيك والعمليات ، اما الاستراتيجية النووية فمداها تعدى حدود العمليات والتكتيك، واصبحت تصل اية نقطة مهما تكن بعيدة عن خط النار ، بل انها الغت ما يسمى بخطوط النار او جبهات القتال ، او الجبهة الامامية والجبهة الثانية ، وجعلت كل نقطة ، اينما كانت ، تحت متناولها . واذا اضفنا الى كل ذلك السرعة والضخامة الهائلتين للقوات البرية والقوات المحمولة جواً ، فسيعني هذا الغاء الحدود الجبهية والجبهات واستبدالها بالاتجاهات عمقا وعرضا .

ثمة فرق آخر ، لقد كانت الاستراتيجية في الماضي تحقق اهدافها من خلال العمليات والتكتيك ـ اي بالقوات البرية والبحرية والجوية ـ ولكن الوضع اختلف الان حيث اصبح تحقيق النتائج الحاسمة يتم من خلال الصواريخ ذات الرؤوس النووية : اي الاستراتيجية المباشرة .

مراحل التوازن النووي العالمي :

لقد شهدت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية اربع مراحل بالنسبة لوضع التوازن النووي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية.

١ ـ مرحلة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ كانت الولايات المتحدة الامريكية تحتكر

السلاح الذري، ولكن كانت نسبة ما لديها من القنابل الذرية محدودة، وكان الاسلوب الوحيد لنقلها يرتكز على الطيران بينما كان الاتحاد السوفياتي ، في المقابل ، متفوقا بالقوات المسلحة التقليدية الى جانب اتساع شاسع لاراضيه ، وارادة لا تفل على القتال وعدم الاستسلام حتى لو واجه حربا ذرية بضربات مثل ضربة هيروشيما وناجازاكي ، وبالتالي كانت الحرب ستطول بينما كان حصوله على السلاح الذري اصبح وشيكا . واذا اضيف الى كل ذلك وضع الراي العام العالمي الذي كان معبأ ضد حرب جديدة ، ولم يلأم جراحاته من الحرب العالمية الثانيه بعد ، مما جعل الاستراتيجية النووية للامبريالية الامريكية تتميز في هذه المرحلة :

١ ــ الاستعداد لامتلاك قوة نووية كاسحة، وقوة طيران ضخمة من اجل خوض حرب شاملة حتى نهايتها ، تحت الاستراتيجية المباشرة ــ استراتيجية الهجوم المباشر .

٢ ــ اثارة حملة ذعر وتهديد وارهاب في العالم من اجل احكام السيطرة الامريكية على ما يسمى بالعالم «الحر» ، وربطه بالاحلاف العسكرية، خاصة ، اوروبا الغربية .

٣ ــ تعزيز القوات العسكرية التقليدية في اوروبا الغربية ، واحياء العسكرية الالمانية .

٤ ــ عملية تحضير سريعة عسكريا وسياسيا، وخلق هستيريا العداء ضد الشيوعية، وتأزيم الوضع الدولي حتى الحد الاقصى كتحضير لحرب عالمية ثالثة .

عمليا ، يمكن اعتبار الاستراتيجية الامبريالية في هذه المرحلة استراتيجية التحضير لحرب نووية ضمن السيطرة على اوروبا الغربية وتطوير قواتها العسكرية التقليدية، وبناء القواعد الذرية فيها كنقاط وسيطة للانطلاق على الاتحاد السوفياتي .

اما استراتيجية الاتحاد السوفياتي فكانت :

أ ــ الاسراع في امتلاك القنبلة الذرية وتعزيز القوات الجوية .

ب ــ ابقاء التفوق في القوات العسكرية التقليدية .

جـ ــ تعبئة الراي العام العالمي ضد الاستراتيجية الامريكية تحت شعار المحافظة على السلم العالمي .

د ــ استيعاب اي هجوم نووي اذا وقعت الحرب، والانتقال الى الهجوم بالقوات التقليدية .

٢ ــ مرحلة ١٩٤٩ ــ ١٩٥٣ ، فجّر الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٩ اول قنبلة ذرية ، كما انتصرت الثورة في الصين ، وبهذا اختل توازن القوى بالنسبة للولايات المتحدة من زاويتين :

أ ــ من ناحية القوة النووية .

ب ــ من ناحية القوات المسلحة التقليدية خاصة في آسيا مع انتقال سبعمائة مليون انسان في الصين الى المعسكر الاشتراكي .

لقد تكشف هذا الاختلال في التوازن في الحرب الكورية ، عندما أصر ماكآرثر على استخدام القنبلة الذرية ، ولكن حسابات البانتاغون والبيت الابيض ادركت ان التصعيد النووي في الحرب الكورية سيرتفع الى تصعيد على مستوى عالمي يهدد وجود الرأسمالية من الجذور .

حافظت الولايات المتحدة على خطوط استراتيجيتها السابقة ، ولكن، عمليا ، مع تحفظ اشد فيما يتعلق بالوصول الى نقطة الصفر ، وقد اصبحت بحاجة ملحة الى تعزيز القوات التقليدية في آسيا ، خاصة ، احياء العسكرية اليابانية ، والعمل على خلق حلف جنوب شرقي آسيا .

اما الاستراتيجية النووية فيما يتعلق بالعمليات ، فان تفكير الجنرالات الامريكيين قد انصب على استراتيجية هجوم شامل على كل المطارات التي يسهل تحديدها وتدميرها ما دامت القنابل الذرية تنقل بالطائرات ، ولكن هذه الاستراتيجية سرعان ما سقطت عندما تبين ان التوزيع الحصيف للمطارات، وقوة الرادار جعلا تحديد وضرب كل النقاط محالا ، وحاول

العسكريون رسم استراتيجية هجوم مفاجىء صاعق على طراز بيرل هاربر، ولكن سرعان ما طارت هذه الاستراتيجية عندما اخذ عنصر المفاجأة يتضاءل امام تطور الاحتياطات المختلفة .

٣ ــ مرحلة ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥ ، امتلك الاتحاد السوفياتي القنبلة الهيدروجينية قبل الولايات المتحدة ، فوجدت استراتيجية الولايات المتحدة النووية نفسها في حالة تراجع ، عمليا ، واصبحت مهمتها العمل الحثيث للحاق بالاتحاد السوفياتي وامتلاك القنبلة الهيدروجينية ، ولكن الامبريالية الامريكية اعلنت عام ١٩٥٤ استراتيجية الرد الشامل Massive Retaliation اي التهديد بتصعيد الصراع في اية حرب محلية الى مستوى الحرب الذرية. كان المقصود من هذه الاستراتيجية خلق وضع ذعر في العالم ، لاخفاء اختلال التوازن من اجل الحيلولة دون اندلاع حروب التحرير على نطاق شامل ، والضغط على الاتحاد السوفياتي ، ليحد من تأييده لحركات التحرر والثورة العالمية .

٤ ــ مرحلة ١٩٥٥ ــ ١٩٦٠ ، لم تكد الولايات المتحدة اللحاق بالاتحاد السوفياتي من خلال امتلاكها للقنبلة الهيدروجينية ، حتى كان الاتحاد السوفياتي قد قفز خطوة اخرى حاسمة، الى امام، باختراع الصواريخ عابرة القارات ، ثم توجه بالنجاح في اطلاق القمر الصناعي. وبهذا اختلت نسبة التوازن اختلالا قويا، وتكشف هذا الاختلال في الغزو الثلاثي على مصر ، وتراجع الامبريالية العالمية امام تهديد الاتحاد السوفياتي بالتدخل اذا لم يتوقف العدوان .

ادى اختراع الصواريخ عابرة القارات الى الغاء الطيران الامريكي ، وكل احلام الغطاء الجوي ، واستراتيجية بيرل هاربر نووية ، واستراتيجية الرد الشامل ، ولم تعد الولايات المتحدة بعيدة عن قلب المعركة النووية ، وهذا بدوره افسح المجال امام حركات التحرر الوطني للنهوض ، كما يفسر نجاحاتها التي تحققت خلال الخمسينات .

٥ ــ مرحلة ما بعد ١٩٦٠ ، استطاعت الولايات المتحدة اللحاق بالاتحاد السوفياتي في مجال الصواريخ عابرة القارات ، وهنا عاد التوازن النووي والصاروخي . ودخل الوضع استراتيجيا مرحلة جديدة . وكانت النتيجة ان اصبح لدى الطرفين شبكة ضخمة من الصواريخ محددة الاهداف ، وبدأ الامبرياليون الامريكيون يفكرون باستراتيجية الضربة الاولى، ولكن تبين ان الاستراتيجية المقابلة : استراتيجية البقاء بعد الضربة الاولى اصبحت حقيقة واقعة خاصة بعد انتشار الغواصات ذات الصواريخ النووية التي لا

يمكن تحديدها كلها ، وان اية ضربة اولى مهما كانت قوية وكثيفة لن تقضي على الطرف المقابل الذي ستبقى بين يديه امكانية توجيه ضربة ثانية، وبالقوة نفسها على الاقل. وهنا حلت محلها استراتيجية الردع deterence strategy التي تعني استراتيجية البقاء بعد الضربة الاولى ، وقد اتبعها كينيدي بالاستراتيجية التي عبر عنها ماكسويل تيلور «استراتيجية الرد المرن والردع المتدرج» اي ان كل اجراء «معاد» يواجه برد مناسب عن طريق استخدام قوة كافية لردعه، ولكن ليس اكثر من القوة الضرورية لذلك، من اجل الحيلولة دون التصعيد الى حد الاشتباك النووي مع الاتحاد السوفياتي.

مسائل الحرب النووية :

اذا كانت السمة المميزة للاسلحة النووية ككل انها هجومية ، فلا بد من ان تبرز ثلاث قضايا استراتيجية اساسية :

١ ــ تصعيد المقدرة الهجومية وجعل الاولوية للقوة الضاربة .

٢ ــ اجراءات دفاع سلبي محدودة ، وقد سقطت من الحساب مع القنابل النووية الحرارية والصواريخ عابرة القارات ، فضلا عن تكاليفها الخيالية .

٣ ــ محاولة اتخاذ اجراءات دفاعية لحرف الصواريخ عن مسارها . ولكن على الرغم من النجاحات المحدودة لهذه الاجراءات الا ان القوة الهجومية ظلت متفوقة واصبحت السمة السائدة الان في التسابق التكنيكي تدور بين قوة الاختراق وبين قوة المقاطعة التعرضية للصواريخ ، وقد تفوقت، قوة الاختراق كثيرا مع تطور السيطرة على الفضاء .

ولقد نشأت امام هذا الوضع اربعة احتمالات لاستراتيجية نووية .

١ ــ استراتيجية الهجوم المباشر : وتنقسم الى استراتيجيتين :

أ ــ استراتيجية تدمير اسلحة العدو النووية (ضرب مواقع القوة

النووية الضاربة) .

ب ـ استراتيجية تدمير المدن .

٢ ـ استراتيجية دفاعية / هجومية مباشرة : تقضي بمقاطعة اسلحة العدو النووية وهي في طريق مسارها الى الهدف، ثم شن هجوم نووي مضاد.

٣ ـ استراتيجية الحماية المادية ضد الانفجار النووي . وقد دفعت الى المؤخرة .

٤ ـ استراتيجية الردع ـ البقاء بعد الضربة الاولى .

من الواضح ان هذه الاستراتيجيات ابتعدت عن الحرب النووية الحامية ، خاصة ، الاستراتيجية الرابعة التي اصبحت الان هي استراتيجية العصر ـ عصر التوازن الذري وتجنب التصعيد النووي. ولكنها في الواقع حرب غير معلنة تجري في مضمار سباق تكنيكي ، يحاول فيه كل طرف الغاء سلاح الاخر ، وسماها الغرب حرب لوجستيكا استراتيجية ، تكنيكيها ـ صناعي ـ تقني ـ علمي ـ مالي ، اي هي حرب استنزاف بكل معنى الكلمة ، ولكن دون اراقة دماء ، تستهدف تدمير اسلحة العدو ، وتفرض عليه تكاليف باهظة للحاق، فمثلا طائرات١٩٤٥ الغتها طائرات ١٩٥٠،وهذه الغتها طائرات ١٩٥٥ وهكذا . ومثال اخر ، جاء الرادار ضد الطائرات كاجراء دفاعي ثم الغته الطائرات شاهقة العلو التي تجاوزت الرادار، والقت المدافع المضادة للطائرات في متحف التاريخ ، ثم جاءت الصواريخ ارض ارض التي لا يمكن مقاطعتها فجعلت الطيران ملغى ما دام مربوطا بقواعد ومطارات ثابتة ، كما ادى اختراع الصواريخ ارض جو الى جعل الطيران العالي ملغى ، ثم عاد فاستعاد مكانته من خلال الصواريخ جو ارض التي تطلق من الطائرة دون ان تكون في منطقة تهديف صواريخ ارض جو . ثم بدت امكانات لمقاطعة الصواريخ ارض ارض فبرزت امكانات الاختراق من المحطات الفضائية .. وهكذا.. انها حرب غير معلنة ولكن نتائجها حاسمة. لهذا يمكن القول ان حتمية الحروب في عصر الامبريالية لم تعد شيئا دوريا وانما هي مسألة يومية يعيشها العالم كل يوم وكل ساعة . واذا كانت الامبريالية تعالج ازمتها الخانقة عن طريق الحرب، فها هي ذي الان تخوض

حربا يومية لتخفيف هذه الازمة ، ولكنها ليست حرب نيران . اما مسألة الدافع الاخر لحتمية الحروب الامبريالية ، اي هدف اعادة اقتسام العالم فقد فسحت له استراتيجية التوازن النووي مكانا واسعا في الاجندة ، ضمن استراتيجية الرد المرن .

ان استراتيجية الردع النووي مقرونة باستراتيجية «الرد المرن» وهذا يعني ان استراتيجية التوازن تقضي بعدم التصعيد بين الدولتين الكبيرتين ولكنها تعني ، في الوقت نفسه ، افساح مكان واسع لاستخدام الحرب التقليدية ، او ما يسمى بلغة استراتيجية التوازن النووي « بالحروب المحدودة» وهو اسم يطلقه الامبرياليون على كل الحروب ما عدا الحرب التي تشتبك فيها موسكو مع واشنطن . وهذا اقتضى تطوير الاسلحة التقليدية ، والقوات التقليدية، بما في ذلك القوات المضادة لحروب الفوار.

ومن هنا فان الاستراتيجية الكلية لدول الامبريالية وعلى راسها الامبريالية الامريكية تبدا من راس هرم تقف عليه استراتيجية التوازن الذري، والسباق التكنيكي النووي والصاروخي وتجنب التصعيد النووي. ثم تندرج تحته استراتيجية الحروب المحدودة . وهذه لها ثلاثة اشكال رئيسية :

ا ـ في المناطق الحيوية ، حرب محدودة سريعة القرار ، وعنيفة جدا احيانا ولكن قصيرة جدا ، هدفها فرض الامر الواقع يتبعها مفاوضات ـ مثال الغزو الثلاثي على مصر، وحرب العدوان الامريكي على الدومنيك وما تلاه من خلق وضع لمصلحة الامبريالية .

ب ـ حرب محدودة سريعة القرار عن طريق طرف ثالث (حرب حزيران ١٩٦٧ ـ اسرائيل) ، او حرب طويلة .

ج ـ حروب استنزاف طويلة الامد ـ تقليدية وغوارية ـ (كوريا ، فياتنام) .

هذا ولم نتعرض للشكل او الاشكال الاخرى مثل الانقلابات العسكرية وعمليات التخريب والاغتيال والحرب النفسية ، والحروب المضادة عن

طريق العملاء المحليين ، والتي تسمى بالحروب الخاصة .

التطورات الجديدة في عصر الاستراتيجية النووية :

لعل ابرز السمات من حيث الاهمية في عصرنا الراهن ، بعد سمة الحروب الثورية والانتصارات العسكرية والسياسية التي اخذت تحرزها الشعوب الثورية ضد الامبريالية ، هي سمة التقدم التقني الجبار في المجال العسكري حيث حدثت تطورات هائلة في :

١ ـ السلاح الصاروخي النووي الاستراتيجي (الصواريخ عابرة القارات بعيدة المدى والمتوسطة ، والصواريخ النووية بعيدة المدى والمتوسطة التي تحملها الغواصات والسفن الحربية والطائرات) .

٢ ـ الصواريخ النووية التكتيكية .

٣ ـ الصواريخ ارض ـ جو ، جو ـ جو ، جو ـ ارض المضادة للطائرات والدبابات والغواصات والسفن الحربية .

٤ ـ التطورات في التقنية الالكترونية ـ الرادارات ، والادمغة الالكترونية ، الخ .

٥ ـ التطورات في بناء الطائرات ، والدبابات ، والغواصات (خاصة ذات المحركات النووية) فضلا عن مختلف صنوف الاسلحة التقليدية .

لقد ادت هذه التطورات الى البحث المستمر لاكتشاف اساليب واشكال استخدامها في الصدام المسلح بما في ذلك اعادة تسليح القوات بالاسلحة والاعتدة الجديدة ، واستحداث التشكيلات المناسبة ، وايجاد طرق واساليب تدريبها على خوض الحرب ، وقد اقتضى كل ذلك اعادة الهيكل التنظيمي للقوات ونشوء اسلحة جديدة ، واحداث تطور كيفي في النظريات العسكرية ، خاصة ، فيما يتعلق بتعاون مختلف صنوف

الاسلحة في ظل السلاح الصاروخي النووي الاستراتيجي . او بكلمات اخرى ، لقد ادت تلك التطورات الى ضرورة اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم التحضير للحرب النووية وخوضها .

على الرغم من كل هذه التطورات فان التقدير العسكري الان يقول ان الاسلحة النووية الاستراتيجية لا تستطيع وحدها تحقيق النصر ، وانما لا بد من اكمال التدمير الاستراتيجي الذي تحدثه، بوساطة القوات التكتيكية. اما ما هو اهم من كل ذلك فبقاء الدور الحاسم للانسان رغم كل هذه التطورات المادية والتقنية المذهلة . ويقول ستروكوف : «ومهما بلغت درجة كمال العتاد الحديث فان النصر لا يمكن تحقيقه الا بالمحاربين المصقولين من الناحية الفكرية ، والقادرين على التضحية اللامحدودة ، والحائزين على مهارة تكتيكية عالية ، وانضباط فولاذي ، وقدرة كبيرة على التحمل . وكلما ارتفعت الصفات المعنوية والعسكرية للمحاربين وشجاعتهم وثباتهم كلما امكن الاستفادة القصوى من الطاقة الجبارة للعتاد الحديث » .

المقدرة والمعقولية Credibility

تعني المقدرة بالمفهوم التقليدي حجم القوة المادية للقوات المسلحة على اساس عدد القوات، وكثافة النيران، والحركة، والدعم اللوجستيكي الخ . وهذه تعزز بالتدريب الافضل والتنفيذ الماهر والتطبيق الصحيح لقواعد علم الحرب ، والعوامل المعنوية والانسانية الاخرى .

ويقول باليت : «اما المقدرة في العصر النووي فلا تقاس فقط بامتلاك السلاح النووي والصاروخي اذ لا بد من ان يضاف لها مسألة معقولية استخدامها ، وكما تسمى الان عامل المعقولية Credibility factor وتعرّف المعقولية بالنسبة لقوة نووية بمدى امكان استخدام تلك القوة من قبل الذي يمتلكها اذا نشأت الحاجة» . وهذه مسألة محكومة بسلسلة من الاعتبارات مثلا :

١ ـ المكان والسكان : ان عنصر المعقولية في استخدام السلاح النووي

من قبل بلد صغير مصنع كثيف السكان مثل بريطانيا اضعف جدا من بلد زراعي واسع اقل عرضة للابادة . لان مغامرة بلد مثل بريطانيا في حرب نووية تعني دمارا كليا لحضارتها وسكانها . ولكن هذه المعقولية تقوى في حالة تأكدها بانها تستطيع مسح العدو بأخذ المبادرة الاولى ، ولكن مثل هذه الامكانية تسقط امام التوزيع الحصيف والاخفاء الجيد للسلاح النووي ووجود الغواصات النووية والمحطات الفضائية . او بعبارة اخرى امام امكان البقاء بعد الضربة الاولى لدى العدو .

ب ـ مدى قوة الضربة المقابلة : ان بلدا كبيرا مثل الولايات المتحدة الامريكية يمتلك قوة نووية هائلة تتوقف معقولية استخدامه للسلاح النووي على قضيتين :

١ ـ اذا استطاع اكتشاف مواقع القوة النووية والصاروخية لدى خصمه، بمستوى مائة بالمائة **وليس اقل** ، وتأكد ان باستطاعته مسحها بأخذ المبادرة الاولى . ولكن هذه مسألة محالة .

٢ ـ اذا قدر ان الضربة الثانية من الجهة المقابلة لن تؤدي الى دمار كامل يصغر امامه اي نصر يمكن ان يناله بتدمير خصمه .

ولكن هذه المسألة اصبحت مفروغا منها ، بعد ان غدا من الثابت ان مدى قوة الضربة المقابلة ستلغي قيمة اي نصر يمكن ان تحرزه القوة النووية المبادرة .

لذلك ان معقولية استخدام القنابل النووية في الوقت الراهن والى امد بعيد ـ ما لم تحدث اكتشافات تكنيكية غير متوقعة بالنسبة لمقاطعة الاختراق لزيادة المعقولية ـ هي في الواقع قريبة من درجة عدم المعقولية تماما .

ان مسألة المعقولية تلعب دورا رئيسيا في استراتيجية الولايات المتحدة الامريكية ، اذ تحاول باستمرار اقناع الاتحاد السوفياتي وشعوب العالم ، بمعقولية استخدامها للسلاح النووي، وذلك لكي تفرض تراجعات وتكبت

حركات التحرر . وهذا ما يفسر استراتيجية شفير الهاوية التي تبناها دالاس ، كما يفسر استراتيجية الردع منذ ايام كندي حتى اليوم ، وهنا تلعب الحرب السيكولوجية دورا حاسما في مرحلة الاستراتيجية النووية معززة بعمليات الاستطلاع والتجسس (مثل حادثة طائرة يو ٢ U 2) لاضعاف معقولية الخصم من خلال اقناعه بزيادة المعقولية لدى الطرف الاخر نتيجة تحديد مواقع قواه النووية الضاربة . او باتخاذ اجراءات تصل الحدود القصوى التي تشرف على التصعيد (مثل حادثة حصار كوبا) لايهام الطرف الاخر ان درجة المعقولية عالية جدا لدى خصمه . ولكن كل هذه الاجراءات . بما في ذلك قصف فياتنام الشمالية ، لم يات كنتيجة للمقدرة النووية ، ولا لتوفر المعقولية فعلا ، وانما جاء نتيجة معالجة ماهرة لعنصر المعقولية لدى الاتحاد السوفياتي . وكان من الممكن ان يحدث الشيء نفسه بصورة عكسية، لو عولجت عناصر المقدرة والمعقولية بصورة مختلفة من قبل الاتحاد السوفياتي ، لان عنصري المقدرة والمعقولية لدى الولايات المتحدة الامريكية ، عمليا وموضوعيا ، ليسا متفوقين على الاتحاد السوفياتي ، عمليا وموضوعيا ، بل ، ربما كان العكس هو الصحيح (١) . وهنا يأتي عنصر الشجاعة والثبات والذكاء لفرض حدود على الخصم لا يجوز ان يتعداها ليلعب دورا هاما ضمن التوازن النووي .

ان مسألة التراجع عند اقتراب ساعة الصفر لا بد واقعة من احد الطرفين ، وان كان الاخر لا يقل استعدادا عن التراجع ايضا، فالمسألة من الذي يتراجع اولا ؟ ربما كان هذا الوضع على ضخامته وخطورته يشبه ذلك النوع من المبارزة التي كان فيها كل من البطلين يضع اصبعه بين اسنان الاخر ثم يأخذ كل منهما بعض اصبع الاخر، والذي يصرخ اولا هو المهزوم ، بينما لو انتظر لحظة كان الاخر سيصرخ . ومن الشروط التي

---

(١) يقول الجنرال ستروكوف في «تاريخ فن الحرب» : « كانت استراتيجية «الانتقام الكثيف» مبنية على اساس تفوّق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفياتي في الوسائط النووية وذلك حسب تقديرات القادة الامريكيين. ولكن هذه التقديرات كانت باطلة، وقد اعترف بذلك عدد من المسؤولين في الولايات المتحدة، وفي دول حلف الاطلسي ، حتى ان لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الامريكي عام ١٩٦٠ اعترفت بتفوق الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة في مضمار الاسلحة النووية» .

تجعل الاخر يصرخ اولا هو اشعاره انك لن تصرخ ابدا .

ان قوة المعقولية متوفرة ، فعلا ، في حالة التعرض لهجوم نووي .. هذه المعقولية متوفرة حتى لدى قوة نووية صغيرة اذ في تلك الحالة لا مفر من ضربة المقتول لا محالة ، ولكن هذه المعقولية الحاسمة ضمانة ضد الهجوم النووي .

واخيرا ، ان فهم ديالكتيك الاستراتيجية النووية ، وادراك مسألة المعقولية ، يؤديان الى احباط الكثير من الابتزاز الذي تمارسه الامبريالية العالمية ضد الشعوب، ويكشفان كل سياسة تراجعيةفي مواجهة الامبريالية.

التخطيط الاستراتيجي

كل ما يمكن ان يقال عن الاستراتيجية يمكن ان يقال عن التخطيط لان الاخير هو ترجمة لاستراتيجية محددة ، يعني ان معالجة مجال تلك الاستراتيجية، فهو يتضمنها من ناحية، وهو يصوغ تفصيلات عمليةتحويلها الى تطبيق عملي من ناحية ثانية . فاذا كان موضوع التخطيط يتناول الاستراتيجية الكلية فسيكون مجاله التخطيط الكلي العام لكل المجالات التي تتناولها الاستراتيجية الكلية . واذا كان التخطيط يتناول الاستراتيجية العسكرية فسيكون هدفه التخطيط للمهمة الموكولة للاستراتيجيةالعسكرية، اي وضع القوات المسلحة في اقصى وضع ملائم متفوق على العدو قبل بدء العمليات ، فهو يتناول مسألة «كيف يتم ذلك» ؟ وكلمة «كيف» تعني الدخول بالتفصيلات اي وضع برنامج العمل . فمثلا لو كان الهدف مواجهة القوة المعادية (س) فهو سيبحث كم يلزم من القوات التي يجب توفيرها وكذلك السلاح ومستوى التدريب كما يبحث وسائل تأمينها والمدة ــ الوقت اللازم ــ الخ . ولكن اذ يعين التخطيط العسكري العام الحاجات الواجب توفرها وكيفية توفيرها بالنسبة للحرب ككل يعود ليوزع تلك الحاجات على كل سلاح او فرقة من اجل ان يقوم ذلك السلاح او تلك الفرقة مثلا، بعملية تخطيط جزئية تكتيكية لتحقيق ما هو مطلوب وهكذا . واذا كان التخطيط يتناول استراتيجية العمليات فسيعين التحركات العامة والتوزيعات العامة للقوات الخ . ولكن تحرك كل فرقة او سلاح لتحقيق

المهمة التي وضعها مخطط العمليات ، يتم بوضع تخطيط جزئي تكتيكي يتعلق في المجال المنوط به وهكذا حتى نصل الى عملية احتلال مخفر .

يتضح مما تقدم ان عملية التخطيط تحتاج الى معرفة تخصصية عالية، ومقدرة عالية ، الى جانب ضرورة توفر معلومات ، ومنهج علمي .

يتناول التخطيط في المرحلة التحضيرية بالنسبة لدولة من الدول مثلا:

١ ــ صياغة سياسة الحرب حيث تقرر الخطوط الاساسية للسياسة العسكرية والحرب النفسية ، والعمل السياسي، والجانب الاقتصادي والتنظيمي، كما تتضمن تشكيل التحالفات والتحركات الدبلوماسيةالخ.

٢ ــ المرحلة التحضيرية :

أ ــ المعلومات الاستراتيجية وتقييم الاخطار العسكرية والاهداف العسكرية .

ب ــ اعادة تنظيم القوات المسلحة لتكون في مستوى الحرب المحددة .

ج ــ الاستعداد للحرب اسلحة ، تدريب ، لوجستيكا .

د ــ التنسيق والتدريب المشترك بين مختلف الاسلحة .

٣ ــ مرحلة التحرك :

أ ــ التعبئة .

ب ــ تحديد وتوزيع المصادر المادية .

ج ــ التوزيع الاولي للقوات .

هذه صورة للتخطيط على الطريقة البريطانية كما وصفها باليت .

ولكن التخطيط الاستراتيجي لا يعني بالضرورة اتباع تلك الخطوات بكل حالة . ولهذا يحسن ان نعرض هنا اهم العناصر التي يجب توفرها في كل تخطيط جيـد .

١ ـ المرونة في الخطة ، والقوى الاحتياطية الاستراتيجية :

كتب فردريك انجلز حول الخطط الاستراتيجية : «يجب التذكر ، في الوقت نفسه ، ان هذه الخطط الاستراتيجية لا يمكن الاعتماد عليها كليا فيما يمكن ان يتولد عنها ، اذ ستوجد ، دائما ، ثغرة هنا وثغرة هناك ، فالفيالق قد لا تصل في الوقت المناسب عندما تستدعى ، وقد يقوم العدو بحركات غير متوقعة ، او قد يأخذ احتياطات غير متوقعة ... »

هذا يعني ان تؤخذ مجموعة كبيرة من العوامل في الحسبان عند وضع الخطة، وترك الخطة مرنة تطبق حسب تطور الظروف . وتعزز مرونة الخطة عن طريق القوى الاحتياطية الاستراتيجية .

٢ ـ بُعد النظر والديناميكية :

لا بد من ان تتضمن كل خطة نقاطا للتنفيذ مباشرة ، واخرى كخطوة تالية بعد نجاح تنفيذ النقاط الاولى ، ولا بد من ان يتوفر في التخطيط عنصر الديناميكية في الانتقال من خطط قصيرة المدى الى خطط بعيدة المدى، وباسرع ما يمكن عند توفر الفرصة . وهذا يقتضي توفر بُعد النظر ، وكما يقول ماوتسي تونغ ان اسلوب التخطيط لخطوة واحدة فقط، في كل مرة، هو اسلوب خاطيء ومضر اذ ان بعد كل خطوة من الضروري تفحص التغييرات القائمة والمحتملة .

٣ ـ استمرار التخطيط والتنفيذ :

ان عملية معرفة وضع لا تكون ، فقط ، قبل صياغة الخطة العسكرية

وانما ايضا بعد ذلك ، كما يقول ماوتسي تونغ ، اي في اثناء تنفيذ الخطة من اول لحظة حتى نهاية العملية ، لان هنالك عملية اخرى لمعرفة الوضع ، خاصة ، عملية التطبيق . وهنا يجب ان يلاحظ ان كانت الخطة تتجاوب مع الواقع المعطى ، وهذا يقود لتغيير مستمر كلي، او جزئي ، في الخطة لتتجاوب مع الوضع : «ان الخطة تعدل جزئيا في كل عملية تقريبا واحيانا تغير كلها ، اما الشخص الذي يفتقر للمرونة ولا يعدل بخطته فيضرب راسه بالحائط» . وينطبق هذا على الخطة الاستراتيجية والى اصغر خطة ـ ماوتسي تونغ .

٤ ـ الخطة والامكانات المتوفرة :

يجب ان تصمم الخطة على محور الامكانات المتوفـرة ، او التي يمكن توفيرها فعلا ، وعلى اساس الوضع ككل وتوازن القوى واستراتيجيـة وتكتيك العدو ، اذ لا قيمة لخطة توضع تجريديا من قبل مخططين في جعبتهم «خطط حاضرة» . ان الخطة تعالج وضعا ملموسا ، ولا بد من ان تعبر بخطوطها العريضة وتفصيلاتها عن الوضع الملموس .

٥ ـ الخطة وحساب الاحتمالات :

لا بد للخطة من ان تأخذ باعتبارها ردود فعل العدو من خلال تقدير احتمالات فعله ، وردود فعله ، ووضع المضادات سلفا بقدر الامكان .

٦ ـ تماسك الخطة :

اذا كانت المرونة ضرورة لكل خطة عسكرية فلا بد من ان يتوفر ، في الوقت نفسه ، عنصر التماسك في الخطة . فالمرونة لا تعني الهلامية والتفكك ، كما ان التماسك لا يعني التحجر والتجمد . ان التماسك في الخطة يجعلها قادرة على مواجهة الانتكاسات الجزئية ، كما يؤمن لها سرعة التنفيذ ومنطقيته .

٧ ـ التفكير المنهاجي :

اذا كانت الخطة تعمل ضمن وضع ملموس ، فان وضعها ، وحل مسائلها القائمة، والتي يمكن ان تنشأ، بحاجة الى تفكير علمي منهاجي يقود التخطيط والتنفيـذ .

٨ ـ حرية الحركة :

القصد الرئيسي من التخطيط الاستراتيجي هو المحافظة على حرية الحركة ، والسعي لحرمان خطة العدو منها . لان كل من الطرفين سيحاول انجاح خطته وافشال خطة الاخر . ولهذا لا بد من تأمين الاساليب التي تكفل حرية الحركة لتنفيذ الخطة . وهذا يقتضي التخطيط لكسب المناورة الخارجية قبل بدء العمل العسكري .

٩ ـ رؤية اتجاه التطور العلمي :

ان التخطيط على مستوى الدول ، في العصر الراهن ، عصر التغيير السريع في العلوم والتكنيك يتطلب رؤية اتجاهات التطور على المـدى المنظور، لتجنب تخصيص مبالغ ضخمة على سلاح، مثلا ، قد يصبح ملغيا بعد فترة وجيزة . لذا يجب ان توضع خطة التسلح والنظام الدفاعي ضمن حركة التطور السريع نفسه واحتمالاته .

خلاصة عامة حول الاستراتيجية

يلاحظ من الدراسة السابقة ان الاستراتيجية هي العملية التي تمتد من الهدف الذي يراد تحقيقه، الى تحقيقه، مرورا بالتطبيق ككل ، تاركة للتكتيك عملية المعالجة الجزئية في التطبيق ، ولكنها تحدد للتكتيك نظريته وتقوده ككل ، كما تتلقى فعله الراجع .

ان الحديث عن الاستراتيجية يتطلب :

ا ـ تحديد **الهدف** الذي تعمل لتحقيقه ، **والمجال** الذي تعمل ضمنه .

ب ـ تعريف الاستراتيجية في ذلك المجال وتحديد سماتها وقوانينها.

وعندما نتحدث عن الاستراتيجية العسكرية فهذا يتطلب تحديد اية استراتيجية عسكرية نعني . وحتى حين نتحدث مثلا عن استراتيجيـة حرب الشعب طويلة الامد ، او استراتيجية ما لحرب نظامية !! علينا ان نحدد السمات الخاصة لتلك الاستراتيجية في الوضع المعطى .

ان وضع اية استراتيجية عسكرية يتطلب :

١ ـ تقييم وضع الحرب المعطاة :

ا ـ تقييم المصادر المادية والمعنوية المتوفرة .

ب ـ تقييم القوات العسكرية المتوفرة ماديا وبشريا ومعنويا وتنظيميا.

ج ـ تقييم نظيراتها لدى العدو .

د ـ مراعاة المكان والزمان .

هـ ـ امكانات المناورة والحركة لدى كل طرف وكيفية معالجتها .

٢ ـ ينتج عن تقييم الوضع :

ا ـ تحديد الخطوط العريضة للاستراتيجية الانسب ضمن وضـع الحرب المعطاة : (المفاهيم الاستراتيجية ، والقوانين الاساسيـة لتلك الاستراتيجية) .

ب ـ تحديد نظرية التكتيك الانسب وكذلك العمليات .

ج ـ تحديد نظرية التنظيم .

د ـ تحديد اساليب امتلاك حرية الحركة .

هـ ـ تحديد نسبة اهمية مختلف المجالات الاخرى على الوضع ، مثلا العمل السياسي ، المؤخرة ، الرأي العام المحلي والعالمي، وفي جبهة العدو .

و ـ تحديد الاساليب والاجراءات الكفيلة بتأمين التفوق الكافي على العدو ، وهنا يدخل عدد القوات المطلوبة ، الاسلحة ، التدريب الخ او تحديد اساليب تأمين هذا التفوق مستقبلا في حالة البدء من نواة صغيرة .

٣ ـ وضع خطة استراتيجية عامة بناء على التقييم اعلاه ووضع خطط ادنى لكل بند في التقييم اعلاه .

اذا كان كل ما تقدم على غاية كبرى من الاهمية فهنالك جانب اخر لا يقل اهمية ، بل انه في كثير من الاحيان يحظى بالدرجة الاولى من الاهمية، الا وهو التنفيذ المباشر . اذ بدون قيادات تنفيذية كفوءة وكوادر تكتيكيين كفؤين ، فمن الصعب الحديث عن انجاح اية استراتيجية واي تخطيط ، او كسب اية حرب حتى ولو توفر عنصر التفوق المادي والتكتيكي على العدو . ان مقدرة الكوادر القائدة وموهبتها تعتمدان على الوضع الاجتماعي ، وعلى مدى مقدرة القيادة العليا على اجتذاب افضل عناصر الشعب الى صفوفها وتبني اهدافها .

ان التقييم الاستراتيجي يجب الا يقتصر على القوات العسكرية والاسلحة المتوفرة في اللحظة المعطاة فقط ، لان هذه لا تستطيع ان تحقق النصر الا في حرب سريعة، ولكن في حرب طويلة الامد مثل الحرب الاهلية الامريكية او الحربين العالميتين الاولى والثانية او حروب التحرير ، فعلى التقييم الاستراتيجي ان يركز على ما يمكن توفيره مستقبلا ، ولهذا لا بد من :

أ ـ ان تراعى في حالة الحرب التقليدية بين دول من الطراز الامبريالي ، مسألة الوضع السياسي والاقتصادي والمدني في كل من الدول

المتحاربة ، وهذه مسألة ابدع كلاوسيفتز بالاشارة اليها . ان عدم ادراك هذه النظرية ادى بالجنرالات الالمان في حربين عالميتين الى الخطأ في التقييم الاستراتيجي لمدى امكانات خصومهم على اطالة الحرب وعلى اعادة احراز التفوق العسكري ، اذ اقتصرت حساباتهم على القوات العسكرية والاسلحة ، وبنوا كل آمالهم على حرب سريعة. انهم اخذوا من كلاوسيفتز نظرية الحرب المطلقة وعسكرة البلاد الخ . ولكنهم لم يفهموا كل ابعاد نظريته . خاصة ، فيما يتعلق بعلاقة الوضع العسكري للامة بوضعها الاقتصادي والمدني ، انهم لم يفهموا فكرته القائلة كما تكون في المدينة ايام السلم تكون في ساحة المعركة . وقد دفعوا الثمن حين فشل الهجوم في تحقيق نصر نهائي سريع ، واستقر القتال على جبهة طويلة ، فلم يستطيعوا التعويض بقوة اقتصادهم وتكنيكهم ، بينما تمكن التقدم الصناعي والمدني لخصومهم من تحمل امداد مثل تلك الجبهة ولمدى طويل . ويكفي للتدليل على صحة هذه النظرية ان نعرف ان عدد القوات العسكرية للولايات المتحدة كان عام ١٩٤٠ اربعمائة الف رجل بينما وصل الرقم الى ثمانية ملايين عام ١٩٤٥ كما ثبت ان ضخامة الانتاج الامريكي امن زخما لا حدود له في انتاج الاسلحة والذخائر واللوجستيكا والنقل والادارة الخ .

ب ـ ان تراعى ، في حالة الحرب الثورية يخوضها جيش شعب صغير ضد عدو متفوق ماديا وتكنيكيا ، مسألة اهمية التنظيم الثوري ، والعمل السياسي ، والقضية العادلة، وتفجير ذكاء الشعب وحماسته، وصحة الاستراتيجية والتكتيك ، في كسب الحرب طويلة الامد ، في نهاية المطاف ، ضد ذلك العدو. وقد وضع لينين اساسات هذه النظرية . واصبحت نظرية كاملة متماسكة ، على يد ماوتسي تونغ، وعبر التجربة الفياتنامية ، وعدد من تجارب حركات التحرر الوطني .

الى هنا نكون قد تناولنا جانبا من جوانب علم الحرب وما زال امامنا فصلان رئيسيان احدهما يتناول قواعد علم الحرب والثاني يتناول التكتيك.

- ٣ -

القواعد الاساسية في علم الحرب

تمهيـد :

لكي تشتبك القوات المتحاربة لا بد من جلبها الى نطاق تصبح فيـه بمتناول بعضها بعضا . ومن الطبيعي ان **يحاول كل طرف المحافظة على قواته وسحق قوات الطرف الاخر** ، وهذا جوهر كل مبدا عسكري ، وهو يقضي بتأمين التفوق على العدو ، وهذا التفوق قد يتخذ اشكالا عديدة ، مثلا، وضع القوات في مواقع اقوى مستفيدا من الارض ، او امتلاك حرية الحركة ، او استخدام المفاجاة او التركيز الخ ، ويقضـي ايضا بتجنب المعركة التي يكون العدو فيها متفوقا . ان هذه العمليات اساسا هي جماع المناورة وتوزيع القوات وهي تعرف باسم «العمليات» التي يجب ان تراعي دائما مسرح القتال ، وحجم القوات المستخدمة ، واسلحتها ونيرانهـا وتعاون مختلف الاسلحة وحركتها ونسبة قوتهـا ـ العدد ، السلاح ، التوزيع الخ ـ الى مساحة الجبهة ، وكذلك نظيراتها لدى العدو .

كانت الحرب قبل نهاية القرن الثامن عشر بسيطة لا تخرج عما تعلمه الضباط والجنود في فترة التدريب ، اذ لم يكن مطلوبا من الضباط الذين يحتلون مرتبة ادنى من القائد العام اية مهمات قيادية مستقلة تتجاوز ما تعلموه : أخذ مواقعهم في المعركة ، ثم التقدم بكتل ضخمة، والاشتباك مع العدو المباشر . لقـد كانت العمليات والاشتباك مرحلتين متمايزتين مستقلتين . لان الجيوش كانت تتحرك من نقطة محددة الى نقطة المعركة على شكل كتلة واحدة متراصة . وقد تركز فن قيادة الحرب على عملية

الاشتباك بالذات اي تكتيك المعركة . ولكن ، مرة اخرى ، لا بد لنا هنا من التشديد على استثناء حروب العرب المسلمين في القرنين السابع والثامن.

اخذت استراتيجية العمليات في زمن المصريين واليونـــان والفرس والرومان معنى اكثر اهمية من عصر الاقطاع ، والعصر الذي سبق الثورة الامريكية والثورة الفرنسية ، وكذلك تكتيك المعركة نفسها . اذ كانت الاستراتيجية في تلك الحروب تستهدف سحق الجيش المقابل في المعركة وتجريده من السلاح وضم بلاده الى السيطرة المباشرة للجيش المنتصر . وكثيرا ما اخذت استراتيجية المناورة قبل الاشتباك دراسة وتخطيطـــا للطرقات ، واتباع الطريق الذي يضع القوات في وضع افضل ، وان كانت في النهاية تأخذ شكل تقابل الجيشين لبدء الالتحام .

ادى تطور البندقية والمدفع ، وتحسن الطرقات ، وتطور وسائط النقل، وكبر حجم الجيوش وتحسين تنظيمها الى ولادة مفاهيم اكثر تعقيدا حول العمليات والتكتيك ، مثلا : ضرورة الاحتياط وتشغيله ، والزحـف غير المنظور والمناورة قبل المعركة لاخذ المواقع الانسب الخ ، وقد ادى هذا الى زيادة مسؤولية الضباط ولكن ظلت المسؤولية ، اساسا ، بيد القائد العام، واقتصرت مبادرة الضباط الادنى على تطبيق الامر التكتيكي المباشر بعد بدء الاشتباك ، اي في المرحلة التدميرية من الحرب ــ كما قد ذكرنا الاسباب التي جعلت المائة سنة السابقة لنابليون لا تجد من يجسد سمات التطورات الجديدة في المجال العسكري .

عندما جاء نابليون كانت بين يديه حصيلة تجربة الثورة الامريكية ، والثورة الفرنسية، وحصيلة تجربة تورين ، وفردريك الكبير ، ومارلبورو، وغوستاف ادولف ، فضلا عن وجود الجيش الجماهيري ، واحـــدث تطورات التكتيك ، وتطور العلوم، واطلاق القوى الانتاجية الجديدة . ولهذا كان يمثل نقطة الطفرة لاحداث تغيير نوعي في قيادة العمليات والتكتيك، فأرسى قواعد «التكتيك الكبير» على اساس الجمع بين نظـام التشكيلات الموزعة المرنة السريعة للعمليات وبين التركيز المطلوب للمعركة ، بينما ظل اعداءه يتحركون بكتل جامدة وتشكيلات الخطوط اي ظلوا يناورون مركزين.

عمد نابليون الى تقسيم جيشه الى جيوش ، او فرق ، لتقوم بالحركات

والمناورة ككتل مستقلة تتقدم الى نقطة المعركة من اتجاهات مختلفة ، اي مهد الطريق للجمع بين القيادة المركزية والقيادة اللامركزية في تنفيـــذ العمليات والتكتيك ، وبهذا اصبحت مسألة التخطيط لعمليات كل فرقة من مهمة قيادات ادنى من القيادة العامة . واصبح مصير المعركة متوقفا على مبادراتهم وقراراتهم . لذلك نشأت الضرورة لوضع قواعد العمليات او القوانين الاساسية لفن علم الحرب من اجل ارشاد القادة . وجعلهـــا دليلا للعمل .

ادت نجاحات نابليون وبراعة تكتيكه الكبير الى جعل حروبه النموذج للدراسات النظرية التي حاولت اشتقاق المبادىء الاساسية لفن علـــم الحرب . وعلى الرغم من ان التطورات التي حدثت في القرنين التاسع عشر والعشرين ادت الى احداث تغييرات اساسية في استراتيجية العمليـات والتكتيك ، بالنسبة لاستراتيجية العمليات والتكتيك في العهد النابليوني الا ان المبادىء الاساسية التي اشتقت من حروب نابليون ظلت في جوهرها هي المبادىء العامة للحروب الحديثة .

حاول كلاوسيفتز وجوميني استخلاص الدروس الاساسية او القواعد الاساسية لفن الحرب من دراسة حروب نابليون والحروب السابقة . ثم حاول مولتكي البروسي، ودودج الامريكي، ولوال الفرنسي تلخيص جوميني وكلاوسيفتز، وكذلك فعل فوش وليدل هارت وفوللر ، وسائر هيئات اركان الجيوش الحديثة . وقد ظلت تلك القواعد . في الجوهر ، تدور في فلك كلاوسيفتز وجوميني ، مضافا اليها التجربة العسكرية التقليدية لكل بلد .

ثمة شيء مشترك بين غالبية الذين تناولوا تحديد وشرح القواعـــد الاساسية لفن علم الحرب يتلخص في النقطتين التاليتين :

أ ــ لا بد لكل من يقود حربا او عملية او معركة ان يمتلك حصيلة نظرية حول الحرب : تكتيكها ، طبيعتها ، قواعدها الاساسية .

ب ــ لما كانت كل حالة حرب ابتداء من الحرب ككل، ومرورا بالعمليات، وانتهاء بالتكتيك ، وسواء في عملية التخطيط او التنفيذ ، تحمل فرادتها الخاصة، فسيبقى ثقل اساسي للفكر المبدع والمبـادرة

الذاتية .. وبكلمة اخرى ، ان تطبيق تلك القواعد يجب ان يكون **مرنا خلاقا** . وان دراسة تلك القواعد يجب ان تخدم كدليل للعمل، واحيانا لا بد من الخروج على بعضها .

القواعد الاساسية في فن علم الحرب

اختصارا للبحث ، فانني سأتعرض لعشرة مبادىء اساسية تدور في فلكها كل «تعليمات الخدمة الميدانية» في كل الجيوش ، وكذلك كتابات المنظرين العسكريين ، وان كان من الصعب ايجادها كلها مجتمعة في كراسة واحدة ، لان البعض ركز على اربعة قواعد منها ، واعتبر الاخرى تحصيل حاصل ، او جمعا بين اثنتين او ثلاثة من تلك القواعد ، والبعض جمع ستة ، وآخرون ثمانية، ولكن هذا لا يعني ان هنالك من ينكر ايا من القواعد العشرة الموضوعة هنا حتى ولو لم يذكر بعضها مباشرة . اذ سيظل هنالك تركيز على بعضها اكثر من بعضها الاخر نظرا للوضع الخاص والتقليد القتالي لكل جيش ، ولكن يجب ان يلاحظ لدى مراجعة هذه القواعد ان من غير الضروري تواجدها كلها في وقت واحد في كل حرب ومعركة وعملية . بل ان بعضها قد يتناقض في ظروف معينة مع بعضها الاخر . لذلك على كل قيادة ، وفي كل حالة ، ان تقيم التوازن الصحيح بين هذه القواعد في التطبيق حسب الوضع المعطى بحيث يركز على بعضها، ويوضع بعضها في المقام الثاني ، او يتجاهل بعضها كليا .

والان لنراجع هذه القواعد :

١ ــ تركيز القوات (التحشيد)

يقضي هذا القانون بضرورة توفير اكبر قوة ممكنة متفوقة على قوة العدو من اجل تحقيق الانتصار عليه .

كان نابليون اول من تحدث عن هذا القانون بقوله : « ان كل فن الحرب يمكن تلخيصه بمبدأ واحد ، وهو ان تجمع في جبهة واحدة قوة اكبر من قوة عدوك» . وقد فسر جوميني هذا المبدأ على اساس ضرورة « جلب غالبية الجيش ، باجراءات استراتيجية تباعا ، لاخذ دورها في المناطق الحاسمة في مسرح الحرب » . ان المناورة هنا تستهدف تأمين التركيز

بحيث تجعل « قواتك الرئيسية ضد اجزاء فقط من قوات العدو »، اما في المعركة نفسها فتقوم من خلال مناورات تكتيكية « بوضع قواتك الرئيسية في المنطقة الحاسمة من ارض المعركة ، او ضد ذلك الجزء من قوات العدو التي من الضروري التغلب عليها » . اما كلاوسيفتز فقد سمى هذا المبدأ تحت اسم « تركيز الجهد » على ان يكون هذا التركيز ضد القوة الرئيسية للعدو ، وتحقيق النصر في المعركة في مسرح العمليات الرئيسي .

ان تركيز القوات يفترض جعل اقصى الامكانات متوفرة رهن الاشارة، ولكنه لا يعني، بالضرورة ، اشراكها كلها في عملية الاشتباك . اذ ان الجوهر في هذا المبدأ هو حشد اقصى قوة لتحقيق الهدف المحدد **كأجراء اولي** في التخطيط للعملية ، اما القوات التي ستشترك فعليا في الاشتباك فهي مغطاة بالقوانين الاخرى وليس بمبدأ التركيز فقط . لانك اذا اشركت كل القوات المتوفرة والمخصصة للمعركة ، منذ اول لحظة ، فسينتج عن ذلك افتقادك للمرونة في التنفيذ ، وذلك لانه سيصعب عليك ، اذا القيت كل قواتك دفعة واحدة ، مواجهة اي تغيير مفاجيء في الوضع يتطلب تعديلا في الخطة ، او نقلا للقوات من جهة الى اخرى الخ.

اذا كانت الحرب لا تتم بصورة تكرر نفسها ، او على الاصح ، اذا كانت كل حالة حرب تختلف عن الاخرى ، واذا كانت كل حالة تتضمن عددا من الخيارات في اساليب التنفيذ ، كما تتضمن ، عادة ، عددا من المفاجآت والتغييرات في الوضع ، وكل هذه تتطلب تخصيص اجزاء من القوات المحدودة المتوفرة ، فهذا يقضي ان يأخذ التركيز صفة عامة اولا ، ثم يأخذ ضمن ذلك صفات اكثر خصوصية لمواجهة الحالات التي حددت للتركيز . ولكن القائد ساعة التنفيذ لن يكون بمقدوره فرض نصر في اية نقطة يشاء، وهذه هي الخطورة التي يحذر منها مبدأ التركيز الذي يؤكد ضرورة اختيار الاسلوب الحاسم من بين عدد من الاحتمالات، ومن ثم تركيز القوات لمعالجة تلك الحالة ، وبالتالي يضمن ان ينفذ بأقصى تفوق على العدو في المعركة ، وبكلمة ، ان قوة اقل عددا حين تركز، بصورة صحيحة، تستطيع ان تهزم قوة متفوقة .

ان مبدأ التركيز عام لا يخالف فيه اثنان لانه يعني في جوهره استخدام قوة كبيرة لانزال الهزيمة بقوة اصغر منها . ولكن المعضلة هي مسألة

التطبيق اي **كيفية تطبيق** هذا المبدا في كل حالة، خاصة في حالات التوازن الاستراتيجي بين القوات المتحاربة او اذا كان العدو متفوقا استراتيجيا .

يمكن رؤية هذا المبدا في كل اشكال الحروب القديمة والحديثة ، وابتداء من حرب غوار، الى حرب ثورية، الى حرب تقليدية بين دولتين، الى حرب نووية . لان الجوهر في اية عملية اشتباك، سواء كانت احتلال مخفر او نصب كمين لدورية، او معركة كبيرة، او جبهة واسعة، هو ان تنازل عدوك بقوات متفوقة على قواته . فالتركيز هنا قد يكون عدديا ، او في كثافة النيران . او في حسن توزيع القوات واستخدام الاحتياط الخ ..

ولكن مبدأ التركيز يعمل في كل حرب وفي كل معركة بطريقة تختلف عن الاخرى تبعا لاختلاف ظروف كل حرب وكل معركة . انه يعمل بقوة حتى في حرب الغوار التي تفتقر الى التركيز الاستراتيجي، وتتبنى تشكيلة المجموعات الصغيرة المتفرقة، كثيرة التحرك ، حيث يتم تحقيق النصر في معاركها من خلال التركيز على نقطة يمكن تامين تفوق على العدو فيها . ان الفرق الاساسي في تطبيق هذا المبدأ في حرب غوار او في حرب بين جيشين نظاميين ، ان الاولى تطبقه تكتيكيا على نقاط معزولة بينما لا تلجأ الى التركيز استراتيجيا، بينما يطبق في الحالة الثانية استراتيجيا وتكتيكيا، طبعا هنالك حالات اخرى مختلفة في تطبيقه ، مثلا حالة الحرب المتحركة الثورية في ظروف يمتلك فيها العدو تفوقا استراتيجيا .

لقد شدد ماوتسي تونغ جدا على مبدا التركيز اذ عندما صاغ موضوعاته حول «الهجوم ضمن الدفاع» ، و«والتفوق ضمن تفوق العدو»، و« القوة ضمن الضعف » ، و« الوضع الملائم ضمن الوضع اللاملائم » و« المبادرة ضمن السلبية » ، كان يعالج مبدأ التركيز معالجة دياليكتيكية عبقرية ذات شقين : احباط تركيز العدو ، وتأمين التركيز لقوات أضعف . انه يقول « ان كسب النصر في الدفاع الاستراتيجي يعتمد اساسا على هذا الاجراء – تركيز القوات » . وكتب عام ١٩٢٨ « لقد دلت تجربتنا على اننا حين كنا نتوزع كنا نتلقى الهزائم دائما ، بينما حين كنا نركز قواتنا لنقاتل قوة اصغر او متفوقة قليلا غالبا ما أمن الانتصار » . وقد اشتق من هذا المبدا عدة قوانين :

ا – لا ينصح بالقتال حين تواجه قوة متفوقة .

ب – لا ينصح بالقتال حين تواجه قوة غير كبيرة ، ولكنها قريبة من قوات مؤازرة .

حـ – لا ينصح بالقتال حين تواجه قوة غير معزولة ومحصنة جيدا .

كما ان المبدا الغواري الذي يستهدف جعل العدو يبعثر قواته لكي يسهل التركيز التكتيكي ضده هو ايضا اشتقاق من مبدا التركيز من ناحية وخلق مضادات لمبدا التركيز عند العدو من ناحية ثانية ، ولكنها مضادات تعتمد على مبدا التركيز ايضا . وهو يستفيد في هذه المسألة من خلال جعل العدو في حيرة من امره بين التركيز وبين خسارة الارض ، او بين كسب الارض وفقدان التركيز . وهذه المعضلة احدى المقاتل الرئيسية للجيش الذي يواجه حرب غوار شعبية .

ان هذا المبدا يتراوح بين التركيز ضد الجسم الرئيسي لقوات العدو وبين التركيز على الاجنحة ، او على اجزاء من قوات العدو ، او على المسرح الرئيسي للحرب، او في مسارح ثانوية، او التركيز على اشد النقاط ضعفا. بل هنالك اشكال عديدة للتركيز : (ا) تركيز استراتيجي لهجوم مباشر ، (ب) تركيز استراتيجي غير مباشر (حـ) تركيز تكتيكي وتوزع استراتيجي (د) تركيز دفاعي – هجومي (هـ) التركيز في اللحظة الحاسمة باتجاه الضربة الرئيسية (لينين) الخ..

على ان من الضروري ملاحظة التغيير الذي طرا على عمل هذه القاعدة بالنسبة للجيوش النووية المعاصرة ، حيث اصبح خطر تعرض القوات المركزة للضربات النووية يفرض توزيع وبعثرة التشكيلات القتالية ، ولكن في المقابل فان استخدام السلاح النووي من جانب القوات المبعثرة يتطلب اعادة تركيزها وحشدها من اجل تنفيذ الضربة النووية . لقد اصبح القانون الذي يعمل في ظروف الحرب النووية شبيه بالقانون الذي يعمل في حرب الغوار اي بعثرتها عند التعرض لهجمات العدو ، وتجميعها وتركيزها عند القيام بعملية ضد العدو. ومن هنا فان القوات النظامية النووية شانها شأن قوات الغوار بحاجة الى امتلاك قدرة فائقة على سرعة التبعثر، وسرعة التركيز

ـ القانون : تبعثر ـتركيز ـ تبعثر ـ تركيز . او تركيز ـ تبعثر ـ تبعثر ـ تركيز
ـ تبعثر في حالة المباداة بالهجوم .

٢ ـ مبدأ الاقتصاد بالجهد

ويسمى « الاقتصاد بالقوات » او « القوات الضرورية » ، ويستهدف الحصول على افضل النتائج بأقل حد ممكن من الجهد والقوات . ان هذا المبدا يتناول مسألة توزيع القوات توزيعا حصيفا، ولهذا فهو مميز عن مبدأ تركيز القوات وينظر اليه ، احيانا كمناقض له بينما هو ، في الواقع ، مكمل له .

عندما تركز القوة لتحقيق هدف محدد فان جزءا منها يشتبك في كل مرحلة من مراحل العملية ، وهو الجزء الذي يعتبر كافيا بينما يبقى الباقي في حالة عدم اشتباك ، اي ان جوهر هذا المبدأ يختص بمسألة **الاحتياط ،** كما يختص بمسألة حسن توزيع القوات على نقاط عديدة ، خاصة ، في جبهة واسعة .

حين تضع خطة فمن النادر ان تكون ملما بمعلومات كاملة عن العدو لتحدد تقديراتك النهائية ، ولكن عليك ، مع ذلك ، اخذ قرار باتباع اسلوب معين في التنفيذ ، ولا بد من ان يبقى هنالك ، دائما ، مكان للشك وعدم التأكد من الوضع . لذلك فان دخولك المعركة يجب ان يحمل دائما توقعا لتطور غير متوقع . ومن هنا يعتبر الاقتصاد بالقوى مكملا في التخطيط والتنفيذ لمبدأ التركيز ـ اي حشد أقصى ما يمكن من القوات ـ ولكن ينبغي لهذا الحشد ان يوزع باقتصاد بحيث تشترك في الاشتباك نسبة تمثل الحد الادنى من القوات اللازمة بينما يظل الباقي في الاحتياط بيد القائد لاعطائه مرونة في التنفيذ اللاحق عندما تتضح اكثر كل جوانب الصورة .

يعتبر مبدأ التركيز في حالة الحروب التي تمتاز بتوازن استراتيجي او تفوق استراتيجي من جانبك مبدأ استراتيجيا اكثر منه تكتيكيا في حين يعتبر مبدأ الاقتصاد بالقوات ، في تلك الحالة ، تكتيكيا اكثر منه استراتيجيا ، في حين يعتبر مبدأ التركيز في الحروب التي يمتاز العدو فيها بتفوق استراتيجي مبدأ تكتيكيا بينما يعتبر مبدأ الاقتصاد بالقوات ،

في تلك الحالة ، مبدأ استراتيجيا اكثر منه تكتيكيا ـ ولكنه هام ايضا في التنفيذ الجزئي في هذه الحالة ايضا .

تظهر قيمة مبدأ الاقتصاد بالقوات ايضا ، بصورة أشد ، حين يكون اتساع الجبهة كبيرا جدا بالمقارنة مع حجم القوات ، او عندما يكون العدو متفوقا استراتيجيا ، او في حالات التوازن الاستراتيجي . ولكن ديناميكية عمل هذا المبدا تتوقف على نسبة توازن القوى كما تتوقف على نسبة القوى المتوفرة الى المساحة . ولهذا فهو شديد الاهمية، وان كان الاهتمام به يضعف لدىالقوى التي تمتلك ضخامة في القوات، وتستطيع انتؤمن زخما مستمرا في كل النقاط ، خاصة ، عندما تكون في حالة هجوم عام بعد ان انزلت بالعدو ضربة قاسية في احباط هجومه .

على ان من الضروري التذكر دائما ، ان مبدأ الاقتصاد بالجهد ، او قل، مبدأ التوزيع العقلاني المناسب للقوات هو حجر الرحى لامتلاك حرية الحركة، وتجنب حرق الجيش كله في تركيز احمق على خط مكثف ...!

لقد كان هذا المبدأ حجر الرحى في التطبيق العسكري البريطاني، وفي التوزيع الدفاعي السوفياتي ، وقد اصبح الان حجر الرحى في التطبيق العسكري الامريكي ، بل في كل الجيوش الحديثة . ان فكرته تنبع من عدم امكان توفر قوات كافية لتغطية كل النقاط بالقوة نفسها، وبالمستوى نفسه، خاصة ، عندما يكون مسرح الحرب يدور على نطاق عالمي او بلدان شاسعة جدا . وقد تولدت عنه الان فكرة تنظيم قوى ضاربة احتياطية متأهبة دائما للانتقال الى اية نقطة تتعرض للخطر ، او يقرر العمل في اتجاهها ، بدلا من حماية كل النقاط بقوة عالية . ولقد ساعد التطور الآلي ، خاصة ، النقل الجوي على اعطاء هذا المبدأ حياة جديدة ، اذ لم يعد من الحصافة تغطية كل النقاط بقوات كبيرة ـ على طريقة خط ماجينو ـ وانما وضع قوات محدودة ـ تشكل الحد الادنى المطلوب ـ في النقاط المختلفة مع ابقاء قوات ضاربة سريعة الحركة على اهبة الاستعداد للتحرك الى اية نقطة ، وبأسرع ما يمكن . ولقد دلت التجربة السوفياتية في الحرب العالمية الثانية ان من الضروري تكديس الاحتياطي الاستراتيجي وتجميعه بشكل دائم ، وكان لتطوير الاحتياطي الاستراتيجي وحشده في الاتجاهات الرئيسية مع الاقتصاد الشديد في النقاط الثانوية ، دور حاسم في امتلاك المبادرة

الاستراتيجية والنجاح في خوض العمليات الهجومية والدفاعية .

مرة اخرى ، ان مبدأ الاقتصاد بالقوات يعني عقلانية توزيعها وتركيزها في آن واحد ، وستبقى المشكلة هي مشكلة كيف يطبق ، بصورة خلاقة ، في كل حالة ..!

٣ ـ مبدأ الامن

عندما تحدث جوميني عن المناورة الاستراتيجية ونقلها الى الخطوط الداخلية في جبهة العدو لقطع طرق مواصلاته وامداداته وعزله ـ او مثلا ضرب مطاراته في العصر الراهن ! ـ اشترط ضرورة تأمين خطوطك الداخلية وتأمين خطوط تحرك مناورتك .

ان مبدأ الامن يفترض حماية النقاط الحيوية والضعيفة مثل القواعد وخطوط المواصلات والمطارات والاجنحة المكشوفة قبل الاشتباك، وذلك لئلا يؤدي اي تهديد مفاجيء لها بعد الاشتباك الى جعل وضعك في المعركة مزريا بشكل يتيح للعدو تحقيق نصر استراتيجي ضدك .

يجب الا يفهم مبدأ الامن بشكل جامد وحرفي لئلا يؤدي الى المبالغة في الحذر ، وبالتالي منع القائد من المغامرة او المخاطرة في المعركة . في الواقع، ان هذا المبدأ حاسم وضروري في مرحلة التخطيط بالدرجة الاولى من اجل ان يمهد للتنفيذ ، ويعطيه حرية حركة اكبر ، لان ازالة الاخطار المحتملة ، او تقليلها الى الحد الادنى يجعل القائد يتحرك بحرية اكبر في تنفيذ العملية . ولكن، اذا كانت المبالغة في الحذر تمنع القائد من المخاطرة، فان اهمال مبدأ الامن يترك الجيش تحت رحمة استراتيجية العدو ، ويجعل هزيمته سهلة مضمونة .

كان نابليون وهو من اكثر القادة جراة ومغامرة يقول : « انني احاول ان اكتشف كل الاخطار المحتملة لارى كل الصعاب » ... « ان العلم العسكري يتضمن ان تقيّم بكل دقة كل الاحتمالات الممكنة ، وبالتالي تزيل بالحساب عامل الصدفة » . ان ازالة عامل الصدفة هو شيء نسبي لان التحرك على

المضمون لا يوجد الا اذا كان خصمك غبيا شديد الغباء ، وهذا ما لا يجوز الركون اليه . ولكن عليك ان تقيّم كل الاحتمالات، وتتشدد في تطبيق مبدأ الامن في مرحلة التخطيط . ولكن في مرحلة التنفيذ يصبح التنفيذ في المقام الاول ، ويتراجع مبدأ الامن الى المقام الثاني دون اهماله كليا .

اذا اقترن مبدأ الامن بالخوف سواء في الهجوم، او الدفاع،او الملاحقة، او الزحف ، او الانسحاب ، فسيتحول الى امن سلبي ، اي انه سيجعل العدو يقرر حركتك وقراراتك ، ويكون موقفك هو الركض وراء الامن . لذا يجب ان يفهم مبدأ الامن ايجابيا بحيث يقوم على اساس الدفاع الايجابي والحركة الدائبة والدوريات المستمرة ، والاستطلاع الدائم ، واستخدام الاحتياط .

ان هذا المبدأ يعمل بطرق مختلفة حسب اختلاف الحروب وظروفها . فمثلا انه يعمل في حرب الفوار على اساس الحركة الدائمة ، والاستطلاع الدائم ، وتجنب مصائد العدو وتطويقاته . ويعمل في الحرب الثورية المتحركة على اساس التركيز ، والجبهة المتحركة ، ومعرفة اتجاهات تركيز العدو وتحركاته الخ. ويعمل في الاستراتيجية الذرية على شكل ضرورة تأمين الضربة الثانية عن طريق توزيع حصيف للقوة النووية واخفائها وتمويهها والرصد الراداري والاستخبارات الخ. اما في الحرب التقليدية فيرتكز على الحصافة في استخدام الاحتياط والاستطلاع الجوي والرادار وتوزيع المطارات وتحصينها وتمويهها وتأمين حماية ارضية وجوية ورادارية دائمة لها الخ. ولكن يجب اقامة توازن صحيح بينه وبين مبدأ التركيز لانهما كثيرا ما يتعارضان .

يلعب مبدأ الامن دورا هاما لانه يفتح الطريق للعمل الجريء اذ ان حساب الصعاب والمخاطر وازالة احتمالات عوامل الصدفة تؤدي الى امتلاك زمام المبادرة والسيطرة على المعركة ، خاصة اذا روعيت قواعد أمن الزمان، وأمن المكان ، وارتفع مستوى سرعة الحركة .

٤ ـ مبدأ الحركة

يشمل هذا المبدأ تأمين **حرية الحركة وسرعتها وسريتها وحمايتها**

ـ **امنها ـ وامتلاك** زمام المبادرة . وهو يشمل الحركة الاستراتيجية والحركة التكتيكية .

كان السر في كل استراتيجية وتكتيك نابليون يتركز اساسا في مبدأ الحركة اما المعركة الحاسمة ، فكانت قمة هذه الحركة لتحقيق الهدف . وعندما قسم قواته الى فرق واقام على كل منها قيادة ذات استقلال ذاتي ، وجعلها تتحرك باتجاهات مختلفة ، كان يرمي الى التحرك بسرعة متزايدة ومضاعفة قواته والتعويض عن نواقصها بسرعة الحركة والزحف .

ان الحركة في الحرب لا تقاس بسرعة حركتك الميكانيكية ، وانما تقاس بالمقارنة مع حركة العدو ، وهذا يعني ان الحركة في الحرب هي العمل بأسرع مما يعمل العدو . ان المقدرة على التحرك هي الجوهر لان التحرك في الحرب ليس مقيدا فقط بالمسافة والطرقات ووسائط النقل ، وانما ايضا بحركة العدو واجراءاته لمنع تحركك .. انها تعنى في حالة الوضع القتالي المتجمد امتلاك امكانية الحركة .

عندما حبذ جوميني التحرك بطابورين متوازيين ، او اكثر ، والعمل على الخطوط الداخلية استهدف الوصول الى نقطة الهدف ، بصورة اسرع ، من الزحف بكتلة واحدة عن طريق واحد . وهذا ينطبق على اللوجستيكا التي يجب الا تقل حركتها في الحرب الحديثة عن حركة القوات نفسها .

كثيرا ما اسيء فهم استراتيجية « الخطوط الداخلية » بحيث فهمت على اساس القيام بعمليات في منطقة معينة ، بينما تتعلق اساسا بتأمين المقدرة على تحريك القوات الى اية نقطة في جبهة القتال العريضة .

عندما كانت الحركة مرتبطة بسرعة سير المشاة على الاقدام كان من المنصوح به استراتيجيا قيادة العمليات من داخل جبهة محددة ضد عدو منتشر حول محيط منظور ، لان امكانية نقل القوات والاحتياط وتأمين اللوجستيكا تصبح اكبر ـ جوميني ، ولكن هذا المفهوم الجغرافي حول حركة الخطوط الداخلية اصبح معطلا جدا للمناورة مع تطور النقل الآلي السريع والطيران . لذا فقد اصبحت استراتيجية الخطوط الداخلية تعامل اليوم بصورة نسبية ، وضمن الغطاء الجوي والصاروخي . لان الخطوط الداخلية تحدد اليوم بمقاييس النقل الالي والبحري ، وقبل كل شيء النقل

الجوي . ولكن لا بد من التمييز هنا بين الحركة الاستراتيجية والتكتيكية، مثلا قوات المظلات ، او على الاصح القوات المحمولة بالهليوكابتر ، لها قوة حركة استراتيجية اكثر من قوة حركة تكتيكية ، بينما تمتلك المشاة في منطقة جبلية قوة حركة تكتيكية وليس استراتيجية ، في حين تمتلك القوة الالية المحمولة الارضية قوة حركة تكتيكية اكبر ، الى جانب درجة ما ، من قوة الحركة الاستراتيجية .

لذلك على القائد الاستراتيجي ، في تخطيطه للعمليات ، ان يحدد لكل سلاح سماته الخاصة لمواجهة متطلبات مبدأ الجركة ـ على حد تعبير باليت .

ان الحرب الحديثة جعلت القوات الالية الضخمة تتطلب دعما لوجستيكيا دائما . لذلك فان امكانات التحرك تعزز الى حد كبير في مرحلة التخطيط قبل توزيع القوات في ميدان المعركة. لذلك فان الجمع الصحيح بين الاجزاء المكملة لبعضها : التشكيلات التي يجب تبنيها ، وتوزيع المحمولات ، والنقل ، ووضع نقاط الاتصال وعلاماته ، وتنظيم غرفة العمليات كلها عوامل تخطيطية تزيد من مرونة التنفيذ ، وبالتالي الحركة ـ (باليت) .

لقد اصبح مبدأ الحركة في عصر الحركة الآلية فائقة السرعة لا يأخذ كالسابق صفة التحرك بأسرع من عدوك فحسب ، وانما ايضا ، صفة صراع مباشر بين الطرفين لعرقلة حركة الآخر، اي لم يعد عملية (سباق) فحسب، وانما ايضا عملية « عرقلة » ايضا ، ومنع العدو من الحركة ، خاصة ، وان مسألة الخطوط الداخلية اصبحت مكشوفة دائما للطيران ، ولهذا غدا وجود غطاء جوي ، في حروب الاسلحة التقليدية ، مسألة حاسمة بالنسبة لحركة القوات الالية على الارض كما في البحر . هذا فضلا عن تحول وسائط النقل الجوي الى المقام الاول في نقل القوات الارضية وفي عمليات اللوجستيكا .. لقد اصبح امتلاك حرية الحركة بالنسبة لقوة آلية يتوقف على السيطرة الجوية .

ان مبدأ الحركة كأي مبدأ آخر تحكمه قوانين مختلفة سواء من ناحية حركة كل سلاح او من ناحية نوع الحرب وطبيعتها وظروفها . ولكن يبقى

تأمين الحركة ـ حويتها سرعتها وامنها وقوة مناوراتهـــا الاستراتيجيـــة والتكتيكية ـ مسألة حاسمة في كل حرب .

كان ماوتسي تونغ قد طرح موضوعة هامة حول الحرب المتحركـة في الحرب الثورية : « لا توجد خطوط جبهة ثابتة ، ان خط الجبهـــة حيث يمكن الانتصار ، قاتل عندما تكون قادرا على الانتصار ، تحرك بعيدا عندما لا تكون قادرا على الانتصار . ان الحركة في خطوط الجبهة تعني الحركـة في كل شيء ، بما في ذلك طريقة بناء القواعد » ... « انه لمن الضروري صرف اكثر الوقت في الحركة ، لا في القتال ، ولكنها حركة من اجـــل القتال . ان الحرب المتحركة تشمل مسائل : الاستطلاع ، الحكم ، القرار، توزيع القوات ، القيادة ، الاختفاء ، التركيز ، الزحف ، التوزيع ، الهجوم، الملاحقة ، الهجوم المفاجيء ، هجوم على المواقع ، الدفاع عن المواقع ، اعمال مضادة ، انسحاب ، قتال ليلي ، عمليات خاصة ، تجنب القوي وضرب الضعيف ، محاصرة العدو لضرب تحصيناته ، هجمات تضليلية ، الدفاع ضد الطائرات ، العمل بين قوات العدو ، عمليات تخطي ، عمليات تنفيذ ، عمليات بدون مؤخرة ، الحاجة للراحة وتجميع النشاط والقوى » .

وكتب محمد شيخو في « حرب التحرير في البانيا » حول اهميـــة الحركة لقوات الغوار : « وتكمن المناورة في طريقة تحريك قواتنا لتوجيـه هجوم مفاجيء على العدو ، والمحافظة على زمام المبادرة بأيدينا ، وذلـــك بمهاجمته في الوقت والزمن والاسلوب الذي نريد » ... « دلت تجربتنا على ان تلك التشكيلات التي استخدمت المناورة كعنصر تكتيكي ذي اهميـة رئيسية قد احرزت عدة نجاحات ، بينما كان الحال مختلفا بالنسبة لتلـك التشكيلات التي اهملت استخدام المناورة اذ تجمدت واصبحت في الوقت نفسه هدفا سهلا للعدو وتكبدت خسائر كبيرة » .

ان الفرق بين حرب الغوار ، وبين الحرب النظامية بين جيشين ، فيما يتعلق بمبدأ الحركة، ان الجيش النظامي ، خاصة الحديث ، يسعى لامتلاك الحركة على مستوى استراتيجي ، اساسا، لان هذه هي الطريقة الوحيدة لتأمين حركته التكتيكية ، في حين تسعى حرب الغوار امتلاك حرية الحركة التكتيكية بينما تأخذ حركتها الاستراتيجية طابع الاختفاء والزوغـــان في احباط الحركة الاستراتيجية لجيش العدو .

تستهدف الحركة سواء كانت انسحابا، او زحفا، او توزعا، او تركيزا، جعل الوضع في الهجوم او الدفاع لمصلحتك او استعادته لمصلحتك .

ملحوظة : ان المبادىء الاربعة السابقة ـ التركيز ، والاقتصاد بالجهد ، والامن ، والحركة ، ـ تحتاج الى مهارة فائقة في اقامة التوازن الديالكتيكي بينها اي ان طريقة ، ونسب الاخذ ، بهذه المبادىء ، او القوانين ، ومراعاتها مسألة متحركة تحكمها الظروف المعطاة في كل حالة ، فمثلا يجب ابقـــاء القوة الرئيسية ـ حين تكون في الدفاع ـ غير مشتبكة في المراحل الاولى، لان اشراك العدد الاكبر من الاحتياط يجب ان يتم بعد ان تتضح اتجاهات المعركة، والاتجاه الرئيسي لخطة العدو. ولكن المناورة والحركة الضروريتان في المرحلة الاولى قد تتناقضان مع التركيز المطلوب في المرحلة الثانيـــة ، لذا فان احداث التوازن الصحيح بين هذه القوانين في كل مرحلة مـــن مراحل التخطيط والحركة والمعركة ، وفي داخل كل مرحلة، يشكل المعضلة الاساسية بالنسبة للقائد . اما ايجاد الحل الصحيح لتلك المعادلة في كـــل حالة فهو ما يميز القائد العسكري الناجح عن القائد الفاشل .

ان التركيز في منطقة في البداية يجعل اعادة التوزيـــع واحـــداث التغييرات ـ امتلاك حرية الحركة ـ عملية متأخرة جـدا في حالـة نشوء وضع جديد بعد الضربة الاولى او الاختراق ، او قطع طرق المواصلات ، او ضرب المطارات. ومن هنا فان درجة توزيع القوات وتركيزها وتعيين الوقت المناسب لاحداث التغييرات الضرورية ، وتغيير نسب اهمية كل مبدأ مـــن تلك المبادىء هو ما يسمى ديناميكية عمل المبادىء الاربعة ، تلك المبـــادىء المترابطة والمؤثرة على بعضها البعض ، فمثلا من الصعب مراعاة مبدأ الحركة اذا لم يراع مبدأ الامن ، كما من الصعب مراعاة الامن اذا لم يمتلك مبـــدأ الحركة ، وكذلك الحال بالنسبة للتركيز والاقتصاد ... هنا امامنا عناصر متناقضة متشابكة متداخلة مترابطة ضمن وحدة ، ولا بد من حل معادلتها كل مرة حلا صحيحا حسب الظروف المعطاة في كل حالة ومرحلة .

٥ ـ مبدأ الهجوم

ما من مبدأ أسيء فهمه مثل مبدأ الهجوم ، وما من مبدأ عبد كما عبـــد

مبدأ الهجوم في الحرب . ولهذا لا بد من دراسة هذا المبدأ دراسة متأنية هادئة .

ثمة شكلان اساسيان للحرب : الهجوم والدفاع .

عندما قارن كلاوسيفتز بين الهجوم والدفاع قال ان الدفاع لا بد من ان يكون هو « الشكل الاقوى في الحرب » ، والدليل على ذلك ان الجانب الاضعف يلجأ اليه دائما من اجل التعويض عن تفوق الاقوى عليه ، لذلك فالدفاع ، منطقيا ، يتضمن الشكل الاقوى للحرب .

اذا كان كلاوسيفتز صاحب الاستراتيجية المباشرة يقول هذا الكلام فجدير بعبدة الهجوم التقاط انفاسهم قليلا ، والتفكر بعض الشيء . ولكن كلاوسيفتز يسلط النار على الجانب السلبي في الدفاع ، رغم انه الشكل الاقوى ، لان الهجوم يحمل جانبا ايجابيا يفتقر له الدفاع ، رغم ان الهجوم هو الشكل الاضعف ـ لاحظ الديالكتيك في تفكير كلاوسيفتز ـ ولهذا طالب ان يضع الدفاع نصب عينيه الانتقال الى الهجوم لان « التحول السريع الزخم الى الهجوم » هو ، برأي كلاوسيفتز ، « اعظم نقطة عبقرية في الدفاع » . ويقول ان الامتحان الحقيقي لعبقرية القيادة تكمن في اكتشاف « نقطة التحول الكيفي » ـ الطفرة ـ التي تنقلب فيها كفتا الميزان ، اي بعد ان يتصدع الهجوم امام الدفاع ، وهنا يجب ان يشن الهجوم المضاد السريع .

على ان من الممكن هنا ان يضاف ـ على طريقة كلاوسيفتز ـ ان الهجوم هو العنصر الحاسم في القتال ، او قل عنصر النصر ، بدليل ان الاقوى يلجأ اليه من اجل سحق الاضعف وتحقيق النصر . ومن هنا يجب فهم جوهر مبدأ الهجوم الذي يقف على راس قواعد الحرب في كل التعليمات الميدانية في كل الجيوش ، لان الدفاع يستطيع ان يصد هجوما ويستطيع ان يصدع هجوم العدو، ولكنه لا يكسب حربا الا اذا تحول الى هجوم مضاد في اللحظة المناسبة .

ان نابليون الذي اشتهر بعملياته الهجومية حتى عندما كان في حالة الدفاع كتب يقول : **« ان كل فن الحرب يتضمنه الدفاع المفكر به جيدا ، والمحسوب من كل جوانبه ، يتبعه هجوم سريع مقدام »** .

ان الموقف الخاطىء في عبادة الهجوم في كل الحالات ، وبغض النظر عن امكانات الدفاع انعكس في لوحة تعليمات الميدان الفرنسية لعام ١٩٢١ اذ اعتبرت اخذ موقف الهجوم هو القانون المطلق رغم الدروس القاسية التي تلقتها مثل هذه العقلية في الحرب العالمية الاولى . وكان المارشال الفرنسي فوش قد اعتبر ان على القائد ان يأخذ موقف الهجوم مهما يكن الوضع التكتيكي او الاستراتيجي. وقد وقع بمثل هذا الخطأ كثير من الماركسيين وبعض القادة العسكريين السوفيات في حروب التدخل وفي الحرب العالمية الثانية ، اذ عالجوا مبدأ الهجوم بروح تجريدية ومالوا الى تأليهه وعبادته . لقد اخطأ تلامذة نابليون في فهم نابليون فيما يتعلق بمسألة الدفاع والهجوم في الحرب ، كما اخطأ تلامذة ماركس ولينين في فهمهما حين قالا ان الهجوم يجب ألا يتوقف لحظة واحدة عندما تندلع الثورة المسلحة ، وان الدفاع هو موت الثورة المسلحة. ان نظرية ماركس في هذه الحالة صحيحة تماما، وقد اكدها لينين نظريا وعمليا مرتين عام ١٩١٧ . ولكن جوهرها مرتبط بشروط، وحالة خاصة، وهي اندلاع الثورة العامة في ظروف تؤخذ فيها الطبقة الحاكمة على حين غرة ، وهنا يجب الاندفاع الهجومي الزخم للاجهاز عليها ، دون اعطائها فرصة التقاط الانفاس ، واعادة تنظيم صفوفها ، ولكن هذا لا يعني عبادة الهجوم في كل الحالات ، خاصة ، اذا كان العدو مستعدا والقوى غير متفوقة تماما ، وقد بنى لينين الاستراتيجية العسكرية للاتحاد السوفياتي في حروب التدخل على اساس الدفاع واستيعاب هجوم العدو ثم الانتقال الى الهجوم المضاد ، وقد عنف « اليساريين » الطفوليين لعدم ادراكهم مغزى توازن القوى في تقرير استراتيجية الحرب .

اذا كان من الخطأ عبادة الهجوم وتأليهه في كل الحالات وبمعزل عن الظروف المعطاة ، فان من الضروري اعتباره هدف كل حرب ، سواء بدأت دفاعية، اوكان بالامكان البدء بهجوم استدراجي ثم الارتداد للدفاع لتصديع هجوم العدو ثم الانتقال الى الهجوم المضاد النهائي . ان مبدأ الهجوم هو مبدأ الحسم في الحرب ، ويجب ان يكون نصب الاعين ، كما يجب تعبئة القوات والقادة بروح المهاجمة وضرورة شن الهجوم **ولكن عندما تكون الظروف المعطاة والفرصة متهيئتين** .

لا يجوز التقليل من مزايا الدفاع واهميته ، خاصة ، مع تطور الاسلحة الحديثة ، ويكفي ان نتذكر ان اعظم المعارك كسبت في الحربين الاولى

والثانية العالميتين بعد معركة دفاع باسلة تحولت الى هجوم مضاد شامل انهى الحرب لمصلحة الذين كانوا في الدفاع – وسنتعرض لهذه الناحية تفصيلا في فصل التكتيك .

ان الدفاع السلبي هو الموت للجانب الذي يتبناه . اما الدفاع الايجابي والمفكر به جيدا ، والمشرب بالهجمات المحدودة ، ثم الذي يتحول الى هجوم مضاد هو حاسم في الحروب الحديثة التي لا تستخدم فيها الاسلحة النووية .

الدفاع السلبي : هو ان تقوي التحصين، وتربض وراءه ، لترد هجمات العدو دون ان تفكر بالتحول الى الهجوم المضاد في اللحظة الحاسمة . اما الدفاع الايجابي فهو الذي تتخلله اشتباكات حاسمة وهجمات صغيرة، الى جانب التحصين القوي ، ويكون هدفه تصديع هجمات العدو من اجل الانتقال الى الهجوم .

ما من عسكري الا ويرفض الدفاع السلبي ، ولكن في المقابل ما من عسكري حصيف يمكن ان يرفض الدفاع مبدئيا ويتخذ موقف الهجوم دائما في كل الحالات .

كتب ماوتسي تونغ في دحض الافكار التي تقول ان الهجوم الاستراتيجي متفوق على الدفاع الاستراتيجي بحجة ان الدفاع يهز المعنويات ، او ان الهجوم يهز معنويات العدو :

« تحت شعار الدفاع عن مناطق القواعد الثورية والدفاع عن الصين نستطيع تعبئة الاغلبية العظمى من الشعب لتقاتل بقلب واحد ، وعقل واحد ، لاننا مضطهدون وضحايا العدوان» ثم ضرب امثلة كيف ان الاتحاد السوفياتي خاض الحرب الاهلية تحت شعار الدفاع عن السوفيات وكذلك كيف تم التحضير لثورة اكتوبر والتعبئة العسكرية تحت شعار الدفاع عن العاصمة ، ويقول **« ان موقف الدفاع ، في كل حرب عادلة، لا يخمد عوامل الاغتراب سياسيا فحسب ، وانما ايضا ، يجعل من الممكن حشد الاقسام المتخلفة من الجماهير للانضمام للحرب » .**

ان مبدا الهجوم يستهدف الاقناع بضرورة الهجوم وتشريب الجيش بروح المهاجمة لان الدفاع لا يحقق نصرا ، ولكنه لا يعني رفضا للدفاع من حيث أتى . ولا يعني عدم اتخاذ موقف دفاعي في البداية للافادة من ميزات الدفاع ثم التحول الى الهجوم المضاد في اللحظة الحاسمة .

في الواقع ، ان عبادة الهجوم تعني رفض حرب الفوار والحرب المتحركة ضمن الدفاع الاستراتيجي لان هاتين الحربين ، في الجوهر ، لهما طبيعة دفاعية استراتيجيا ، ودفاعية هجومية تكتيكيا ، اذ ان ضرورة الحركة المستمرة في حرب الفوار والحرب المتحركة ضمن الدفاع الاستراتيجي تستهدف اول ما تستهدف الافلات من هجمات العدو وتطويقاته ، اي هي شكل من اشكال الدفاع شديد الحركة والايجابية ، وبقدر ما تنجح هذه العملية – الدفاعية في الجوهر – بقدر ما تنفتح آفاق واسعة للهجمات التكتيكية التي هي الجوهر الثاني القرين بالحركة الدفاعية، او على الاصح ، الدفاع المتحرك .

ثمة سلسلة من اشكال الهجوم تستخدم في مختلف الحروب بطرق متعددة وفقا لقوانين كل حرب ، يمكن ايجازها :

– الهجوم المباشر على نقطة او موقع او جبهة حيوية بهدف امتلاك زمام المبادرة وحرية الحركة ، ولكن هذا الهجوم يشترط وجود قوة هجومية متفوقة .

– الهجوم المضاد بعد تصديع هجوم العدو ويمكن تطبيقه على مستوى معركة محدودة ، ومستوى جبهة واسعة ، ومستوى الحرب ككل ، ولكن الشيء الحاسم به حسن الاحتفاظ بقوة احتياطية خلف الخطوط الدفاعية المشتبكة ، وحسن تقدير اللحظة المناسبة لشنه ، وهذه القضية تختلف من حرب لحرب ، فمثلا وضع ماوتسي تونغ ستة شروط للتحول من الدفاع الى الهجوم المضاد في ظروف الحرب الثورية في الصين .

١ – الجماهير تؤيد جيش الشعب تأييدا قويا .

٢ – كل القوات الرئيسية في الجيش الاحمر مركزة .

٣ – الارض مناسبة للعمليات .

٤ ـ اكتشفت نقاط ضعف العدو .

٥ ـ اصبح العدو في وضع منهك ، ومحطم المعنويات .

٦ ـ اغري العدو على ارتكاب الاخطاء .

ـ الهجوم المفاجيء : ويتم اما في وقت لا يتوقعه العدو ، او في نقاط غير محمية ، او ضعيفة جدا لا يتوقع العدو ان يشن الهجوم عليها . ويستهدف ضعضعة تماسك العدو وتحطيم معنوياته .

ـ الهجوم التضليلي : ويتم عن طريق تهديد نقطة هشة من نقاط العدو من اجل اجباره على اتخاذ اجراءات لتقوية نقطة التهديد مما يضعف النقطة الاساسية التي يراد اكتساحها . ولكن يشترط هنا ان تكون نقطة التهديد التضليلي ذات اهمية خاصة بالنسبة للعدو .

ـ الهجوم الخداعي : ويتم عن طريق تنظيم قواتك واتجاهاتك بصورة تظهر للعدو على عكس حقيقة السير العملي الذي ستتخذه ، من اجل خلق جو عدم تأكد لدى العدو لجعله يتخبط في الظلام، في حين تمضي لتحقيق الاهداف المحددة .

ـ الهجوم الاختراقي: تحطيم نقطة او نقطتين في خط الدفاع، والحاق ذلك باختراق من قبل قوة تمثل جزءا فقط من قواتك المهاجمة ، ونقل العمليات ـ اذا كانت على نطاق جبهة واسعة ـ الى ما وراء خط الدفاع لقطع خطوطه الداخلية واحكام الحصار عليه ، وبالتالي سحق قواته الهامة او فرض الاستسلام . او نقل القتال الى داخل تحصينات الدفاع في حالة معركة ، واشغال الدفاع في قتال داخلي مع قوة الاختراق ، بينما تتقدم القوات الرئيسية المهاجمة لاكتساح مواقع الدفاع الامامية ، والسيطرة على المعركة .

ـ هجمات الاستنزاف : وتتم عن طريق مهاجمة مجموعة من النقاط ، وفتح جبهات ثانوية للعدو ، من اجل انهاك مصادره وقواته في الدفاع عن نقاط ضعف متعددة . ولكن هذه العملية في حالة ممارستها في حرب بين دولتين تقتضي ان تكون مصادر الذي يخوض حرب الاستنزاف اقوى من

مصادر خصمه لان عملية الاستنزاف في الواقع سيف ذو حدين يستنزف الطرفين . اما بالنسبة لحرب غوار او حرب ثورية متحركة ضمن دفاع استراتيجي فتشترط وجود تأييد ودعم شعبي قوي جدا، او متعاظم ابدا.

ـ هجوم استدراجي : ويتم من اجل اغراء العدو على شن هجمات على نقاط محصنة جيدا متفوقة على الهجوم ، او لاغرائه على الملاحقة لايقاعه بمصائد معدة سلفا .

ـ العودة الى الهجوم المباشر والمفاجيء والاختراقي : ويتم في حالة انسحاب العدو من الاشتباك بقصد اعادة تنظيم صفوفه من اجل استعادة المبادرة وحرية الحركة . وذلك لحرمانه من استعادة الوضع القوي ، وملاحقته .

ـ الهجوم عن طريق الالتفاف على الاجنحة ، ويشترط توفر السرعة وقوة كافية .

ثمة سلسلة من الاشكال الدفاعية تستخدم في مختلف الحروب يمكن تلخيصها :

ـ الخطوط الدفاعية الثابتة : وتتم عن طريق مد خط دفاعي متماسك كثيف ولا بد من توفر احتياط متحرك يستطيع الانتقال الى اية نقطة يتهددها هجوم كثيف او يتم اختراقها ، نجح في الحرب العالمية الاولى ولكنه سقط في الحرب العالمية الثانية ولم يعد شكلا منصوحا به الان الا في المناطق الصغيرة المساحة مع توفر كثافة شديدة بالقوات والنيران .

ـ الدفاع العميق : ويتم عن طريق شبكة من النقاط الدفاعية الموزعة جيدا في العمق، وهذا لا تمنع الاختراق، ولكنها تجعله يتحطم بعد ان يحدث، وتعمد الى قطعه عن الاحتياط ، خاصة حين يصطدم باحداها ، ولا تلجأ الى الدفاع الثابت الا في نقاط محددة لانها تعتمد اساسا على الدفاع الايجابي الذي يحاول تطويق الاختراق وشن الهجمات المحدودة باستمرار. ولكن هذا الدفاع يتطلب عمقا واتساعا في المساحة مع زخم بشري مدني مؤيد ومشترك بالمقاومة .

— الدفاع المتأهب المتحرك : وهذا يتم عن طريق حماية مختلف النقاط حماية محدودة ومؤقتة بينما يعتمد على قوة ضاربة متأهبة يمكن نقلها الى اية نقطة بسرعة فائقة . وهو يعتمد على القوة الآلية والطيران .

— القتال التراجعي: ويتم عن طريق الانسحاب او الابتعاد عن الاشتباك. ولكنه يشترط ان يتم بانتظام، وضمن خطة معينة، ويستهدف تغيير الوضع الذي كان قائما في المعركة لمصلحة الطرف المنسحب ، مستقبلا ، وقد يتخذ شكل جر العدو الى نقاط دفاعية قوية ، او نصب مصيدة له ، او انهاكه بمطاردة فاشلة لا تصل الى قرار الخ.

— الدفاع التعويضي : وهو التخلي عن نقطة امام هجوم العدو ، والهجوم على نقطة اخرى تجبر العدو على التخلي عن هجومه الرئيسي .

— الدفاع المتحرك : وهو ابعاد النقاط التي يمكن ان يهاجمها العدو ، عن طريق التحرك المستمر والزوغان من امامه ، او الاخفاء والتمويه الجيد مع هجمات محدودة مستمرة . وهذا الشكل هام جدا في الحروب التي يمتلك فيها العدو تفوقا حاسما مثل حروب الغوار والحرب المتحركة الثورية ضمن الدفاع الاستراتيجي .

— دفاع خرق الحصار : وهو الدفاع الذي لا يستسلم حين يطبق عليه حصار ويستمر في المقاومة — حرب دفاع مواقع — الى ان تسنح فرصة للتركيز على احدى نقاط المحاصرين وشقها والخروج من الحصار بانسحاب شامل وهنا ينتقل الى الدفاع التراجعي ، او تطويق الحصار من الخارج وشن هجوم من الداخل والخارج .

طبعا ان كل هذه الاشكال الدفاعية يجب ان تتضمن الدفاع الايجابي الذي يضع على رأس اهدافه التحول الى الهجوم ، اما الهجوم المضاد الشامل ، او الهجمات التكتيكية المضادة حسب الظروف .

ان العلاقة بين الهجوم والدفاع كانت وما تزال علاقة عضوية جدلية ، واي فصل تعسفي بينهما هو فصل خاطيء ، ويؤدي الى دمار .

على ان من الضروري معرفة مسائل الهجوم والدفاع في ظل الاسلحة

الصاروخية النووية ، والتطورات الهائلة في كل مجالات الاسلحة والتقنية.
ويمكن تحديد السمات التالية :

أ — الهجوم الاستراتيجي : وتستخدم فيه الصواريخ النووية التي توجه ضربات استراتيجية مباشرة ، سواء عن طريق الصواريخ الاستراتيجية او صواريخ القوات الجوية والبحرية ، بالاضافة الى العمليات الاستراتيجية للقوات البرية والطيران والبحرية **وهو الشكل الرئيسي للاستراتيجية العسكرية النووية .**

ب — الدفاع الاستراتيجي : وتستخدم فيه صواريخ مقاطعة مسار الصواريخ النووية المعادية، كما تستخدم فيه قوات الدفاع الجوي على اختلافها، لتدمير الضربات النووية الاستراتيجية المعادية في الجو او حرفها . ان مهمة الدفاع الاستراتيجي هي مواجهة الضربات الاستراتيجية المعادية.

حـ — الدفاع والهجوم تكتيكيا : سوف يتخذ طابع العمليات للقوات التكتيكية البرية طابع الهجوم والدفاع حسب الظروف ، كما كان الحال عموما ، مع ملاحظة السمة المميزة المعاصرة للقوات التكتيكية ، اي الدور الاساسي الذي ستلعبه وحدات الصواريخ والوحدات المدرعة والالية ، وكذلك السرعة الهائلة في الحركة .

٦ — مبدا المفاجاة

ليس لهذا المبدا نمط خاص في التطبيق ، او على الاصح ، ليس له صورة واحدة ، انه يعني انك حين تصمم خطة هجومية ، او دفاعية، عليك ان تراعي عنصر المفاجاة فيها لانه يعطي فرصا اكبر للنجاح ، وكثيرا ما يعوض عن نقاط الضعف سواء العددية او السلاحية او التكتيكية ، ولعل اهم ما فيه انه يضعضع توازن العدو ، وتماسكه ، ويجعل الاضطراب يدب في صفوفه وعمله وعقله .

كثيرون يفهمون مبدا المفاجاة بشن هجوم في وقت غير متوقع، او على نقطة غير متوقعة . ان هذا المفهوم يعطي جانبا واحدا من هذا المبدا الذي يعني في الجوهر استخدام اي **عنصر** غير متوقع تفاجيء العدو به ، وهذا

ينطبق على كل المستويات من اكبر خطة استراتيجية الى ابسط حركـــة تكتيكية ، وينطبق على الدفاع كما على الهجوم ، وعلى كل اشكال الحروب.

بيد ان مدى نجاح عنصر المفاجاة المقترح يتوقف على طريقة وسرعـــة تنفيذه بحيث لا يعطى العدو فرصة اخذ الاحتياطات،او الاجراءات المضادة، في الوقت المناسب . فمثلا ان سرعة التعبئة للجيش ، والتحرك الحاسم الدقيق قبل اعلان الحرب ، او في اثناء الحرب ، وسرعة تنظيم القـــوات ونقلها من نقطة الى اخرى كل هذه عوامل تحقق المفاجاة الاستراتيجيـــة . وان اختيار اسلوب غير متوقع لضرب الهدف أو طريقة مهاجمته او اختيار نقطة غير متوقعة او وقت غير متوقع او استخدام سلاح جديد او تكتيك جديد ، او ادخال مفاجآت في اثناء الاشتباك وكذلك طريقـة استخــدام الاحتياط، ومختلف الخدع ، هي وسائل مختلفة لتحقيق المفاجاة في المجال التكتيكي . فهنالك انواع عديدة لتحقيق المفاجاة ، او قل انواع المفاجـأة : (١) بالزمان (٢) بالمكان (٣) بنوع السلاح (٤) بالاسلوب (٥) بالامن والسرعة والحركة والتركيز والمباداة الخ.

ان ادراك مبلغ اهمية مبدأ المفاجاة ، كمبدأ اساسي في كل حـــرب ، يتطلب الحماية من مفاجآت العدو لك ، وهذا يجب ان يقف عـــلى رأس الاعتبارات في تخطيطك . لان الاحتياط سلفا لمفاجآت العـــدو التي بنى عليها املا كبيرا ، واحباطها **بشكل عملية مفاجأة للعدو** تجعل الوضع ينقلب لمصلحتك . لذا يجب على القائد ان يفكر سلفا بكل الاحتمالات المتوقعـــة التي يمكن ان يلجأ لها العدو .

يقول مولتكي : « الاحظ ان هنالك دائما ثلاثة طرق مفتوحة امام العدو ولكنه يأخذ عادة الطريق الرابع » .

هذه ميزة القائد البارع ان يحسب للطريق الرابع الذي قد يسلكـــه العدو بينما يكتشف طريقا رابعا لخطته لم يخطر ببال العدو .

٧ ـ مركزية القيادة والخطة والتنفيذ

ثمة اسماء عديدة تعطى لهذا المبدا ، فالامريكيون والسوفيات يسمونه

وحدة القيادة ، والانكليز يسمونه مبدأ التعاون والتنسيق Co-operation كما ان هنالك من يقسمه الى عدة مبادىء : وحدة القيادة ، ووحدة الخطة، ووحدة التنفيذ ، ولكن الجوهر واحد مهما اختلفت التسميات والتقسيمات وهو يتلخص :

أ ـ رؤية كل جوانب الوضع المعطى في الحرب ، بصورة موضوعية ، بحيث تنتهي الى **تقييم واحد متماسك ، وقرارات موحدة متماسكة .**

ب ـ وضع خطة **واحدة متماسكة ، واقامة التنسيق بين كل اجزائها، وكذلك بين مختلف الخطط المتولدة عنها ، كمـــا بـــين مختلف الاسلحـــة واللوجستيكا والادارة الخ.**

حـ ـ **التنفيذ الموحد تحت قيادة واحدة .**

ان وحدة القيادة والخطة والتنفيذ تنطبق اهميتها على كل المستويات من مستوى الحرب ككل الى مستوى العمليات الى مستوى اصغر معركة ، وهي تنطبق على الجيش ككل كما تنطبق على فرقة ولواء حتى حضيرة .

يقول ماوتسي تونغ ان العلاقة بين الكل والجزء لا تنطبق فقط عـــلى العلاقة بين الاستراتيجية والحملة فحسب،وانما ايضا بين الحملة والتكتيك وتنطبق على العلاقة بين عمليات فرقة وعمليات الويتها وعلى العلاقة بـــين عمليات اللواء وعمليات كتائبه ، وعلى العلاقة بين عمليات الكتيبة وعمليات سراياها ، وعلى العلاقة بين عمليات السرية وعمليات فصائلها وحضائرها .

ومن هنا على القائد ، في اي مستوى ، ان ينسق العمل والتعاون بين كل الاجزاء المسؤول عنها ويقودها ، ويضمن انسجامهـــا مع الخطة الاعم ، لان مبدأ مركزية القيادة والخطة والتنفيذ ينطبق على كل المستويات .

ان وجود خطط متضاربة على اي مستوى في داخل الجبهة المحاربة يعني دمارها . وان عدم التنسيق بين الكل والجزء ، وبين عمـــل مختلف الاجزاء يعني فقدان السيطرة على الوضع، وحرمان الجيش

من التعاون والتنسيق .
وان عدم التناغم بين عمل القوات الاصغر مع القوات الاكبر يعني الفوضى .

ان مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ لا يعني المركزية المطلقة بمعنى رفض التقسيمات اللامركزية والمبادرات اللامركزية، وانما يعني جعل جماع العمل متماسكا متناغما موحدا ولكن ضمن مرونة .

ولكن اذا كان التمسك بهذا المبدأ يتطلب الانضباط الصارم والنظام الحازم في داخل الجيش وهو امر لا غنى عنه في الحرب ، ويتطلب خضوع المراتب الدنيا الى المراتب الاعلى ، فان محتوى الانضباط والنظام يختلف باختلاف طبيعة الحرب التي يخوضها الجيش ، او طبيعة الطبقة التي تقود الجيش، حيث نجد مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ يطبق في الجيوش التقليدية على اساس الطاعة العمياء، ويقوم على اساس القهر والعقوبات . بينما يقوم في الجيش الثوري على اساس الطاعة الواعية ، وعلى اساس المركزية الديمقراطية . مع انضباط صارم ونظام حازم وخضوع المراتب الادنى الى المراتب الاعلى ، مع افساح آفاق واسعة لمبادرات مختلف المراتب والاجزاء .

لقد اصبح مبدأ مركزية القيادة والخطة والتنفيذ حاسما في عصر الحرب النووية اذ غدا التنسيق الدقيق والبارع بين الاسلحة النووية الاستراتيجية والتكتيكية وبين القوات الالية والطيران وكذلك بين الضربات النووية وتحرك القوات المهاجمة مسائل حاسمة لتحقيق النصر .

٨ ـ مبدأ المحافظة على الهدف

لا يوجد هذا المبدأ في كل التعليمات الميدانية لمختلف الجيوش ولكن التعليمات الميدانية البريطانية ، وكذلك المنظرين الانكليز ـ فوللر وباليت مثلا ـ يشددون عليه ويعتبرونه اساسيا في الحرب .

ينطلق هذا المبدأ من التفريق بين الهدف وبين خطة تنفيذه ، اذ ان اي قائد عسكري مهما تكن رتبته ، من قائد سرية الى قائد فرقة يأخذ هدفه ـ الهدف هنا بمعنى Target او المهمة ـ من القيادة الاعلى منه ، اما الخطة فهي من تصميمه . ولهذا فان هذا المبدأ يضع المهمة وخطة تنفيذها او عملية تنفيذها على مستويين مختلفين من المسؤولية ، وكذلك من حيث الاولوية .

لو راجعنا ديناميكية اية حرب، او عملية ، اومعركة ، فسنجدها تتألف من اهداف متداخلة ، فمثلا قد يكون امام حملة لواء هدف واسع ، بينما يقسم اللواء هذا الهدف الى عدة اهداف يوكل تحقيق كل منها الى كتيبة او كتيبتين ، ثم قد تقسم كل مجموعة هدفها الى اهداف على مختلف سراياها ضمن العملية الاكبر وكجزء من عملية تحقيق الهدف الاوسع سواء قبيل البدء بالتنفيذ الشامل او في اثنائه . ولكن كثيرا ما يحدث بعد ان يتلقى كل مستوى هدفه من المستوى الاعلى منه ، ويبدأ بوضع الخطة والتنفيذ ، ان يجد نفسه مضطرا لتغيير الهدف والخطة الى هدف وخطة جديدين . اما لاهتبال فرصة قد سنحت لم تكن متوقعة، واما لتجنب كارثة محيقة لم تكن منظورة عند تسلم الهدف . ولكن ان كان من الصحيح تغيير الخطة لتلائم الوضع المعطى وتغيراته ، الا ان تغيير الهدف قد يعطل كامل العملية الاوسع ما دام ذلك التغيير يتناول هدفا هو جزء منها . ولهذا يفترض هذا المبدأ عدم تغيير الهدف من قبل المستوى الذي كلف بتحقيقه ، لان مسؤولية التغيير هي من صلاحية المستوى الاعلى الذي حدد الهدف وذلك تجنبا لخلخلة الخطة كلها وتعريضها للخطر .

قد يبدو هذا المبدأ متناقضا مع المرونة في التطبيق ومعطلا للمبادرة . بينما هو في الواقع لا يتناقض مع **تغيير الخطة** لمواجهة الوضع الجديد تمشيا مع سائر المبادىء الاخرى التي تشدد على ضرورة المرونة ، ولكنه يتشدد **في عدم تغيير الهدف** الاضمن تغيير عام للخطة الاعلى لان الهدف هو جزء من خطة القائد الاعلى من ذلك المستوى ، وهو الذي يجب ان يغيره لا القائد الذي كلف بتحقيقه .

ثمة حالات كثيرة لم يراع فيها هذا المبدأ ، وعلى مستويات مختلفة ، حيث وضع هدف جديد واهمل الهدف المعطى ، ولكن رغم النجاحات التي

حققها مثل هذا التغيير بحد ذاته ، الا انه لم يسهم في تنفيذ الخطة الاوسع والهدف الاكبر ، وكانت النتيجة كارثة بالنسبة للخطة الاوسع بسبب هذا التغيير الجزئي في الهدف .

ان تطبيق مبدأ المحافظة على الهدف في الحروب الحديثة التي تتميز بالالية السريعة والضخمة والحشود الكبيرة واللوجستيكا الهائلة ، يحظى بأهمية كبرى ، خاصة ، اذا كان مستوى العملية كبيرا ، لان طبيعة التوزيع الآلي للقوات ، كما يقول باليت ، يعطيها صفة قوة الاستمرار واي تغيير فجائي خاطف في الهدف على مستوى عال يؤدي الى مخاطر .

يترجم هذا المبدأ في حرب الغوار حيث تعمل التشكيلات الصغيرة ، بصورة شبه مستقلة، هي التي تحدد فيها اهدافها وتحدد خطتها، وبالتالي، فهي تستطيع تغيير اهدافها وخطتها بمرونة كبيرة، يترجم الى مبدأ استمرارية العمليات اي المحافظة على الهدف من خلال المواظبة على شن العمليات العسكرية ضد العدو دون انقطاع . وقد اكد انور خوجا ومحمد شيخو على مبدأ المحافظة على الهدف في حرب الغوار من خلال استمرار القيام بالعمليات بالنسبة لكل وحدة صغيرة او كبيرة .

٩ ـ مبدأ المبادرة

ينطبق مبدأ امتلاك زمام المبادرة على المستوى الاستراتيجي وعلى العمليات وعلى التكتيك . ويعتبر اساسا في مبدأ حرية الحركة . ولهذا فان كثيرا من التعليمات الميدانية لا تفرد له بندا خاصا لانها تعتبره جمعا بين المفاجاة والحركة والامن والهجوم .

يقول ماوتسي تونغ ان المبادرة ليست شيئا خياليا انها شيء ملموس . ويقصد ان المبادرة في الجوهر هي المحافظة على قواتك وجعلها تمتلىء بالروح القتالية . لذلك فان الانسحاب امام ظروف غير مؤاتية هو عملية مبادرة رغم انه يبدو في الظاهر تراجعا اضطراريا ، لان الانسحاب في تلك الحالة يعني المحافظة على القوات ، وكسب الوقت من اجل قهر العدو في النهاية ، بينما يعتبر ، في المقابل ، ان رفض الانسحاب ورفض الارتداد

الى الدفاع في ظروف غير مؤاتية ، والاسراع للاشتباك من اجل كسب زمام المبادرة ، يؤدي الى هزيمة وهو شيء سلبي .

ان كسب زمام المبادرة قد يكون بالانسحاب ، كما قد يكون بالهجوم ، وقد يكون باحباط مخططات العدو ، كما قد يكون بمبادرات ايجابية تربك العدو .

قد يفهم من المبادرة انها عملية البدء اولا ، ولكن هذا شكل من اشكالها، وان كانت بمعناها الواسع تعني **حسن التصرف ضمن الحالة المعطاة** . الامر الذي قد يتعارض احيانا مع التطبيق الحرفي للقواعد او التعليمات، وحسن التصرف قد يكون باهتبال فرصة سانحة غير متوقعة ، او تجنب خطر غير متوقع ، او ابتداع تكتيك جديد في معالجة حالة خاصة . ولهذا فان كل التعليمات العسكرية تفترض ابقاء فسحة لمبادرة القائد في اثناء التنفيذ ، بحيث لا يعمل ضمن خطة جامدة غير قابلة للتعديل والتغيير وفقا لمبادرته وحكمه الذاتي .

١٠ ـ مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة

من المحال في القتال توزيع قواتك على كل النقاط توزيعا متساويا ، كما ان من المحال ان تهتم بكل القضايا اهتماما متساويا .

يقول ماوتسي تونغ : « على القائد بأي مستوى ان يركز على المسألة او العمل الاهم والاكثر حسما في كل الوضع الذي يعالجه، وليس على مسائل واعمال اخرى » .. « لا يتقرر الشيء الاهم تجريديا وانما وفقا للوضع الملموس » .

ان مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة يترجم في العمليات والتكتيك الى « مبدأ توجيه الضربة الرئيسية » اي تحديد نقطة او نقاط ـ العدد قليل عادة ـ التركيز والاتجاه الرئيسي لعملك . فقد تكون هذه النقاط احيانا هي أشد نقاط الضعف لدى العدو ـ عندما يكون متفوقا استراتيجيا ـ وقد تكون احيانا النقاط الحيوية ـ في حالة التوازن الاستراتيجي ـ وقد

تكون النقاط القاتلة ـ عندما تكون انت تمتلك التفوق الاستراتيجي . وهذا ينطبق ايضا على المستوى الاستراتيجي كما على مستوى أصغر معركة . فمثلا في حالة الهجوم على موقع يجب ان تحدد النقطة الرئيسية لتوجيه الضربة الرئيسية الخ.

ويترجم هذا المبدأ في العمل داخل الجيش على اساس تحديد نقطة التركيز كل مرة مثلا على التدريب ، او على التسليح ، او على التنظيم والانضباط ، او على رفع مستوى الكوادر القائدة ، او على العمل التثقيفي والمعنويات الخ.

ان مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة، او تحديد المسألة الاهم، والاكثر حسما، في كل حالة يشمل الجمع الخلاق بين عدد من المباديء السابقة وكيفية تطبيقها . ويتولد عنه عدد من القواعد مثلا : « انزال الهزيمة بالعدو على دفعات » انها جمع بين الاقتصاد بالقوات والتركيز والحركة ، او قاعدة : «توجيه الضربة الرئيسية» وهو جمع بين الاقتصاد بالقوات والتركيز..الخ.

***

تجربة الحرب العالمية الثانية والقواعد الاساسية لفن الحرب :

اكدت تجربة الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية على أهمية وحيوية القواعد الاساسية لفن الحرب ، يستحسن ذكرها مع ملاحظة ما ادخل عليها من تطوير نتيجة تجربة الحرب العالمية الثانية (من كتاب تاريخ فن الحرب ـ ستروكوف ـ الجزء الثاني) :

« ـ مبدأ الجاهزية القتالية الدائمة .

ـ مبدأ حشد القوى والوسائط على الاتجاهات الحاسمة وقد تم ذلك على اساس الاقتصاد في القوى على بقية الاتجاهات الى أدنى حد ممكن .

ـ مبدأ الانسجام بين القوى والوسائط المتوفرة وبين المهام الموضوعة .

ـ مبدأ التنسيق العميق للقوى والوسائط .

ـ مبدأ المفاجاة ، وهو ذو اهمية كبيرة جدا في الظروف الراهنة .

ـ مبدأ الفعالية الذي لا يزال يحتفظ بأهمية خاصة في الوقت الحاضر، والذي يضم عنصر المباداة والقدرة على المناورة بالقوى والوسائط .

ـ مبدأ تحقيق النصر بالاعتماد على الجهود المشتركة لكل صنوف القوات .

ويقول ستروكوف ان هنالك بعض المباديء الخاصة التي تطورت اثناء الحرب والتي لا تزال تحتفظ بأهميتها حتى في الوقت الحاضر ومنها مثلا : **مبدأ المطاردة الحاسمة، مبدأ تعزيز الخطوط المحتلة، مبدأ تنفيذ الاستطلاع بشكل دائم ومستمر ، مبدأ تأمين الفرج والاجناب ، مبدأ تأمين الارتباط المستمر »** .

**

خلاصة :

ان التطبيق الصحيح لقواعد فن علم الحرب يساعد القائد على خلق وضع متفوق على العدو، او الغاء حالة غير ملائمة له، او تعطيل تفوق العدو، ولكن نجاح هذا التطبيق لا ينفصل عن مجموعة العناصر الانسانية الاخرى مثل الوعي والشجاعة والتضحية والمعنويات والتنظيم والتدريب والانضباط والقضية التي يقاتل المرء من اجلها . كما لا ينفصل عن وزن القوى المادية المقابلة (حجم القوات ، وكثافة النيران، ومستوى الاسلحة والتكنيك الخ).

ان مفتاح التطبيق الصحيح لقواعد فن علم الحرب يكمن في اكتشاف القوانين الخاصة التي تحكم كل حرب وكل حالة داخل الحرب . وهنا يلعب العقل الانساني اهمية حاسمة في التحليل والتقييم واخذ القرار المناسب .

على ان المعادلة بين التطبيق الصحيح لقواعد فن علم الحرب وبين العناصر الانسانية ووزن القوى المادية المتقابلة تختلف من حرب الى حرب ، خاصة ، فيما يتعلق بطبيعة كل من القوى المتحاربة ، والهدف الذي تقاتل من اجله .

ولنأخذ الحرب بين دولتين امبرياليتين او بين دولتين رجعيتين

فسنجد اتجاهات تلك المعادلة كالآتي :

١ ـ اذا كان عنصر التطبيق الصحيح لقواعد فن الحرب ، او عنصر التطبيق ، فان نوعية القوات ومعنوياتها وتصميمها على الانتصار ومستوى المتقابلين فان القوة الاكبر ماديا (حجم القوات ، وكثافة النيران والدعم اللوجستيكي) ستنتصر على القوة الاضعف ماديا . اما اذا تحولت الحرب الى حرب مواقع واستنزاف طويلة الامد فان الذي يمتلك اقتصادا ووضعا مدنيا اقوى سوف ينتصر في المدى البعيد .

٢ ـ اذا تساوت القوتان او تقاربتا من ناحية القوة المادية ومستوى فن التطبيق فان نوعية القوات ومعنوياتها وتصميمها على الانتصار ومستوى تدريبها يقرر المسألة .

٣ ـ اذا كانت القوتان المتقابلتان متقاربتين من حيث القوة المادية ونوعية القوات فان القيادة الافضل (حسن تطبيق قواعد الحرب) قادرة على قلب الموازين .

ولكن اذا كانت الحرب بين دولتين احداهما تمثل قضية عادلة وذات طبيعة ثورية والاخرى تمثل دولة عدوان فسنجد اتجاهات تلك المعادلة كالآتي :

١ ـ اذا كانت الدولة العدوانية متفوقة جدا من ناحية وزن القوى المادية، وكانت الدولة المقابلة متفوقة من ناحية العناصر الانسانية **(التنظيم، الوعي ، العلاقة بالجماهير ، التعبئة الشاملة ، عدالة القضية الخ) . وكانت متفوقة بالتطبيق الصحيح لقواعد الحرب استراتيجيا وتكتيكيا** فان القوة العدوانية تستطيع كسب معارك مؤقتة ، او حتى احتلال العاصمة ولكنها تدفع ثمنا غاليا جدا. وتمتد الحرب لتصبح حربا ثورية طويلة الاجل تنتهي بانتصار الدولة الثورية الاضعف ، في نهاية المطاف .

٢ ـ اذا كانت الدولة العدوانية متفوقة ماديا وفي مستوى القيادة والتطبيق الصحيح لقواعد الحرب ، بينما لا تمتلك القوة الاخرى غير عدالة القضية ، وعطف عام فقط ، فأنها تهزم هزيمة ساحقة بلا خسائر تذكر من جانب القوة المعتدية .

٣ ـ اذا كان التفوق المادي متقاربا ، ولكن كانت القوة المعتدية متفوقة في مستوى القيادة وصحة التطبيق ، بينما كان الوضع التنظيمي والمدني للقوة الاخرى ضعيفا فستنتهي الحرب بسرعة ايضا ضد مصلحة القضية العادلة .

٤ ـ اذا كان الوزن المادي متقاربا ـ او حتى اذا كان تفوق القوة المعتدية غير كبير ـ ولكن كانت القوة الاخرى متفوقة في مستوى القيادة وصحة التطبيق لقواعد فن علم الحرب فسوف تهزم القوة المعتدية هزيمة منكرة اذا كانت العناصر الانسانية متوفرة ايضا ، وستهزمها ـ وتفشل عدوانها على الاقل ـ اذا لم يكن العنصر الانساني متوفرا بقوة لدى القوة الثورية .

ان العناصر الانسانية تتحول الى قوة مادية عدديا وعسكريا اذا ما عبئت سياسيا ونظمت ، بصورة صحيحة ، وهي بالتالي تعوض عن التفوق التكنيكي لدى العدو ، وتصبح مع القيادة العبقرية ، والتطبيق الصحيح لقواعد فن الحرب وعدالة القضية ، والتنظيم الطليعي الثوري ، وتنظيم الجماهير واطلاق مبادراتها ، تصبح قوة لا تقهر حتى مع تفوق تكنيكي وعلمي ضخم لدى العدو .

- ٤ -

التكتيك

لقد راينا في غالبية التعريفات للاستراتيجية ان اكثرها عرّف التكتيك مقابل تعريف الاستراتيجية . ويلاحظ من تلك التعريفات انها متفقة حول تعريف التكتيك اكثر بكثير من اتفاقها او تقاربها في تعريف الاستراتيجية. وقبل ان نمر بها من جديد ، يحسن ان نتذكر انمهمة الاستراتيجية لا تنحصر في بحث مسائل الاستراتيجية كاستراتيجية فحسب ، وانما ايضا ، تختار التكتيك الانسب وتوجه العمل التكتيكي نفسه ، وتقوده ككل ، من اجل ان يلعب دوره في الوصول الى قرار .

دارت التعريفات حول التكتيك :

- التكتيك هو استخدام القوات العسكرية في المعركة .
- التكتيك فن قيادة القوات في المعركة .
- التكتيك هو الوسيلة التي بوساطتها تنزل الهزيمة بالعدو فيالمعركة.
- ساحة المعركة هي مجال التكتيك .
- التكتيك هو فن استخدام السلاح في المعركة بطريقة تجعله يمارس اكبر تأثير .

- علم التكتيك هو دراسة قوانين الحرب في وضع جزئي .

تتفق كل هذه التعريفات على نقطة اساسية ، وهي حصر التكتيك في عملية الاشتباك في المعركة ، وان كانت هنالك تعريفات تضم له المناورة الاستراتيجية - العمليات - اي تعتبر التكتيك يشمل كل مجال التنفيذ ، ولكن هذا المط لمجال التكتيك لا يسهل الدراسة ، وان كان مبررا ، خاصة، بعد التحام العمليات في التكتيك مع الحروب الحديثة ، اذ اصبح التكتيك جزءا من العملية الاستراتيجية ممهدا لها لتعود بدورها لتمهيد الطريق للتكتيك - كما سنرى في عمليات بليتزغريغ - ولهذا فان حصر التكتيك في ميدان المعركة نفسها ، يجب الا يجعلنا ، في العصر الراهن ، نمد سور صين بينهما ، وان كان من الضروري دراسة التكتيك كمجال قائم بذاته مميز عن العمليات ، بل ان نابليون نفسه سمى العمليات ، بالتكتيك الكبير تمييزا لها .

تتناول دراستنا للتكتيك هنا مسائل السلاح ، والتشكيلات ، والارض، واستخدام القوات العسكرية في المعركة ، خاصة ، مسألة **النيران والحركة** في المعركة ، او قل جزئيات الحرب تاركين للاستراتيجية كل ما له علاقة بالحرب ككل ، مع اطلالة للعلاقة بين العمليات والتكتيك .

ان اية عملية اشتباك هي عبارة عن : بشر ، سلاح ، تشكيلات واوضاع معينة بالعلاقة مع الارض - اساليب القتال من اجل الوصول للخصم في المعركة والقضاء عليه ، او بعبارات مختصرة عامة : فن استخدام القوات المسلحة في المعركة - طريقة تنظيمها، وتشكيلاتها، وتوزيعاتها ، وتركيزها، وحركاتها ، واستخدام اسلحتها ، والتعاون بين مختلف صنوف الاسلحة في الصدام .

ومن هنا فان التكتيك يتناول مسائل :

١ - **السلاح** وفن تحريكه في المعركة وهو ما يعرف باللغة العسكرية المعاصرة فن النيران والحركة .

٢ - **التشكيلات** بحيث يتبنى التشكيل الانسب للقوات في المعركة

وذلك لجعل اسلحتها ومعداتها تستخدم على افضل وجه، وكذلك قوتها البشرية والعددية .

٣ - طريقة استخدام ارض المعركة في الجمع بين السلاح والتشكيلات والحركة .

السلاح :

يمكن تقسيم انواع الاسلحة منذ اقدم العصور حتى اليوم الى قسمين رئيسيين :

١ - سلاح الصدام ، اي سلاح الاشتباك القريب مثل السيف والرمح والحربة .

٢ - سلاح المقذوفات اي سلاح الاشتباك البعيد مثل السهم والمقلاع والمنجنيق والرصاص والقنابل والمدافع والصواريخ .

ويضاف اليها المعدات المساعدة مثل الدرع والفرس والفيلة والعربات والدبابة والطائرة .

ان سمة اسلحة الصدام او القتال القريب - وقد اضيف الى عائلتها في العصر الحديث الرشاشات الخفيفة والمسدس والقنبلة اليدوية - انها اكثر حسما لانها تعني الاشتباك الفيزيقي الذي يحدد النهاية . اما هزيمة او نصرا . ولهذا يعتبر هذا القتال مفتقرا للمرونة . اما في حالة المقذوفات بعيدة المدى ، عدا القنابل النووية ، فهي تمتلك المرونة لانها تعطي القائد وقواته امكانية عدم الاشتباك، واعادة التجميع، والعودة للاشتباك رغم عمل القذائف ، ولا تعتبر هذه الاسلحة حاسمة كأسلحة الاشتباك ، والحسم هنا لا يعني اهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه في تقرير مصير المعركة وانما القصد ان القرار النهائي لا يمكن ان يتم الا بعد الدخول الى حيث العدو لتجريده من السلاح وانهائه كقوة مسلحة، وهذا ما تحققه اسلحة الصدام. لقد رأينا ان التقديرات العسكرية ، حتى في عصر الحرب النووية ، تتجه الى اعتبار السلاح النووي وحده لا يكفي لتحقيق النصر النهائي، اذ لا بد من

القوات التكتيكية لاكمال المهمة ، ومن المشروع ان تعتبر هـذه القوات .. قوات صدام قريب بالنسبة للصواريخ عابرة القارات .

الحركة :

ان طريقة **تحريك** السلاح وتشكيل القوات**وتحريكها** ، اي الحركـة ، هو الذي يعطي الدينامية والزخم في المعركة ، ولهذا يوصف التكتيك بأنه فن **النيران والحركة** . وقد انقسم العسكريون منذ القديم ، وخاصة ، في العصر الحديث حول الاهمية الخاصة لكل من النيران والحركة ، ومـال الكثيرون الى التشديد على اهمية النيران ، او السلاح ، او ما يسمى اليوم التكنولوجيا العسكرية ، والتقليل من اهمية الحركة ودورها . ولكن هـذه الموضوعة تقلل من شأن القائد والجنـدي ، او العامـل الذاتي ، رغم ان التاريخ القديم والحديث مليء بالامثلة التياستطاعت فيها قوات اقل سلاحا واضعف نيرانا او ادنى تكنيكيا ، ان تنتصر بفضل الحركة على قوات اقوى سلاحا واكثف نارا وارقى تكنولوجيا . طبعا هنالك حالات اعتمـد النصر فيها على تفوق السلاح فقط . ولكن هذا الاعتقاد يؤدي الى كارثة في حالة عدم توفر التفوق في النيران ، او في حالة مواجهة خصم متفوق بالحركـة التكتيكية ، او على الاصح ، بالجمع الماهر بين الحركة والنيران في المعركة. لذلك فان التشديد يجب ان يكون عـلى **الحركة** او على النيران **المتوفـرة والحركة** في آن . لان الحركـة هي التي تجعل السلاح يعمـل على افضل وجـه .

التشكيلات :

ان مسألة تشكيل القوات في المعركة تشكيلا مناسبا يستهدف الافادة من كتلتها واسلحتها ومعداتها وحركتها التكتيكية على اكمل وجه ممكن .

ما دامت المعركة هي صدام بين كتلتين من البشر تستخدمان السلاح لسحق بعضهما بعضا فهذا يقتضي :

أ ـ ان تنظم كل كتلة بطريقة تجعلها تعمل كرجل واحد لكي يـؤدي

توحيد جهودها الى مضاعفة مقدرة كل رجل ومضاعفة مقدرة المجموع مـن خلال وضع الكتلة كلها ضمن تشكيل معين .

ب ـ ينبع تشكيل القوات في المعركة من حاجة كل مقاتل .لان يـكون محميا من اجنحته ومؤخرته بجيرانه، ومن الطبيعي ان يرتب الافراد بشكل يتيح لكل فرد ان يغطي جيرانه ، ويغطى من جيرانه بنظام متراص طويل، او صغير ، وبعمق كبير او قليل تبعا لتكتيك العصر .

حـ ـ لا يمكن قيادة تلك الكتلة من البشر اذا لم تكن منظمة .

د ـ تشكيل القوات يعطي كل فرد ثقة بالرابطة المادية والمعنوية التـي تربطه ببقية الكتلة .

هـ ـ لا يمكن تحريك تلك الكتلة وجعلها تقوم بمناورات تكتيكية قبـل المعركة ، او في اثنائها ، ما لم تكن مشكلة بطريقة معينة .

عرفت الجيوش منذ اقدم العصور حتى اليوم اربع تشكيلات رئيسية سواء كانت القوة التي تشكّل مؤلفة من عشرة او مائة او مـن مائة الف ، وسواء كانت مسلحة بالرماح والسيوف،او بالرشاشات والصواريخ المضادة للدبابات ، وسواء كانت تسير على الاقدام، او تمتطي صهوات الخيول، او تركب الدبابات والعربات .

وهذه التشكيلات هي :

١ ـ الخط Line : من ميزاته انه يؤمن التركيـز الاقصى لقـوة السلاح في حركة الاشتباك . ولكن سيئاته هي افتقاره للعمق ، والمرونة ، وبطئه ، وعدم سهولة تأقلمه مع كل انواع الارض .

٢ ـ الرتل Column : من ميزاته انه يؤمن المرونة، والعمق، ويتأقلم جيدا مع الارض، وهو اكثر سرعة من الخط. اما سيئته فهي افتقاره للجبهة Flanges وضمانة الاجنحة Frontage ,

٣ ـ المربع Square : يؤمن العمق والجناحين ، ويؤمن جبهة وتركيزا

معقولا . ولكنه اقل امكانية على المناورة التكتيكية من الرتل ، ويستخدم اساسا في التكتيك الدفاعي سواء على شكل مربعات نابليون المقسمة الى ارتال ، او بالمفهوم المعاصر القائل بالنقاط الدفاعية الشاملة والعميقة .

٤ ـ تشكيلة المناوشة Skirmishing : وهي تشكيل متحرك يصلح اساسا للقوات الصغيرة. ومن مزاياها سرعة الحركة، والتأقلم مع الارض، ومقدرتها على اخذ اشكال متعددة بما فيها الخط والمربع ، ولكن سيئتها افتقارها للتركيز عند الالتحام .

اما بقية التشكيلات فهي اشتقاقات من هذه التشكيلات الرئيسية الاربع. ثم تنشأ الى جانب ذلك مسألة عدد القوات في التشكيلة، وهذه لها خمسة اشكال : التركيز ، التوزيع ، الاقتصاد ، الزيادة ، النقصان .

الارض : ان طريقة استخدام الارض في المعركة اي الجمع بين السلاح والحركة والتشكيلات وطوبغرافية ارض المعركة يؤسس شرطا اساسيا للتنفيذ التكتيكي والمناورة التكتيكية ، بل هي من اولى مهمات المناورة التكتيكية .

لم يكن هذا العنصر مهما ايام المعارك على ارض منبسطة يختارها الطرفان ، ولكنها اصبحت حقيقة بدهية الان خاصة منذ زمن مارلبورو Marlborough (١٦٥٠ ـ ١٧٢٢) الذي جعلها عاملا هاما في طريقة قيادة الجيوش في المعركة .

يجب التفريق هنا بين اهمية استخدام الارض في المعركة وبين النظرية الخاطئة التي اعتبرت ان الموقع اهم من القوات ، واعتبرت ، بالتالي ، ان احتلال الارض والمواقع الاستراتيجية هي الشيء الحاسم ، في حين ان الشيء الحاسم دائما هو سحق قوات العدو في المعركة لان اي احتلال للمواقع والارض ، بينما قوات العدو الرئيسية ما زالت سليمة لا يحمل اهمية حاسمة ، اذ ستسقط كل المواقع وتستعاد الارض بأسرع مما اخذت اذا هزمت القوات الرئيسية نظائرها في المعركة الحاسمة .

تمهيد عام حول التكتيك

اذا كانت تشكيلة القتال تعني خطا متراصا من الرجال يتراوح في العمق، وفي الطول، فان الحماية تضعف ، بالتالي، عند الاجنحة وهي اضعف النقاط . ونظرا لضعف الاجنحة اصبح المتحاربون يحاولون كسب النصر عن طريق الالتفاف عليها مما تطلب الدخول الى المعركة بجبهة اطول من جبهة العدو . واذا لم يكن العدد كبيرا فهذا يعني تمديد الجبهة ، وبالتالي خلق نقاط ضعيفة جديدة في الجبهة نفسها . وقد فتح هذا امكانية استغلاله عن طريق خرق جبهة العدو . ومن هنا اصبح هدف التكتيك الهجومي في المعركة هو شق تماسك جبهة العدو ، وتحطيم نظام تشكيلته ، اما عن طريق الالتفاف حول الاجنحة او خرق الجبهة الامامية .

ما ان تخرق جبهة العدو حتى يصبح تماسكه مفككا ، وتؤدي الصدمة الى اشعار كل جندي بالخطر ، فتتمزق الرابطة المعنوية مع تمزق التماسك المادي ، فيتحول الجيش المنظم الى كتلة مضطربة ، ومن هنا اكد كلاوسيفتز على تحطيم معنويات العدو من خلال الصدمة في المعركة . وكانت هذه هي لحظة اعمال السيف في الماضي ، اما في العصر الحديث فقد اخذت شكل انسحاب منتظم قدر الامكان من جانب المهزوم ، وملاحقة من جانب المنتصر مستهدفا منع المهزوم من اعادة تنظيم قواته ، والاجهاز عليه .

ان حركة الالتفاف على الاجنحة تتطلب حركة اسرع ، وامتدادا اوسع، مما يتطلبه خرق الجبهة. ولهذا السبب كانت الاجنحة تتشكل من الفرسان واصبحت تتشكل من الاليات المصفحة فيما بعد .

يجب على الجانب المهاجم ان يمتلك قوة متفوقة على دفاع العدو ، وهذا يتحقق عن الطريق التعاون بين مختلف اسلحة الصدام ـ فرسان ثقيلة او خفيفة، فيلة، مدرعات الخ. ـ واسلحة النيران المؤازرة او الممهدة (سهام ، نبل ، مقاليع، منجانيقات ، مدفعية مشاة ، طائرات ، صواريخ) ويجب على كل هذه الاسلحة ان تتقسم الادوار وتكون متعاونة متناغمة ومتحركة وسريعة في خرق جبهة العدو .

اعتمد هذان الشكلان من الهجوم : الالتفاف على الاجنحة ، او صدمة

خرق الجبهة الامامية ، على ما يلي – في الماضي :

١ – حجم كل من الجيشين .

٢ – فعالية تكنيك الهجوم بمقارنته مع تكنيك الدفاع .

٣ – السرعة .

٤ – واضيف عامل الارض فيما بعد .

كان الدفاع يعتمد على مقدرة كل رجل في الخط على استخدام سلاحه ، وكان احيانا محميا بدرع ، او بخط من رماة النبل والسهام ، او بحاجز صغير من الاخشاب ، او خندق ، او وراء سور (كان الاسلوب في معالجة الدفاع وراء اسوار مدن عالية يعتمد على الحصار الطويل اساسا ، مع محاولات لاختراق السور من احدى نقاطه ، او ابوابه ، عن طريق الخدعة والتسلل الخ). ولكن الدفاع في معركة الاشتباك قد اعتمد اساسا على استخدام القذائف بادئا بالسهام، ثم المنجانيق، ثم المدفع، والقذائف المتفجرة، والبنادق ، وكان على الهجوم مواجهة هذه الاسلحة قبل الوصول الى العدو في قتال قريب ، عن طريق استخدام مثيلاتها لاسكات اسلحة القذف الدفاعية، او على الاقل انقاص كثافتها الى حد معقول يتيح امكانية الاندفاع الى نقطة الاختراق .

ولكن مع تطور الاسلحة التقليدية الحديثة – زيادة كثافة النيران – اصبح الدفاع في القمة . مما جعل عملية المعركة اكثر تعقيدا واصبحت تتطلب مجموعة من الاجراءات والخطط الماهرة وعمليات المناوشة حتى يغدو بالامكان الالتحام مع العدو . اي اضحى من الضروري انهاكه وانزال خسائر اولية به مع التركيز على النقطة الحاسمة في الوسط او في الجناحين . ولكن كان لا بد قبل بدء عملية الاختراق او الالتفاف تشغيل احتياط الدفاع، اما بجره الى نقطة هجوم تضليلي ، او اجباره على التوزع على نقاط عديدة، الى جانب التركيز على هز معنوياته . ومن هنا اصبحت المعركة التكتيكية تتشكل من مرحلتين :

١ – مرحلة اولى تمهيدية قد تكون طويلة او قصيرة حسب كل حالة .

٢ – مرحلة توجيه الضربة الرئيسية .

ولنتذكر ان اي جيش يتألف من بشر يجمعهم نظام ، وتماسك ، وثقة متبادلة ، ومعنويات وارادة على القتال ، واسلحة وكثافة نيران، وتشكيلات معينة تؤلف سدا في وجه الهجوم ، واحتياط متحرك ، واتصال دائم بالقواعد الاساسية لتأمين المواصلات والتعزيزات – والدعم اللوجستيكي . ولذا فان على الهجوم :

أ – تمزيق تماسك الجيش ونظامه وهز معنوياته ، الناحية السيكولوجية (وكان كلاوسيفتز قد كرس جزءا كبيرا من كتابه «حول الحرب Onwar لمسألة المعنويات واهميتها في الحرب . اما تحقيق ذلك فيتم بطرق متعددة منها :

١ – قبل المعركة : عمليات حصار وانهاك مستمر ، وشائعات وحملات نفسية ، وتظاهرات قوة الخ.

٢ – بدء المعركة : عمليات خداع ، رهبة القتال ، والصرخات والقنابل الصوتية ، وعمليات التمويه ، واساليب المفاجأة، التي تصل قمتها – حسب راي نابليون – عند لحظة تصدع معنويات العدو اي لحظة الهجوم المفاجيء الكاسح .

٣ – عملية الاختراق نفسها وتمزيق احد الاجنحة او كليهما ، او خرق الوسط ، اي هز تماسك الجيش ومعنوياته بقوة الصدام المسلحة (كلاوسيفتز) .

ب – اسكات نيران العدو ، او انقاصها جدا ، – كتركز نيران تمهيدية – خاصة في نقطة توجيه الضربة الرئيسية . وهذا بدوره يمزق تماسك العدو عندما ينجح الاختراق من تلك النقطة ويتخلخل سد الدفاع .

جـ – قطع مواصلات العدو ونقط امداده ، واذا امكن ضرب مخازن ذخائره

وتموينه في جبهة المعركة نفسها ايضا .

د ـ اصبح توفير غطاء جوي امرا حاسما في الحروب الحديثة التي تستخدم السلاح التقليدي، ولكن الثورة الفياتنامية اثبتت ان من الممكن لقوات المشاة الثورية تخطي هذا الشرط الذي يجمع عليه كل العسكريين الكلاسيكيين .

ينطبق ما تقدم على تكتيك المعارك الارضية اما الاسطول البحري وقوة الطيران فالعملية في الجوهر صراع بين آلات حديدية في قلبها الرجال ، لذا فان الجانب المادي في معارك الجو والبحر له الاهمية الحاسمة مثل السرعة والحركة والمدى والحماية والوزن والعدد . وتقرر نتائج المعركة ، اساسا ، بعدد السفن المغرقة والطائرات المسقطة، واذا لم تكن القوى المادية متوازنة فان احد الطرفين سيتخلى عن الميدان ، لذا فان التفوق في السلاح والمعدات هو الحاسم في معارك البحر والجو .

ان التكتيك في الجو والبحر يختلف عن الارض :

ا ـ العامل الطوبغرافي ملغي ، اما العوائق الوحيدة مثل الرياح والشمس والغيوم والضباب فهي دائما متساوية بين الطرفين بسبب عملية الحركة والمناورة .

ب ـ العامل الانساني اقل تأثيرا في معارك الجو والبحر .

جـ ـ ان القتال في تشكيلات خطوط وارتال لم يطبق في البحرية الا في مرحلة قصيرة ولم يطبق في الجو مطلقا .

د ـ الشيء الحاسم في معارك البحر والجو متوقف على الجانب المادي والتكنيكي فضلا عن اهمية التدريب والشجاعة .

واخيرا ان المعركة الجوية هي حصيلة معارك فردية، وهدفها تحطيم آلة الطيران المعادي في الجو، او في المطارات. لذلك فان مفهوم تكتيكها يختلف جوهريا عن تكتيك معارك الارض .

كان مركز الثقل بين العمليات والتكتيك يتنقل من احدهما الى الاخر، مع مراحل اندماج او توازن .

لقد كانت المرحلة الاولى، والتي امتدت ردحا طويلا من الزمان حتى اواخر القرن الثامن عشر ، باستثناء حروب الفتوحات الاسلامية الاولى ، قد تميزت باولوية المعركة على العمليات حيث كان الاساس هو الاشتباك والمناورة التكتيكية على ارض المعركة بالذات ، وفي اثناء الالتحام . وكان مركز الثقل في المعركة يتحدد اساسا في حجم القوات وقوة «النيران» . اما المرحلة الثانية، فقد انتقل فيها مركز الثقل الى العمليات اولا ، ثم الى الحركة وقوة النيران داخل المعركة ، وكان نابليون استاذ هذا التطوير الجديد في العصر الحديث . وجاءت المرحلة الثالثة ، والتي امتدت حتى نهاية الحرب العالمية الاولى آخذة في طريقها القرن التاسع عشر كله ، حيث انعقد نوع من التوازن الرجراج بين العمليات وحجم القوات والحركة التكتيكية وقوة النيران . لقد ادى تطور كثافة النيران والاسلحة والتجنيد العام، وتعميم التكتيك الكبير النابليوني، الى تكوين شبكة واسعة من الارتال اصبح الرجال مكثفين لتشكيل كتلة قتالية متأهبة دائما، مما انقص من قيمة
اصبح الرجال مكثفين لتشكيل كتلة قتالية متأهبة دائما، مما انقص من قيمة
العمليات النابليونية، وجعل الحركة التكتيكية في المعركة لا تقل اهمية عن حركة العمليات .

ان زيادة قوة النيران، وخاصة، البندقية السريعة، الى جانب الخنادق والمتاريس، ثم المدفع الرشاش، والاسلاك الشائكة، مع مطلع القرن العشرين، زاد كثيرا من قوة الدفاع، واصبحت عملية الاختراق صعبة، وبقي الامل لدى الهجوم في حركات الالتفاف حول الاجنحة غير المحمية، ولكن هذا الالتفاف يشترط لنجاحه ان يكون اسرع من نقل احتياط الدفاع واسرع من انسحاب الجناح المضروبة عليه عملية الالتفاف ، ولكن هذه السرعة لم تتوفر واسفرت عن التفاف يقابله انسحاب، ثم التفاف مضاد فانسحاب، والتفاف مضاد، كما حدث في الحرب العالمية الاولى بالنسبة لخطة سكليفن Schliffen ومعركة المارن Marne . وهنا دخل الوضع مرحلته الرابعة حيث امتدت الجبهة من سويسرا حتى بحر الشمال وتحولت الى معارك استنزاف.

رغم ان هذه الظاهرة سبقت وحدثت في الحرب الاهلية الامريكية ، وفي جبهة منشوريا في الحرب الروسية ـ اليابانية . لقد كان السبب في تحوّل حرب الحركة النابليونية الى جبهة راكدة :

أ ـ زيادة القدرة الدفاعية مع اختراع المدافع الرشاشة محمية بالخنادق والاسلاك الشائكة ، وتوفر عدد ضخم من الجنود والاحتياط .

ب ـ لما اصبحت حركة الالتفاف الجانبية غير ناجحة تدنت المعركة الى حرب خنادق، مع محاولات اختراق على امل اعادة الحركة للعمليات وللمعركة على حد سواء .

ج ـ تخلف جنرالات الحرب عن ايجاد التكتيك المناسب ، وحركة العمليات المناسبة في مواجهة قدرة الدفاع مع التطورات الجديدة في كثافة النيران والتحصين وسرعة الاحتياط .

وكان الحل الوحيد الذي فكر به الجنرالات في هذه المرحلة هو زيادة كثافة النيران ، خاصة ، نيران المدفعية ، وعلى الرغم من الزيادة الهائلة لتلك النيران فقد بقي الركود على حاله وثبت ان كثافة النيران مهما تعاظمت لا يمكن ان تكون حلا اذا لم تصحبها **حركة مناسبة** .

جاءت المرحلة الخامسة مع تطور استخدام الدبابات والطيران متجليا بتكتيك بليتزكريغ الالماني ، مما اعاد للحركة كل حيويتها ـ الحركة في المناورة الاستراتيجية والحركة في المناورة التكتيكية . ولكن هذه المرحلة تميزت بالاشتباك ممهداً لاختراق بعض نقاط دفاع الجبهة الطويلة يتبعه تغلغل في العمق مصحوبا بمناورات استراتيجية شبيهة بالمناورة النابليونية لفرض قرار في معركة حاسمة. وهناك عاد مركز الثقل الى الحركة ـ حركة الاشتباك ثم حركة العمليات ثم حركة الاشتباك ، وهذا عكس التكتيك الكبير النابليوني ـ العمليات تسبق وتهيء للمعركة ـ الان معركة الاختراق تسبق وتهيء للعمليات .

اما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد عاد مركز الثقل لحركة

العمليات ، ولكنها حركة سريعة الالتصاق بحركة المعركة . وذلك بسبب تضاعف السرعة وحركة القوات نتيجة تطور الطيران ليس كقوة ضاربة فحسب، وانما ايضا، كقوة مناورة تحمل القوات الارضية بآلياتها الى اية نقطة في جبهة العدو ووراء خطوطه الامامية لتبدأ مناوراتها وتفرض المعركة . ان تكتيك بليتزكريغ الذي كان يقضي باجراء عملية اشتباك اولا لنقل الدبابات الى ما وراء خطوط الدفاع ، اصبح الان عملية اشتباك جوي للسيطرة على الجو لنقل القوات الارضية. هذا وقد يتخذ اما شكل هجوم على المطارات او معارك جوية كتمهيد للعمليات ثم المعركة . واذا ترجمنا هذا الى لغة عسكرية فسوف يعني ان استراتيجية العمليات اصبحت شديدة الحركة مع سرعة التحرك والطيران ، وبالتالي زاد عمق المعركة ولم تعد جبهة امامية ـ خاصة في مرحلة الصواريخ النووية ـ بل اصبحت منطقة واسعة عمقا وعرضا وذات بعد جوي على غاية الاهمية ، ولم تعد خطوطا وجبهات وانما اتجاهات .

الى هنا نكون قد مهدنا بخطوط عريضة عامة لندخل في موضوع دراسة التكتيك بتفصيل يزيد الصورة وضوحا .

تطور التكتيك

لم يتطور التكتيك العسكري صعداً من الادنى الى الارقى على شكل تطور مطرد متناسق، كما لم يكن دائما في مستوى التطور التكنيكي والصناعي والاقتصادي والاجتماعي لانه كثيرا ما كان يتخلف عنه ، ويظل اسيرا للتقاليد لمدى طويل او قصير ، ولكنه كان في النهاية يعود ليصبح في ذلك المستوى. يقول كلاوسيفتز : «اي شيء اكثر بدهية من ان يكون للحرب الثورية (الفرنسية) طريقتها الخاصة في التصرف ومعالجة الاشياء ؟ ولا يمكن للنظرية الا ان تشمل تلك الطريقة الخاصة ، بيد ان المعضلة هنا ان النظرية المتولّدة عن حالة خاصة سرعان ما يولي زمانها ، لانها تستمر في البقاء **دون تغيير** في حين تكون الظروف قد اخذت **تتغير** كليا بالتدريج . وهذا ما يجب على النظرية ان تتجنبه من خلال النقد المرن العقلاني» . ان كلاوسيفتز ، **في الواقع** ، **يطرح** هنا موضوعة صحيحة على غاية الاهمية

رغم ان هذه الظاهرة سبقت وحدثت في الحرب الاهلية الامريكية ، وفي جبهة منشوريا في الحرب الروسية ـ اليابانية . لقد كان السبب في تحوّل حرب الحركة النابليونية الى جبهة راكدة :

أ ـ زيادة القدرة الدفاعية مع اختراع المدافع الرشاشة محمية بالخنادق والاسلاك الشائكة ، وتوفر عدد ضخم من الجنود والاحتياط .

ب ـ لما اصبحت حركة الالتفاف الجانبية غير ناجحة تدنت المعركة الى حرب خنادق، مع محاولات اختراق على امل اعادة الحركة للعمليات وللمعركة على حد سواء .

ج ـ تخلف جنرالات الحرب عن ايجاد التكتيك المناسب ، وحركة العمليات المناسبة في مواجهة قدرة الدفاع مع التطورات الجديدة في كثافة النيران والتحصين وسرعة الاحتياط .

وكان الحل الوحيد الذي فكر به الجنرالات في هذه المرحلة هو زيادة كثافة النيران ، خاصة ، نيران المدفعية ، وعلى الرغم من الزيادة الهائلة لتلك النيران فقد بقي الركود على حاله وثبت ان كثافة النيران مهما تعاظمت لا يمكن ان تكون حلا اذا لم تصحبها **حركة مناسبة** .

جاءت المرحلة الخامسة مع تطور استخدام الدبابات والطيران متجليا بتكتيك بليتزكريغ الالماني ، مما اعاد للحركة كل حيويتها ـ الحركة في المناورة الاستراتيجية والحركة في المناورة التكتيكية . ولكن هذه المرحلة تميزت بالاشتباك ممهدا لاختراق بعض نقاط دفاع الجبهة الطويلة يتبعه تغلغل في العمق مصحوبا بمناورات استراتيجية شبيهة بالمناورة النابليونية لفرض قرار في معركة حاسمة. وهناك عاد مركز الثقل الى الحركة ـ حركة الاشتباك ثم حركة العمليات ثم حركة الاشتباك ، وهذا عكس التكتيك الكبير النابليوني ـ العمليات تسبق وتهيء للمعركة ـ الان معركة الاختراق تسبق وتهيء للعمليات .

اما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد عاد مركز الثقل لحركة

العمليات ، ولكنها حركة سريعة الالتصاق بحركة المعركة . وذلك بسبب تضاعف السرعة وحركة القوات نتيجة تطور الطيران ليس كقوة ضاربة فحسب، وانما ايضا، كقوة مناورة تحمل القوات الارضية بآلياتها الى اية نقطة في جبهة العدو ووراء خطوطه الامامية لتبدأ مناوراتها وتفرض المعركة . ان تكتيك بليتزكريغ الذي كان يقضي باجراء عملية اشتباك اولا لنقل الدبابات الى ما وراء خطوط الدفاع ، اصبح الان عملية اشتباك جوي للسيطرة على الجو لنقل القوات الارضية. هذا وقد يتخذ اما شكل هجوم على المطارات او معارك جوية كتمهيد للعمليات ثم المعركة . واذا ترجمنا هذا الى لغة عسكرية فسوف يعني ان استراتيجية العمليات اصبحت شديدة الحركة مع سرعة التحرك والطيران ، وبالتالي زاد عمق المعركة ولم تعد جبهة امامية ـ خاصة في مرحلة الصواريخ النووية ـ بل اصبحت منطقة واسعة عمقا وعرضا وذات بعد جوي على غاية الاهمية ، ولم تعد خطوطا وجبهات وانما اتجاهات .

الى هنا نكون قد مهدنا بخطوط عريضة عامة لندخل في موضوع دراسة التكتيك بتفصيل يزيد الصورة وضوحا .

تطور التكتيك

لم يتطور التكتيك العسكري صعداً من الادنى الى الارقى على شكل تطور مطرد متناسق، كما لم يكن دائما في مستوى التطور التكنيكي والصناعي والاقتصادي والاجتماعي لانه كثيرا ما كان يتخلف عنه ، ويظل اسيرا للتقاليد لمدى طويل او قصير ، ولكنه كان في النهاية يعود ليصبح في ذلك المستوى. يقول كلاوسيفتز : «اي شيء اكثر بدهية من ان يكون للحرب الثورية (الفرنسية) طريقتها الخاصة في التصرف ومعالجة الاشياء ؟ ولا يمكن للنظرية الا ان تشمل تلك الطريقة الخاصة ، بيد ان المعضلة هنا ان النظرية المتولدة عن حالة خاصة سرعان ما يولي زمانها ، لانها تستمر في البقاء **دون تغيير** في حين تكون الظروف قد اخذت **تتغير** كليا بالتدريج . وهذا ما يجب على النظرية ان تتجنبه من خلال النقد المرن العقلاني» . ان كلاوسيفتز ، في الواقع ، يطرح هنا موضوعة صحيحة على غاية الاهمية

تفسر التطور المتفاوت بين تخلف النظرية وبين تغير الظروف . كما تفسر لماذا لم يتطور التكتيك صعداً من الادنى الى الارقى على شكل تطور مطرد ، وانما اخذ شكل تعرجات تشبه الرسم البياني لسلسلة جبال تعلو قممها وتهبط ، كما ان تلك القمم لا ترتفع باطراد، وانما قد ترتفع احداها لتتلوها مجموعة من القمم ادنى منها ثم تأتي قمة اعلى وهكذا .

لقد تطور التكتيك العسكري زمن المصريين القدماء تطورا عاليا جدا كما يبدو من تفاصيل معركة قادش ١٢٨٨ ق.م حيث نظموا جيوشهم الى فرق ذات اكتفاء ذاتي تتألف كل فرقة من مختلف الاسلحة (مشاة ، رماة النبل ، العربات المحاربة) تعمل كلها بتناسق رائع في المعركة . كما اقاموا نظاما اداريا عالي الكفاءة ، واستخدموا تكتيك الالتفاف على الاجنحة ، واساليب الهجوم التضليلي مع التركيز على نقطة الهجوم الرئيسي . ولكن هذا المستوى من التكتيك لم يحافظ عليه ، ولم يطور في زمن اليونان والرومان والفرس ، بل تدنى مستواه ، خاصة ، مع تشكيلة الفلانكس Phalanx المكدونية حيث راح القتال يأخذ شكل خطين متوازيين تقف المشاة الثقيلة في المقدمة ووراءها المشاة الخفيفة بينما ينتشر رماة النبل والحجارة في الخط الثاني ، اما الفرسان فعلى الجناحين ، ان مشكلة تشكيلة الفلانكس هي ثقل كتلتها وصعوبة مناورتها ، اذ ما ان يشتبك الطرفان حتى يصبح اي تحرك من قبل تشكيلة الفلانكس غير ممكن ، عدا المضي في الصدام حتى النهاية . ولعل اخطر نقاط الضعف في هذه التشكيلة ، والتي تفرض تكتيكا جامدا، انها خاليةمن الاحتياط وغير قادرة على التأقلم مع كل الظروف الطوبغرافية، فهي لا تستطيع ان تعمل الا في الارض المنبسطة لان قوتها تنبع من تماسك كتلتها .

اكتشف هانيبال هذا الضعف فأضاف لتشكيلة الفلانكس خطا ثالثا يمثل الاحتياط. وقد استخدمه بمهارة فائقة في معركة طريبة Trebia (٢١٨ ق.م) حيث اشغل وسط الجيش الروماني بقوته الرئيسية الامامية، وهاجم جناحه الايسر بدفعة قوية من الفرسان والمشاة في لحظة حاسمة من لحظات المعركة . وكان الرومان قد اضافوا هم ايضا تشكيلة الخط الثالث الاحتياطي، واسموا تشكيلتهم بالليجون Legion وهي مثل تشكيلة الفلانكس من خطين متوازيين صداميين مضافا اليهما خط التعزيز او الاحتياط. وقد سموا تلك الخطوط انساق (ايشلونات) . ولكنهم قسموا

كل نسق (ايشلون) الى وحدات اصغر مما اكسبه عمقا وبالتالي اصبحت كتلة الليجون قادرة على التوزع والتشكل كما يمكن ان تجزأ لوحدات اصغر متحركة . وقد برزت قيمة هذا التشكيل الجديد على الفلانكس اليوناني في معركة بدنا Pydna (١٦٨ ق.م) حيث جروا الفلانكس الى ارض غير مستوية فانفصل جناحاه وهنا اندفع الرومان كرأس سهم ضاربا اسفينا مزق الفلانكس رغم دقة نظامه وتدريبه الجيد ، وهكذا برزت قيمة الحركة والمرونة واستخدام الاحتياط بينما ظهر جمود الفلانكس وعدم قدرته على الحركة المرنة والتشكيل السريع ، وافتقاره للاحتياط ، وميزة التأقلم مع الارض غير المستوية .

تكرست تشكيلة الثلاثة خطوط بدل الخطين اليونانيين منذ ذلك التاريخ . والى امد طويل .

بعد معركة ادريانوبل Adrianople (٣٧٨ م) سحقت الليجونات الرومانية امام هجمة الفرسان التي استخدمت لتقوم بدور تكتيك الصدمة الهجومية الرئيسية . ومنذ ذلك التاريخ تخلى الرومان عن الليجونات ــ المشاة القوة الرئيسية ــ وجعلوا الفرسان سلاحهم الرئيسي . كان تكتيك المشاة باستخدامالرمح والسيف عاجزا عن مواجهة صدمة الفرسان. وهنا استخدم تكتيك مضاد للفرسان وهو القوس والنشاب ، وجاء جوستنيان في القرن السادس ليعالج هذا التكتيك المضاد فقسم الفرسان الى قسمين: (أ) الفرسان الخفيفة وسلاحها القوس والنشاب تطلق سهامها في كل اتجاه وهي تعدو بسرعة على خيولها ،(ب) الفرسان الثقيلة وسلاحها السيوف والرماح ومهمتها انزال الصدمة الهجومية الرئيسية بعد ان تكون المشاة الخفيفة قد عطلت رماة السهام من المشاة او ضعضعتهم . اما تنظيم الجيش البيزنطي فقام على اساس وحدة الباندوم Bandum (٤٠٠ رجل) وكل ثلاث او اربع وحدات باندوم تشكل لواء وكل ثلاثة الوية تشكل فرقة او تورما Turma وقد امنت للجيش ادارة كفوءة ، فكانت هنالك عربة لوجستيكا لكل ١٦ رجلا الى جانب خدمات طبية منظمة .

كان الفرس في تلك الفترة قد طوروا استخدام سلاح الفيلة ليلعب دور الصدمة التي تشق صفوف المشاة بينما تكون مشاة الفرس خلف الفيلة مباشرة لاتمام الهجوم ، وهو تكتيك شبيه بتكتيك اواخر الحرب العالمية

الاولى في استخدام الدبابات ووراءها المشاة لتحقيق الاختراق .

وجاء العرب ليتفوقوا على كل من قبلهم في مجال التكتيك العسكري ، خاصة ، في مجال الحركة التكتيكية ، وتشكيلات القوات ، وتعاون مختلف صنوف الاسلحة وابتداع فن المناوشة (١) .

ولكن هذا التطور الذي احدثه العرب لم يحافظ عليه في اوروبا التي هوت بين براثن الاقطاع وعقلية الفروسية . رغم ان سلاح الفرسان اصبح في عهد الاقطاع ، هو السلاح المتفوق ، غير انه فقد قوة المناورة التي اعطاها له العرب ، فغدا كتلة من الحديد الثقيل فوق الفرس تتقن فن المبارزة الفردية مع انحدار في فن تكتيك التشكيلة القتالية في معركة تتعاون فيها الاسلحة كلها وتتوالى ادوارها بتناغم .

ولعل الفترة الوحيدة في هذه المرحلة ، التي تطور فيها التكتيك ، هي تلك التي جاءت على اثر تجارب جيوش اوروبا الاقطاعية في الحروب الصليبية ، حيث افادت من الدراسات النظرية التي خلفتها الامبراطورية الرومانية الشرقية ، التي عامل منظروها الحرب كعلم ووضعوا مجموعة من الدراسات النظرية وكراسات تعليمات ميدان تغطي مختلف مجالات الحرب، وان اهم هذه الاعمال كتبها الاباطرة ، خاصة موريس Maurice في كتابه « الاستراتيجية » Strategieon في عام ٥٨٠ م ، ومؤلف الامبراطور ليو Leo الحكيم الذي امتد حكمه من ٨٨٦ — ٩١٢ . وقد بحثت في هذه الدراسات مسائل التنظيم في الجيش والادارة وتسلسل القيادة وتقسيماته وعمله التكتيكي في الميدان والاعتبارات الاستراتيجية التي يجب ان يراعيها القادة . وقد انعكست هذه الدراسات على الجيوش الصليبية التي شكلت الجيش من الفرسان الثقيلة والمشاة وجعلته كتلة واحدة مع تكتيك يجمع بين حركة الفرسان و « نيران » (سهام) المشاة . وبهذا تفوق التكتيك العسكري الاوروبي في حروب الشرق على التكتيك العسكري بين الاقطاعيين في اوروبا .

(١) راجع الدراسة الخاصة بحروب العرب وحروب نابليون في نهاية هذا الكتاب .

لكن هذا التكتيك سقط امام تكتيك المسلمين الذي امتاز بقوة المناورة وحركة المناوشة والسرعة ، اذ بينما كانت جيوش الصليبيين تتحرك ككتل متماسكة وتعتمد على صدمة هجوم الفرسان في الاشتباك ، راح المسلمون على خيولهم الخفيفة يناورون بشكل متحرك سواء في اثناء الاشتباك ، او في ازعاج جيش العدو في اثناء الزحف . وقد استخدموا الخيالة من رماة السهام لتناوش الجيوش الثقيلة من الاجنحة ومن المؤخرة وتكر عليها ثم تفر لتستدرجها الى مصائد او تنهكها ، ثم يأتي دور الصدمة الهجومية في اللحظة الحاسمة ، اما صلاح الدين الذي برع في تطبيق هذا التكتيك برع في ابداع تكتيك آخر وهو العمل على فصل المشاة عن الفرسان في جيش العدو وضرب الطرفين منفصلين بعد ان يفقدا عنصر الجمع بين سهام المشاة وصدمة الفرسان .

على كل حال، ان استعراضنا لتطور التكتيك في هذا الكتيب، محصور اساسا في تطوره في اوروبا لكي نأتي تدريجا الى بحث التكتيك في عصر نابليون ثم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين — اي مرحلة الاسلحة النارية . ولهذا فان تطور التكتيك لدى الشعوب الشرقية في آسيا لم يعط حقه في هذه الدراسة . لان الدخول فيه يحتاج الى بحث مطول مستقل . وان كان من الضروري التنويه بصورة عامة ان الشرق ، خاصة ، المغول والعرب قد ابدعوا في فن المناورة التكتيكية وفن المناوشة .

تطور التكتيك في عصر الاسلحة النارية

كتب انجلز في « ضددوهرنغ » يقول « لقد جلب البارود من العرب الى اوروبا الغربية ، في مطلع القرن التاسع عشر ، وقد ادى ذلك ، كما يعرف كل تلميذ مدرسة ، الى احداث تطوير اساسي في قواعد الحرب » . ولكن انتاج البارود والاسلحة النارية يتطلب صناعة ومالا ، وكان هذان الجانبان يوجدان بأيدي سكان المدن ، لذلك كانت الاسلحة النارية منذ البداية اسلحة المدن واسلحة الملكية المعتمدة على المدن في كفاحها ضد النبلاء الاقطاعيين ، وقد راحت الاسوار الحجرية حول قصور النبلاء تتساقط امام مدافع سكان المدن ، كما اخذ رصاص البنادق والطبنجات يخترق دروع فرسانهم. وهكذا اصبحت المشاة والبنادق هي العامل الاكثر

حسما مع تطور البرجوازية .

كان الاتراك من جهة وجيوش بولندا من جهة اخرى هم اول من حاول تشغيل المدفعية في الميدان ، وان كان الاتراك قد برعوا في استخدام مدفعية الحصار ، ولكن غرب اوروبا ظلت متخلفة عن المناورة في المدفعية في الميدان ، وكان اقصى استخدام لها يتركز في وضعها وسط خط الجبهة دون ان تلعب دورا متحركا .

اما الطبنجات والبنادق فقد ظلت اسلحة بطيئة وبدائية ، ولهذا بقي دورها مساعدا لانها كانت بعد اول اطلاق جماعي Volley تنشغل في اعادة الدك للاطلاق الثاني ، وهنا تصبح تحت رحمة هجمة الفرسان ، مما اقتضى تجميع حملةالبنادق منالمشاة في خط متراص على طريقة الفلانكس واصبحوا كتلة ثقيلة دفاعية وبحاجة ايضا الى صف آخر من حملة الرماح للدفاع عنها امام هجمة الفرسان . كان سلاح الفرسان في هذه المرحلة يشكل القوة الرئيسية . اما المشاة والمدفعية فأسلحة مساعدة .

ادخل غوستاف ادولف (١٥٩٤ – ١٦٣٢) تحسينات اساسية على تنظيم الجيش ، فجعل سرية المشاة ١٥٠ رجلا (٧٥ حملة بنادق و ٥٩ مسدسات – طبنجات – والبقية ضباط ومساعدي ضباط) ، والف الكتيبة من اربع سرايا ، واللواء من ست كتائب . وخفف وزن البندقية وقصر الرمح من ١٦ قدما الى ١١ قدما ، وكانت التشكيلة شبيهة بالليجيون الروماني (ثلاثة خطوط متوازية) ، وحرر الفرسان من البنادق وقصر اسلحتهم على السيوف والطبنجات ليصبحوا اخف وبالتالي أسرع حركة . وقسم المدفعية الى ثلاث فئات :

١ – المدفعية الثقيلة للحصار اساسا .

٢ – مدفعية ميدان ثقيلة ومتوسطة .

٣ – مدفعية كتيبة – باوندين – تصحبها المشاة الخفيفة .

لقد ادى ادخال مدافع الميدان الخفيفة الى زيادة كثافة النيران مع

حركة تكتيكية للرمي على اية نقطة ، وهذا عكس مدافع الميدان الثابتة التي كانت ترمي على اتجاه واحد فقط . واذا اضيف الى هذا ادخاله للحربة على البندقية يكون قد جعل المشاة سلاحا رئيسيا يلعب دور قوة صدام لان ادخال الحربة على بندقية المشاة جعل من الممكن توزيع الخط ، وتخفيف التراص مما قلل اخطار المدفعية المضادة ، وحرر المشاة من ضرورة حمايتها بوحدات الرماح ضد هجمات الفرسان .

ان اصلاحات غوستاف ادولف عززت دور المدفعية – مدفعية الميدان المتحركة – ومعها سلاح المشاة . ولكن هذه الاصلاحات لم تصبح عامة في اوروبا ولم تجد تكتيكها المناسب الا بعد مرور زمن طويل . وكان فردريك الكبير (١٧١٢ – ١٧٦٨) قد ارتفع باصلاحات غوستاف ادولف الى اعلى ذروة حتى ذلك الوقت ، فيما يتعلق بتنظيم المشاة على ثلاثة خطوط ، وقد جعلها على شكل مربع اجوف طويل الجبهة . وتتم حركته على اساس كتلة واحدة وفقا لنظام التحرك العسكري في المعركة كما طور فريدريك الكبير تكتيك الخط المائل . ويقول انجلز عن تشكيلة الخطوط في زمن فردريك الكبير : « ان مثل هذه الكتلة ثقيلة الحركة لا يمكن ان تتحرك بهذه التشكيلة الا على ارض منبسطة تماما ، بل وحتى في هذه الحالة ، فان تحركها يتم بمعدل بطيء جدا (خمس وسبعون خطوة في الدقيقة) . اما تغيير هذا التشكيل في المعركة فكان امرا محالا ، اذ ما ان تشتبك المشاة مع بعضها البعض فان النصر او الهزيمة يتقرران بسرعة، وبضربة واحدة».

ادخل تكتيكان هامان خلال هذه الفترة احدهما جاء بوساطة توريني Turenne (١٦١١ – ١٦٧٥) وهو محاولته تغيير نظام الخطوط الثلاثة المتوازية بتشكيلات تستطيع القيام بمناورات تكتيكية مثل الاستطلاع والتمرن على فن الاستكشاف وحماية الجيش في اثناء الزحف . اما التطور الثاني فكان على يد مارلبورو (١٦٥٠ – ١٧٢٢) حيث ارسى تكتيك احتلال الموقع الاستراتيجي اكثر من الاهتمام بتكتيك مهاجمة نقاط الضعف في جيش العدو ، واثبت في معركة راميليس Ramillies ١٧٠٦ – في بلجيكا – ان اشد نقاط الضعف والخطر هي تلك القريبة من خطوط انسحاب العدو . ان هذين التكتيكين اصبحا يتطلبان لتنفيذهما احداث تغيير اساسي في تشكيلة الخطوط ، ولكن هذا التغيير انتظر طويلا حتى مجيء نابليون .

تكتيك المناوشات

بينما كانت اوروبا تقاتل بتشكيلة الخطوط كانت القارتان الامريكية والاسيوية تمارسان تكتيكا أرقى وهو تكتيك وحدات المناوشة التي تقاتل في الغابات وخلف الصخور وتنصب الكمائن ، وتستخدم الحركة الفائقة في تكتيكها .

لقد لاقى البريطانيون الامرين من تشكيلات الهنود الحمر القائمة على اساس فن المناوشة skirmishing حيث راحوا يقاتلون تشكيلات الخطوط من مسافات ابعد ومن وراء مواقع مستورة .

وكان هذا الفن متطورا جدا في آسيا ، وبصورة تقليدية ، وقد طبقته باستمرار القبائل العربية في شمالي افريقيا وفي الصحراء كما طبقته القبائل في افغانستان الخ.

اعادت حرب الاستقلال الامريكية الحياة من جديد لهذا التكتيك ، حيث راحت تشكيلات الثوار تقاتل بزمر موزعة وقوات سريعة الحركة ، وبقناصة منتشرين تحت غطاء الغابات والصخور . ويقول فردريك انجلز « فأصبحت تشكيلة الخطوط تحت مثل هذه الظروف ، بلا حول ولا طول ، فلحقت بها الهزيمة من خصوم غير مرئيين وغير ملموسين . لقد اعيد اكتشاف القتال باسلوب المناوشات ، وهو اسلوب جديد في الحرب جاء نتيجة للتغير الذي طرا على المادة الانسانية في الحرب » .

تكتيك نابليون

جاء نابليون ليجسّد التطور الكيفي الذي حدث مع اندلاع الثورة الفرنسية ، وليصل حد الكمال ب :

١ – تطويرات غوستاف ادولف فيما يتعلق باستخدام المدفعية في الميدان

٢ – تطويرات تورين حول المناورة

٣ – تطويرات مارلبورو حول الافادة من الارض

٤ – تطويرات فردريك الكبير في مفاجآته التكتيكية البارعة

٥ – تطويرات حرب الاستقلال الاميركية حول فن المناوشة واستخدام القناصة .

٦ – تطويرات الثورة الفرنسية باستخدام تشكيلة الرتل .

وكان امامه استخدام جيش ضخم مؤلف من تجنيد امة بأسرها . فأبدل تشكيلة الخطوط واحل محلها تشكيلة الرتل Column مما اتاح لقوات قليلة التدريب ان تتحرك بمستوى جيد من النظام ، والاهم ان تتحرك بسرعة اكبر (مائة خطوة واكثر في الدقيقة)، وكانت لهذه التشكيلة مزايا اخرى : (١) سهولة قيادتها (٢) مقدرتها على المناورة (٣) مقدرتها على التأقلم مع اية ارض (٤) توفير العمق الذي برزت اهميته في معركتي ريفولي Rivoli ومارينغو Marengo واذا اضيف لها مجموعات القناصة ، وزمر المناوشة ، واستخدامه البارع للمدفعية ، فمن السهل التصور مدى تفوقه التكتيكي على تشكيلة الخطوط الجامدة . مما اتاح له اختراقها بسهولة . كان تكتيك نابليون في المعركة يبدأ بهجمات صغيرة من مجموعات القناصة ، والمناوشة ، لاشغال تشكيلات الخطوط وابقائها في حالة اشتباك ، وبالتالي انهاكها عموما ، بينما يكون قد ركز مدفعيته على النقطة التي حددها للاختراق . وما ان يمزق تلك النقطة وينهنه بقية الجيش بعمليات القناصة ينتقل الى الهجوم في اللحظة المناسبة قبل ان يستعيد العدو رباطة جأشه، ويعيد تنظيم خطوطه، خاصة، نقطة الاختراق. هنا كان يشن هجوم المشاة بكل قوة تشكيلة الرتل الذي اعطى الاختراق عمقا وجبهة . وبهذا جاءت انتصاراته حاسمة .

يلاحظ مما تقدم ان نابليون لم يكن استاذ الاستراتيجية والعمليات الاستراتيجية فحسب ، وانما ايضا استاذ التكتيك وذلك بالجمع البارع بين النيران والحركة والتشكيلة المناسبة واختيار نقطة توجيه الضربة

الرئيسية مع اختيار اللحظة الحاسمة لتوجيهها .

اما هزيمة نابليون في ووترلو فلها مجموعة من الاسباب السياسية والدولية ، ولكن اذا اخذت المعركة من الناحية العسكرية الصرف ، فقد تفوق عليه ويلنغتون بالقيادة التكتيكية للمعركة مستفيدا من دروس نابليون نفسه . حقا قام نابليون بمناورة استراتيجية عبقرية حين ركز قسما من قواته سرا في شارلوروا Charleroi ، ونصب مصيدة ماكرة على الطريق الرئيسي نامور – نيفل Namur - Nivelles . ولكن ويلنغتون حسب لتكتيك نابليون بدقة فأفاد جدا من طوبغرافية الارض لحماية جنوده من تركيز نيران المدفعية ، وقرر اتخاذ موقف دفاعي بقصد استيعاب نيران المدفعية والصدمة الهجومية التي ستليها ، وبرع في اعادة تشكيل قواته بسرعة فائقة لشن الهجوم المضاد . وهكذا جاءت معركة ووترلو لتستنفد ابعاد تكتيك نابليون وتحتاط له بتكتيك مضاد .. الدفاع المدروس جيدا ينتقل في اللحظة الحاسمة وبسرعة فائقة الى هجوم مضاد .

قبل الانتقال الى التكتيك في القرن التاسع عشر يحسن ان نستعيد ملحوظة انجلز حول العاملين التكنيكيين الذين اديا الى مساعدة نابليون على تطوير اساليب الحرب : الاول ، العربات السريعة الخفيفة حاملة مدافع الميدان التي صممها غيريبوفال Gribeaval – (١٧١٥ – ١٧٨٩) – والتي امنت حركة اكثر سرعة حسب متطلبات الحرب في هذه المرحلة ، اما الثاني ، فهو امالة مقبض كعب البندقية الذي كان حتى ذلك الوقت باستقامة امتداد «سطانة البندقية» وقد دخل هذا التحسين الى فرنسا عام ١٧٧٧ نقلا عن بنادق الصيد ، فغدا من الممكن احكام التسديد على فرد محدد دون ان يخطأ بالضرورة. ولهذا اصبح من الممكن بفضل هذا التحسين على البندقية استخدام تكتيك المناوشات الذي كان تطبيقه بالسلاح القديم عديم الجدوى .

التكتيك في القرن التاسع عشر :

كان القرن التاسع عشر عصر الثورة الصناعية والعلمية . وادى هذا بدوره الى تطوير الاسلحة ، خاصة ، البندقية السريعة التي تعبأ من المخزن

الى جانب تطوير المدافع . واذا ما أضيف الى ذلك امكانية الانتاج الغزير ، ورخصه بالتالي ، الى جانب شيوع نظام التجنيد الاجباري في كل دول اوروبا . فسوف نتصور الجيوش كبيرة ، تشكل المشاة المسلحة بالبنادق السريعة الحديثة قوتها الرئيسية مدعومة بنسبة ثلاثة مدافع ميدان لكل الف رجل . وهي مدافع ذات نوعية جيدة جدا – طبعا بالنسبة لذلك العصر .

اذا ترجمنا ما تقدم الى اللغة العسكرية فيعني أن كثافة النيران اصبحت عالية جدا . وقد عبرت الحرب البروسية – الفرنسية ١٨٧٠ عن نتائج هذا التطور ، ولنترك فريدريك انجلز يصف الوضع : « كانت الحرب البروسية – الفرنسية اول حرب يتقابل فيها جيشان ، وكلاهما مسلح بالبنادق التي تعبأ راسا من المخزن . اما ما هو اكثر من ذلك فكون كل منهما قد استخدم التشكيلة التكتيكية نفسها ... » « ولم يكن هنالك من فرق بينهما سوى اضافة البروسيين لتشكيلة الرتل تشكيلة الرتل المرافق، في محاولة ، لايجاد شكل للقتال ينطبق ، بصورة افضل ، على نوع السلاح الجديد . ولكن عندما حاول الحرس البروسي في موقعة سان بريفات St Privat ، في ١٨ آب (اغسطس) ، تطبيق استخدام تشكيلة الرتل المرافق تطبيقا جديا ، واذا بالفرق الخمس المشتبكة ، بصورة رئيسية ، تفقد اكثر من ثلث قوتها (١٧٦ ضابطا و ٥١١٤ جنديا) في اقل من ساعتين . فهجرت ، منذ ذلك التاريخ ، تشكيلة الرتل المرافق ، بصورة لا تقل عن هجران تشكيلة رتل الكتيبة وتشكيلات الخطوط . لقد هجرت كل فكرة تقول بكشف الجيش ، بأي شكل من الاشكال ، كشفا يضعه ضمن مدى نيران العدو . ولهذا فقد واصل الالمان بقية القتال معتمدين على تلك المجموعات التي تشن حرب المناوشة وحلت الارتال تلقائيا لتتحول الى مثل تلك المجموعات تحت تأثير وابل مخيف من النيران ، ولكن هذه العملية لاقت ، ايضا ، معارضة من ضباط المراتب العليا بحجة انها منافية للانضباط الجيد ، بيد انها تشكل ، في الوقت نفسه ، الشكل الوحيد المناسب للتحرك تحت نيران مضاعفة من بنادق العدو . وهكذا اثبت الجندي ، مرة اخرى، انه اذكى من قائده . فقد كان الفضل يرجع للجنود، حين اكتشفوا ، بالغريزة ، الاسلوب الوحيد للقتال الذي اثبت جدارته حتى الان تحت نيران البنادق السريعة التي تعبأ من المخزن . وقد نفذ الجنود هذا الشكل رغما عن ضباطهم ، تنفيذا ناجحا » .

اذا ترجمنا هذا التطور الى عبارات اخرى فسنجد ان سرعة الاطلاق من البندقية أعطى للحركة التكتيكية في المعركة كثافة نيران لم يسبق لها مثيل ، وهذا يعني ان تكتيك هجمات المشاة الجماعية او الفرسان على مواقع الدفاع اصبح تكتيكا ملغى لان ازدياد مدى النيران مع الكثافة الشديدة ، يفترضان عبور المهاجمين مسافة طويلة تحت مدى النيران قبل ان يصلوا الى تحصينات الدفاع ، وبالتالي سيحصدون جماعيا قبل ان يتحقق لهم الالتحام القريب . وهذا يعني بلغة التكتيك العسكري تفوق الدفاع تكتيكيا على الهجوم .

تأكيدا على صحة هذه الموضوعة ، لنراجع دروس الحرب الاهلية الامريكية حيث تميزت :

١ ـ جيشان ضخمان كل منهما قد تجمد خلف تحصيناته بانتظار هجوم الآخر وقد ركدت الجبهة وامتدت على خط طويل جدا .

٢ ـ استخدام شبكة المتاريس والخنادق من قبل القوات المدافعة .

٣ ـ زيادة كثافة نيران الدفاع مع شيوع استخدام البندقية السريعة التي تعبأ من المخزن .

عندما كان الجنرال لي Lee في موقف دفاعي ركز قواته بين متاريس من الخشب خدمت كغطاء للمدافعين وشكلت عقبات في طريق المشاة المهاجمة . وكان هذا هو حال القوات الاخرى وهي في حالة الدفاع . لقد ادى هذا الوضع الى رجحان كفة الميزان لمصلحة الدفاع ، لا لمصلحة الهجوم ، لان المدافع المتمترس مغطى جيدا ، وقادر على ضرب المهاجمين من مسافة بعيدة ، وهنا كان على المهاجم قطع مسافة طويلة تحت نيران كثيفة ، وبعد ذلك كان عليه ان يكافح لتجاوز المتاريس او الخنادق. ولهذا كان اي هجوم بتشكيلة كبيرة يعني خطر الابادة ، ولم يكن من الممكن اي تحرك ضمن هذا الظرف الا لوحدات صغيرة ـ وحدات مناوشة ـ فقط ، لانه كان باستطاعتها ان تدور خلف المتاريس ، او تتقدم تحت غطاء نيران كثيفة . اما تقدم تشكيلة كبيرة من المشاة فقد اصبح مغامرة غير محمودة العواقب .

لم تستطع قوات الشمال ان تحرك وضع الحرب الا حين اخذت تناور حول معسكر ميل سبرينغ Mill Spring المحصن ، في محاولة ، لايهام المدافعين الجنوبيين ان امامهم قوة صغيرة، ولما ابتلع زوليسوفر Zollicoffer الطعم خرج بقواته من وراء التحصينات ، واذا به يواجه بقوة ممترسة متفوقة .. فتمزق جيشه وراح الشماليون يتابعون المعركة والملاحقة حتى حققوا انتصارا حاسما .. وهكذا بدات نقطة الانعطاف في تدهور وضع الجنوبيين الذين لو بقوا خلف خنادقهم ، ولم يوزعوا معسكراتهم عن بعضها كثيرا ، لكان على الشمال ان يقاتل امدا اطول بكثير .

عندما اخذ القرن التاسع عشر يقفل أبوابه وافتتح القرن العشرين بالحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ ، كان الدفاع قد قفز خطوة اخرى الى الامام ، مع اختراع المدفع الرشاش والاسلحة الرشاشة الخفيفة .. وزادت الخنادق عمقا وشيدت التحصينات الاسمنتية ومدت شبكات الاسلاك الشائكة .. وقد أدت هذه التطورات الى تحويل هجمات المشاة الجماعية الى مغامرة خرقاء تماما .

التكتيك في الحرب العالمية الاولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الاولى لم يكن الجنرالات في كلا الطرفين المتحاربين قد ادركوا ابعاد التطور الجديد الذي دخل لمصلحة الدفاع ، ولم يفيدوا مطلقا من دروس الحرب البروسية ـ الفرنسية ، او الحرب الاهلية الامريكية ، او الحرب الروسية ـ اليابانية في جبهة منشوريا ، فظلوا يعيشون ضمن اوهام الهجوم الجماعي والشجاعة والحرية ، وقدروا ان زيادة اعداد المدافع ـ اصبحت ستة لكل الف رجل مع تحسين نوعيتها جدا ـ وكثافة نيرانها ستتكفل بالخنادق والمتاريس والاسلاك الشائكة واعشاش الرشاشات . ولم يقصر المارشال فوش الفرنسي في التغني بميزات الهجوم وتفوقه على الدفاع . وقد راح الجنرالات الانكليز وكذلك الالمان يعزفون على الوتر اياه .

راحت الاوامر تصدر بشن الهجمات الكثيفة الجماعية لاكتساح مواقع الدفاع بهجمات جبهية . وكانت النتيجة ارتفاع ارقام الضحايا ارتفاعا مربعا دون نتيجة تذكر . اما عمليات الالتفاف على الاجنحة فكما سبق

وقلنا ، دخلت مأزقا مسدودا هي الاخرى عندما تبين ان سرعة جلب الاحتياط تضاهي سرعة الالتفاف وكذلك سرعة انسحاب الجناح تعادل سرعة الاختراق ، واسفرت عن عملية التفاف فعملية التفاف مضاد، فعملية التفاف مضاد .. وهكذا تجمدت الجبهة من سويسرا حتى بحر الشمال واصبحت حرب خنادق وحرب استنزاف طويلة حتى بدت وكان لا نهاية لها — فيردان Verdun وسوم Somme .

راح الجنرالات يجربون تكتيكات جديدة لمعالجة الدفاع المتمترس وراء المدافع الرشاشة والاسلاك الشائكة والتحصينات والخنادق. وكان امامهم:

١ — استخدام المدفعية على نطاق اوسع واكثف لدك اعشاش الرشاشات فزادت نسبتها الى عشرين مدفع ميدان لكل الف رجل بالاضافة الى الدعم قصير المدى الذي امنه الهاون . ويقول ليدل هارت ان كثافة النيران ارتفعت في عام ١٩١٧ الى وجود مدفع لكل خمسة او ستة امتار في الجبهة التي يشن عليها الهجوم ، اي اكثر من مائتي مدفع لكل كيلومتر واحد . وبالمناسبة ، يقول ليدل هارت ان مدفع الهاوتزر اثبت فعالية في سحق التحصينات اكثر من مدافع الميدان الابعد مدى .

كان استخدام المدفعية اساس تكتيك نابليون بقصد فتح ثغرة اثناء هجوم المشاة وكان هذا التكتيك ينجح غالبا حين يكون القصف فعالا لشل المدافعين مؤقتا ، اما التكتيك المضاد فكان الدفاع المرن elastic defence حيث يغطى الخط الامامي للدفاع بقوة خفيفة بينما تنتظر غالبية قوة الدفاع في الخطوط الخلفية لكي تسحق الهجوم عندما يبدا الاختراق ، او لتشن الهجوم المضاد حين يتصدع الهجوم .

تبين لجنرالات الحرب العالمية الاولى ان اتساع الجبهة وتفرق اعشاش الرشاشات وحسن توزيعها وتمويهها يقتضي كثافة نيران اكثر مما تصور اي جنرال ، وهنا جاءت صعوبة نقل الذخائر اللازمة لمثل هذا المستوى من النيران ، ولمدى طويل ، ولهذا كان من الصعب المحافظة على مستوى كثافة النيران بعد الدفعات الاولى من الاطلاق . ثم تبين ايضا :

١ — ان تركيز النيران ومدتها الطويلة افقد المهاجمين ميزة عنصر

المفاجأة واعطى العدو فرصة حشد احتياطه لشن هجوم مضاد بعد سكوت المدفعية وشن هجوم الاختراق .

٢ — ان الدك الكثيف بالمدفعية يقلب الارض ويجعل حركة المهاجمين بطيئة ، ويمنع الاليات العجلية من التقدم على أرض حرثتها القنابل وملأتها بالركام والحفر .

٣ — مهما كان القصف شديدا لا بد من ان تفلت بضعة رشاشات لتكلف الهجوم الجماعي للمشاة غاليا ، ان لم تحبطه تماما .

ب — حاول الجنرالات استخدام القنابل الدخانية ، ولكن هذه لم تؤد الى تغيير يعدل ميزان تخلف الهجوم ، بالتكتيك التقليدي المتبع .

حـ — كان الحل التكتيكي الحقيقي لهذه المعضلة يكمن في استخدام الدبابات :

١ — انها مصفحة محمية من نيران الرشاشات ومن الشظايا .

٢ — اتاحت سلاسل الدبابات (جنازيرها) امكانية تجاوز الاسلاك الشائكة والمتاريس والخنادق فضلا عن الحفر والدمار بسبب القصف المدفعي .

٣ — ان تركيز الدبابات باستطاعته ان يقوم بعملية الاختراق كما باستطاعته التحرك بسرعة وفي العمق .

هذا يعني ان سلاح الدبابات كان يمكن ان يحل مشكلة اختراق تحصينات الدفاع ويعيد للهجوم قوته ، كما كان من الممكن لسلاح الدبابات ان يعيد الحياة للحرب المتحركة ولعمليات الالتفاف على الاجنحة . لان نجاح الهجوم يشترط ان تكون حركة الالتفاف او الاختراق والتغلغل أسرع من الانسحاب او جلب الاحتياط ، وكان هذا ما يمكن للدبابات ان تؤمنه ، وكان هذا هو السبب، في تحول الحرب العالمية الاولى الى حرب قوة نيران وليس حركة ، حين لم يستفد من الدبابات كما يجب .

عندما ظهرت الدبابات ، لاول مرة ، في معركة السوم Somme في تموز (يوليو) ١٩١٦ اجهضت تجربتها للاسباب التالية :

١ – لم تركز ، ولم يكتشف بعد التكتيك المناسب لها

٢ – لم يحسن تنظيم التزويد والتموين والصيانة لتلبية حاجات حركة الدبابات .

ولكن كسب تكتيك استخدام الدبابات اهمية خاصة ، لاول مرة ، في معركة كامبري Cambrai ، تشرين الثاني – نوفمبر – ١٩١٧ ، وان كانت معركة اراس Arras – نيسان (ابريل) ١٩١٧ ، قد مهدت له اذ بدل القصف الشديد الطويل قبل الهجوم ، لم يعد للمدفعية ان تبدا قبل ساعة الصفر ، وقد استخدمت الدبابة كدرع مصفح مسلح بمدفع رشاش ، تتقدم المشاة مما جعل هجومها ناجحا ، ولكن هذا التكتيك جعل الدبابة بطيئة مرتبطة بسرعة اقدام المشاة ، ولم يكشف عن كل الامكانات الكامنة في هذا السلاح الجديد .

وانتهت الحرب العالمية الاولى ، وبقي الدفاع في اوجه ، وان كان مقامه قد تدنى نوعا ما عن بداية الحرب ١٩١٤ . اما الهجوم فكان مصيره الفشل الا بعد ان يكون في الدفاع ، ويجيء كهجوم مضاد بعد تصدع هجوم العدو . لقد جاءت هجمات ربيع ١٩١٨ الالمانية كنتيجة لفشل هجمات الحلفاء ١٩١٧ ، ولكن فشل هجوم الربيع امام الدفاع مهد الارض لهجوم الحلفاء المضاد في اوائل خريف ١٩١٨ ، والذي انتهى باستسلام المانيا . كما جاء هجوم الحلفاء ١٩١٥ ، ١٩١٦ كنتيجة لفشل هجمات المانيا ١٩١٤ .

ان عدم مقدرة جنرالات الحرب العالمية الاولى على التأقلم مع الاسلحة الجديدة – المدفع الرشاش والمدفعية الثقيلة والدبابات – جعلهم يعجزون عن استنباط تكتيك جديد يستطيع التصدي لخنادق الدفاع واسلاكه الشائكة ورشاشاته ، وكان الثمن دفع الملايين من الجنود في تكتيك غبي ليذبحوا بالجملة . بل انهم فشلوا في اكثر الاحيان في ادراك مغزى تكتيك نابليون في استخدام المدفعية . اذ لم يدركوا ان نابليون قد جمع جمعا صحيحا بين نيران المدفعية وبين الحركة ، ولم يكن الجانب التدميري للمدفعية غير مرحلة من مراحل الحركة التكتيكية ، وكان نابليون يقول

« لا تستطيع الارتال خرق الخطوط بدون دعم نيران مدفعية متفوقة تمهد لشن الهجوم » اما بيتان Petain فقد اعتبر المدفعية هي التي تقوم بمهمة سحق العدو ، وما على المشاة الا دخول ارض محروثة لاحتلالها ، والقيام ببعض التنظيفات . ثم لم يدركوا ان تكتيك نابليون ذاك لم يكن يواجه مدافع رشاشة وبنادق سريعة لا تتوقف نيرانها ، وخصوما غير منظورين خلف الخنادق والمتاريس والاسلاك الشائكة .

لنتذكر ، مرة اخرى ، ان اساس التكتيك :

ا – الاسلحة والطريقة المناسبة لاستخدامها واشكال تعاونها

ب – تبنى تشكيلات تتناسب مع التطور التكنيكي للسلاح وكثافة النيران والمساحة .

حـ – الافادة من الارض

د – النيران والحركة .

ان التكتيك الحديث في عصر الالية والتكنيك المتطور لا بد من ان يقوم اساسا على التأقلم الصحيح بين النيران والحركة والتشكيلات والارض والمساحة . ولكن القادة الاغبياء ينسون كل هذه العناصر فيعقدون كل آمالهم على القوة التدميرية للسلاح الحديث فقط ، وهذا ما فعله قادة الحرب العالمية الاولى وكانت النتيجة ، ما ان تستقر الجبهة على حرب خنادق حتى يتغيب تكتيك الحركة والمناورة من ساحة المعركة – رغم ان كل مقومات الحرب المتحركة كانت متوفرة (غطاء نيران كثيف ، نقل آلي سريع ، تطور المصفحات والدبابات وبدء استخدام الطائرات) – ولكن لم يفد من ذلك . ان الخطأ يكمن في عدم ادراك اهمية تأقلم التكتيك مع كل سلاح جديد وحالة جديدة .. واذا حددنا اكثر نقول ان الخطأ يكمن في النظرة احادية الجانب وذلك في تفسير التكتيك بأحد عناصره فقط اي التفوق في السلاح والتقنية والقوة التدميرية . ان تحقيق النصر بقوة السلاح وحده غير وارد ، في الحرب الحديثة ، حتى عندما يكون التفوق كبيرا ، او على الادق ، لم يحدث هذا الا على ندور . بل ان باليت يقول :

« ان انزال التدمير عن طريق التفوق في السلاح ليس تكتيكا انه حل ميكانيكي في غياب التكتيك . لان قوة السلاح حين تجمع مع الحركة تحقق الزخم الضروري للتنفيذ التكتيكي» ، ويضرب مثلا على الحل الميكانيكي حين يقتصر على كثافة قصف المدفعية لتدمير المدافعين – بقوة القذيفة – وكذلك هو الحال بالنسبة لهجمات المشاة الجماعية بدون غطاء النيران لان جوهر التكتيك هو الجمع بين النيران والحركة . وكذلك بالنسبة للدفاع حين يتمسك بموقع ثابت معتمدا على قوة النيران لتحطيم المهاجمين ، هو ايضا حل ميكانيكي وليس تكتيكا ، اذ بدون خطة حركة على شكل مناورة للتركيز في اللحظة والمكان المناسبين . او على شكل شن هجوم مضاد بالجمع بين قوة النيران والحركة ، لن يكون تكتيكا بالمعنى العميق للكلمة ، ولن يؤدي الى تحقيق نصر حاسم . ولهذا لا يمكن الحديث عن فن علم الحرب بدون ادراك هذه الحقيقة الاساسية الا وهي الجمع الصحيح بين قوة السلاح والحركة في الدفاع او في الهجوم .

وقبل الانتهاء من دروس التكتيك في الحرب العالمية الاولى يحسن ان نراجع بعض الملحوظات التي طرحها ليدل هارت في مجلده الضخم حول الحرب العالمية الاولى . يتساءل ليدل هارت « لو ان المانيا بدلا من القاء كل امكاناتها العسكرية في سلسلة هجمات ضخمة في عام ١٩١٨ ، وقفت في الدفاع في الغرب بينما راحت تعزز مكاسبها في الشرق ، هل كان بامكانها ان تتجنب الهزيمة ؟ » ، ولنأخذ تجربة ١٩١٥ عندما كان الحلفاء يمتلكون ١٤٥ فرقة في الغرب في مقابل مائة فرقة المانية ، وكانت شبكة خنادق الالمان ضعيفة ، وسطحية بالمقارنة مع شبكة خنادقهم وتحصيناتهم عام ١٩١٨ ، ومن هنا يصعب رؤية الحلفاء يخترقونها حتى لو انتظروا تدفق القوة البشرية الامريكية ، ليعودوا الى تفوقهم العددي الذي تمتعوا به عام ١٩١٥ . ويقول انه كان بمقدور الالمان ، في أسوأ الحالات ، الدخول بصلح افضل كثيرا من نتائج صلح فرساي .

حقا ان هذه الملحوظة صحيحة من الناحية العسكرية الصرف ، ولكن الاخطاء الاستراتيجية لم تكن فقط بسبب اخطاء عسكرية صرف لانها كانت محكومة ايضا بتدهور الوضع الداخلي في المانيا – شبه مجاعة ، وتفجر ثورة داخلية – ولكن الذي يهمنا هنا هو الجانب التكتيكي الذي ادى الى عدم ادراك القوانين التي كانت تحكمه في الحرب العالمية الاولى الى اخطاء

استراتيجية بسبب عدم التقييم الصحيح لامكانات الدفاع والهجوم ، والاهم عدم ايجاد الحلول التكتيكية المناسبة التي يجب ان يتبناها الهجوم للخروج من مأزقه .

واخيرا يجب الا ننسى ونحن ندرس الجوانب التكتيكية في الحرب العالمية الاولى ، سائر العوامل الاخرى التي افرزت نتيجة الحرب ، وان كانت النقاط التي تناولناها من الناحية التكتيكية قد لعبت دورا رئيسيا من الناحية العسكرية الصرف . ولكنها لوحدها ليست السبب الوحيد لانها مرتبطة ارتباطا عضويا بالمسائل الاخرى الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية الخ.

مفاهيم التكتيك العسكري بين الحربين الاولى والثانية

كانت تجربة الحرب العالمية الاولى ملأى بالدروس الاستراتيجية والتكتيكية ، وحبلى بولادة تكتيك جديد . ولكنها كأية تجربة اخرى لا تعني دراستها ، **بالضرورة** ، ان يخرج كل من يدرسها بالدروس الصحيحة ، فهنالك من سيتلقى دروسها ، بصورة سطحية ، وهنالك من سيتلقى دروسها ، بعمق ، ليخرج بالاستنتاجات المناسبة ، او قل ، بموضوعات مناسبة للعمل مستقبلا .

نظرة متسرعة الى تلك التجربة ، ستقود الى القول ان الدفاع متفوق جدا على الهجوم ، وان افضل استراتيجية وتكتيك هو خط الدفاع المتراص المدعوم بالخنادق والاسلاك الشائكة والمدافع والرشاشات . ومن الغريب ان الذين اصدروا الاوامر لهجمات المشاة الجماعية في الحرب العالمية الاولى ، كانوا اصحاب « النظرية » الجديدة .

في الواقع، لم تستطع قيادات الجيوش الغربية ان تستخلص الدروس الجديدة ، وبقيت تعيش ضمن المعطيات التي عاشتها في الحرب العالمية الاولى ، وكأن الحرب ستكرر نفسها مرة اخرى . ولكن التفكير المبدع في استخلاص دروس تلك الحرب ، وفي التأقلم مع التطورات الجديدة التي شاهدتها السنتان الاخيرتان في الحرب ، اعني الدبابات والطائرات ، جاء

عن طريق ضباط صغار مغمورين ، ويمكن ذكر اتجاهين اساسيين بهـذا الخصوص :

الاول : كتب ضابط فرنسي برتبة رئيس واسمه لافارغ Lafargue كراسة تحدث فيها عن تجربة الهجوم في الحرب العالمية الاولى. وقد لاحظ ان بعد توقف المدفعية عن قصف مواقع الدفاع قصفا كثيفا ، وبدء هجوم المشاة الجماعي ، كان لا بد من ان يفلت رشاشان او ثلاثـة ، وكان هـذا كافيا لضرب هجوم المشاة . وعندما تقضي الضرورة اعادة القصف المدفعي لاسكات الرشاشات المتبقية يكون الالمان قد اعادوا تعزيز مواقعهم لتعـاد الكرة من جديد .

وجد لافارغ الحل عن طريق استبدال هجوم المشاة الجماعي بهجـوم وحدتين صغيرتين من المشاة الخفيفة تحمل رشاشات صغيرة وقنابـل يدوية تشقان طريقهما عبر الفجوات التي فتحها القصف المركز،ثم تتمركزان في قلب جبهة الدفاع ، وتشتبكان بالرشاشات والقنابل اليدوية مع جيوب المقاومة المتبقية من خلفها ، وهذا يؤمن غطاء كافيا للهجـوم العام لاكتساح الدفـاع .

حصر لافارغ فكرته على مستوى هجوم سرية او كتيبة ، ولكن تبين ان نظريته يمكن ان تطبق على مستوى لواء وفرقة .

لم يعبأ احد بكراسة لافارغ ولكن الالمان ترجموها واهتموا بها اهتماما خاصا ، بل ان لودندورف Ludendurv كتب حولها كتابا ، ودخلت في برنامج تدريب الجيش الالماني .

الثانية : قامت مجموعة من الضباط الانكليز الصغـار وعـلى رأسهم ليدل هارت وهوبارت Hubert ومعهم الجنرال فوللر بطـرح نظريات حول استخدام الدبابات كسلاح تكتيكي يستطيع ان يعمـل مستقـلا في احداث الاختراق بدعم من الطيران . وطرح ليدل هارت نظرية الحركـة الديناميكية في المعركة ، او على الاصح مسألة امكانية اعادة الحياة للحـرب المتحركة بمحتوى جديد اساسه الدبابات والاليات المصفحـة والطيران . وكتب ديغول وآليو في فرنسا بالاتجاه نفسه ايضا .

لم يكن مصير هذه النظريات يختلف عن مصير نظرية لافارغ : اهمالا كاملا من قيادتي الجيش البريطاني والجيش الفرنسي ، واهتماما بالغا من قبل قيادة الجيش الالماني التي حاولت ان تجمع بين موضوعـة لافـارغ وموضوعات ليدل هارت وفوللر وهوبارت Hobert ، واخذت تجري التجارب على ايجاد الصيغة للتكتيك الانسب في استخدام الآلية المتطورة بالاعتماد على تطوير الموضوعات المذكورة اعلاه .

كان الفكر العسكري السوفياتي قد راح يسير بتواز مع ارقى ما توصل له التفكير الجديد في الغرب – على مستوى الضباط الصغـار – ومـع التجارب الالمانية للتأقلم مع الاسلحة الجديدة والظروف الجديدة . بـل كانت النظريات التكتيكية والاستراتيجية السوفياتية قد تناولت المسائل التكتيكية الدفاعية المضادة لاحتمالات التكتيك الجديد ايضا .

ثمة نظرية اخرى نشأت في هذه الفترة تتعلق بالطيران تبناهـا دوهي Douhet الايطالي وميتشيل Mitchell الامريكي وترينشارد Trenchard البريطاني ، وقد راح هؤلاء الجنرالات يؤكدون على الاهمية الاستراتيجيـة لقاذفه القنابل ، وطالبوا بتبني استراتيجية جوية مستقلة . ولقـد نبعت هذه النظرية من القوة التدميرية الهائلة لحاملة القنابل مما جعل حـروب المستقبل تحت رحمة الجو ، اما القوات الارضية فقوى مساعدة .

اذا امعنا النظر في هذه النظرية فسنجدها تقف على رجل واحـدة وهي الاعتماد على قوة النيران فقط ، في حين اهتم الاتحـاد السوفياتي بكل التطورات الحديثة سواء الدبابات او الطيران وخرج بالموضوعة التـي تقول بجعل قوات الجو والارض فريقا تكتيكيا متعاونا لتحقيـق هـدف استراتيجي مشترك . وكان التفكير الالماني يتجه الى الاخذ بهذا الاتجاه .

ان جوهر النظرية المقابلة لنظرية «استراتيجية جوية مستقلة» تتلخص بالجمع بين سلاح الطيران والدبابات والمشاة المحمولة . وجاءت الممارسة لتؤكد صحة هذه النظرية وتكشف عن نواقص – وعدم كفاية – نظريـة دوهيت وميتشيل وترينشارد .

التكتيك في الحرب العالمية الثانية :

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية واخذ الحلفاء يتهاوون امام جيوش هتلر التي حققت انتصارات كاسحة في عامي ١٩٣٩ – ١٩٤٠ ، وحصرت بريطانيا في جزرها ، وسقطت فرنسا ، راح الصحفيون ومعهم نشرات الاخبار يرجعون السبب في انتصارات هتلر العسكرية الى التفوق الكاسح بالدبابات ، واصبحت كلمة بليتز كريغ blitzkrieg – وهو الاسم الالماني الذي اعطي لتكتيك الدبابات – تحمل معنى التفوق الكاسح بالدبابات ، بينما ، في الحقيقة ، كان الحلفاء في فرنسا هم الذين يمتلكون التفوق بالدبابات والمشاة في ايار (مايو) ١٩٤٠ لقد غزا الالمان اوروبا الغربية بست وثلاثين فرقة فيها ٣٥ كتيبة دبابات (٢٥٧٤ دبابة) نزلت ضد ٣٥٠٠ دبابة للحلفاء ، وكان للالمان تفوق على سلاح الجو الفرنسي ولكن ليس اذا جمع مع سلاح الجو البريطاني . ولكن النازيين هزموا الحلفاء بتكتيك متفوق في استخدام سلاح الدبابات وليس بالعدد او النوعية ، رغم ان نوعية الدبابة الالمانية افضل نسبيا .

ان تكتيك بليتز كريغ ، في حقيقته ، عبارة عن اختراق جبهة العدو من نقاط قليلة محددة – نقطتان او ثلاث ، يسبقها قصف مدفعي وجوي ، ثم تشقها الدبابات المركزة التي تمضي متغلغلة في العمق لتبدأ عمليات مناورة استراتيجية خلف خطوط الدفاع تسيطر بها على الطرقات الرئيسية ومراكز محطات القطارات ، وبهذا يحصر الجسم الرئيسي للدفاع بين فكي كماشة. ان هذا التكتيك هو جمع بين موضوعية لافارغ وبين موضوعة ليدل هارت حول « الاهداف غير المحددة » وديناميكية الحركة . وقد اصبح تكتيك بليتزكريغ يعرف في بعض الاوساط « بالحرب الصاعقة » .

تبدأ العملية بتجميع معلومات لتحديد الفراغات ، او نقاط الضعف في جبهة العدو سواء كان الاختراق على مستوى فرقة او سرية . ثم يبدأ هجوم عام وهمي لتثبيت المدافعين بينما تركز الدبابات على الثغرات المحددة لتشق طريقها بعد تمهيد سريع من القصف المدفعي والطيران. ومن الواضح ان نجاح الاختراق مسألة شبه حتمية ما دام موجها ضد نقطتين او ثلاث وبتركيز شديد جدا .

عندما يتم الاختراق تظل جوانب الثغرات مفتوحة بوساطة المشاة الذين

يلحقون الدبابات بالدراجات والاليات السريعة ، بينما يستمر رتل الدبابات بالتغلغل في العمق من اتجاهين او ثلاثة ، من اجل قطع خطوط المواصلات ووقف تموينات العدو المركزية ومواصلاته الاساسية ، ثم تتبعها المشاة المحمولة عبر الثغرات التي فتحت وحميت . وهنا يصبح بالامكان فرض نصر في معركة حاسمة . لقد اكتشف النازيون ، في اثناء ، دراستهم لهذا التكتيك من كل جوانبه ان كل ما يحتاجون اليه هو فتح ثغرتين او ثلاث كل منها بعرض كيلومتر او كيلومترين ، كما انهم درسوا عدد القوات المطلوبة في كل مرحلة .

تتركز نقاط الضعف في هذا التكتيك :

١ – يكشف جناحي رتل الدبابات المتقدم ، ولكن النازيين اعتمدوا ، بحق، على المفاجأة والسرعة لتحطيم معنويات العدو ، وشله ، وضعضعة موقفه بشكل لا يتيح له ان يفكر بشن الهجوم المضاد على تلك الاجنحة الا بعد ان تكون المشاة المحمولة قد لحقت برتل الدبابات واصبح الجيش كله متواجدا .

٢ – عدم توفر نيران دعم كافية بعد الاختراق ، اي في اثناء التغلغل ، لانه لم يكن بالامكان الافادة من المدفعية القديمة بسبب بطء حركتها بالمقارنة مع حركة الدبابات . وجاء الجواب باستخدام الطائرات للتعاون التكتيكي ، خاصة قاذفة القنابل ، اي انها اخذت تقوم بدور المدفعية الطائرة والتي تستطيع مجاراة سرعة تقدم الدبابات وتمهد الطريق لها. في الواقع كان ليدل هارت قد تحدث عن هذه النظرية في العشرينات.

٣ – صعوبة احتلال الارض المخترقة وهذه مهمة المشاة ، ولهذا كان الحل. عن طريق نقل المشاة بعربات آلية ، خاصة ، بلوريات صغيرة مصفحة.

كانت نظرية الحلفاء تعيش في مفهوم خط الدفاع الطويل الثابت وقد وزع الجيش الفرنسي اكثر من نصف دباباته على وحدات صغيرة موزعة على طول الجبهة ، لدعم معركة المواقع الجامدة ، اما النصف الآخر فقد دخل المعارك على دفعات متفرقة بينما جمع الالمان عشر فرق بانزر Panzer في ثلاث فيالق بانزر Panzer ووزع هذا التركيز الهائل على ثلاث نقاط فقط دينانت Dinant ومونتيم Montheme وسيدان Sedan

ان نجاح تكتيك بليتزكريغ كشف ضعف مفهوم خط الدفاع الجامد وهو مفهوم ركز على قوة النيران الدفاعية لانزال الهزيمة بالهجوم معتمدا على الوهم بأن هجوم الالمان سيكون على نمط هجمات الحرب العالمية الاولى، اي هجوم بالمشاة على طول خط الدفاع ، وما على المدافعين الا الصمود امام تكرار محاولات الهجوم حتى يتصدع ثم يبدأ الهجوم المضاد ولكن عندما طبقت قوات البانزر تكتيكها المتحرك بتركيز ثلاث او اربع فرق على جبهة كيلومترين او ثلاثة ، اصبح الاختراق محتوما . ولم يكن لدى الغرب تكتيك مضاد لهذا التكتيك .

كان خط الدفاع – ولنأخذ خط ماجينو – عندما يخترق يصبح من الضروري سحبه كله من اجل المحافظة على تماسك الخط الدفاعي . وقد راينا ان هذه العملية كانت ممكنة في الحرب الاهلية الامريكية ، وجبهة منشوريا والحرب العالمية الاولى ، عندما كانت سرعة الهجوم متوقفة على سرعة اقدام المشاة ، وبالتالي كان الانسحاب ، او جلب الاحتياط يمتلك فرصة كافية ، وبالسرعة نفسها . اما في حركة بليتزكريغ السريعة فلم يكن من السهل الانسحاب لاعادة لحم الخط الدفاعي .. ولكن لو فرضنا ان هذا التراجع لم تدب به الفوضى وكان باستطاعته اعادة لحم خط الدفاع الثاني الا انه لا يستطيع ان يتكرر الى ما لا نهاية ، ولا بد له من لحظة الالتقاء مع العدو في عملية هجوم مضاد .

الجواب عند السوفيات

لم يكن تكتيك بليتزغريغ مفاجأة للسوفيات ، فقد ادرك الاتحاد السوفياتي ان اختراق خطوط الدفاع الامامية من نقطتين او ثلاث مسألة محتومة مع التركيز الشديد للدبابات والتمهيد بالقصف المدفعي والطيران. لذلك فان الحل لن يكون على طريقة خط ماجينو ، وانما على شكل شبكة واسعة وعميقة من النقاط الدفاعية مركزة في العمق .

اخترقت فيالق البانزر التابعة لغوردريان Gurderian وهوث Hoth ورينهاردت Reinhardt الجبهة السوفياتية وراحت تتغلغل بمناورات استراتيجية ماهرة فيالارض السوفياتية واخذت رؤوس السهام المدرعة

الالمانية تلتف وتحاصر الجيوش السوفياتية لتضعها في مصائد او جيوب سماها الالمان Kessels . ولكن القوات السوفياتية لم تتراجع ولم تستسلم واستخدمت مواقعها المحاصرة كحصون دفاعية ، واستمرت في المقاومة حتى حين كانت معزولة تماما . وهنا اسقط بيد الجنرالات الالمان ولم يفهموا كيف يمكن لجيش بين فكي كماشة ومعزول ان يستمر بالمقاومة ولا يستسلم .. كان هذا غير ما تعلموه في الاكاديميات العسكرية وغير ما عهدوه في الجبهة الغربية ، وراحوا يستفسرون من برلين لايجاد الحل لهذا النوع من المقاومة ، والاكثر لهذا النوع من شبكة الدفاع العميق المركز . ولكن السوفيات لم يستهدفوا فقط اقامة نقاط دفاعية مركزة في العمق ، وتحويل الجيوش المحاصرة الى قوة مقاومة لا تستسلم ، اي لم يستهدفوا الدفاع والتركيز على قوة النيران فقط ، وانما ارادوا استخدام كل ذلك لممارسة الحركة والمناورة الاستراتيجية والتكتيكية من هذه النقاط اي الدفاع الايجابي . فمثلا ان النقاط الدفاعية ، او الجيوش التي اصبحت في طوق الاسهم المدرعة تعمد الى استمرار المقاومة الدفاعية العنيدة جنبا الى جنب مع شن الهجمات المضادة ليس بقصد ربط عدد كبير من الدبابات المهاجمة فحسب ، وانما ايضا لمنع مجيء المشاة المحمولة والمدفعية لتعزيز اختراق الدبابات، وبالتالي منعها من اللحاق براس السهم المدرع الرئيسي، وهنا يفصل جسم الهجوم عن راسه الحديدي – الدبابات – وبعد ذلك يخضع القسمين المنفصلين الى سلسلة من الهجمات المضادة المنسقة بين مختلف نقاط المقاومة وكذلك الانصار والمقاومة الشعبية الشاملة .

هذه هي ، نظرية الدفاع الديناميكي الذي اساسه المناورة والحركة وليس قوة النيران فقط كما هو حال نظرية الخط الدفاعي Linear doctrine ويقول باليت ان الحلفاء الغربيين عادوا واستفادوا من التكتيك السوفياتي في معارك شمالي افريقيا وغربي اوروبا فيما بعد . كما طبقه الالمان عندما فتحت الجبهة الغربية ضدهم .

يناقش ليدل هارت في كراسته « الثورة في الحرب » شيوع الفكرة الخاطئة التي تقول ان اتساع الارض السوفياتية وصلاحيتها للدفاع هو السبب في فشل الهجوم الالماني ، ويؤكد ان هذه النظرية خاطئة تماما لان اتساع الارض السوفياتية اتاح للهجوم الالماني مجالات اختراق اوسع ليس هذا فحسب ، وانما ايضا، اتاح له قوة مناورة هجومية رغم عدم تفوقه في

الدبابات والطائرات . ان اتساع المساحة والمهارة التكتيكية فسحا مجالا واسعا للمناورات الالمانية في داخل الارض السوفياتية . ويقول ان من الامور التي ساعدت الهجوم الالماني تلك الهجمات المضادة الاولى التي شنها الجيش الاحمر قبل الاوان وكانت النتيجة سقوط خيرة تشكيلات الجيش الاحمر في اولى هجماته . ولكن الذي انقذ الموقف هو نظام الدفاع العميق السوفياتي عندما اصطدم الالمان في نقاط دفاعية مركزة حاسمة مثل لينينغراد وموسكو وروستوف . وجاء الشتاء لينتقل الجيش الاحمر الى الهجوم من جديد فاصطدم بالنقاط الدفاعية الالمانية خاصة في المدن المركزية على خطوط القطارات وطرق المواصلات حيث ركز الالمان دفاعهم . ورد الهجوم على خاركوف ، وعاد الالمان النازيون الى الهجوم في صيف ١٩٤٢ . ولكن المناورة الهجومية فقدت مزاياها عندما كانت المسألة هي تركيز الهجوم على احتلال هدف محدد – ستالينغراد ، وهنا تفوق الدفاع من جديد ولم يدحر الهجوم فحسب وانما حمل معه الهزيمة حتى نهاية الحرب .

تعلم السوفيات ، بصورة افضل متى يجب شن الهجوم المضاد بعد فشل هجومهم على خاركوف في شتاء ١٩٤٢ ، ولهذا انتظروا في صيف ١٩٤٣ هجوم الالمان الذي شن في تموز (يوليو) على كورسك Kursk وبعد اسبوع من القتال المرير كسرت شوكة الهجوم وعاد الجيش الاحمر الى الهجوم المضاد بادئا بضرب الاجنحة المكشوفة ، واستهلك احتياط الدفاع الالماني ، وتحول الهجوم المضاد الى هجوم شامل نهائي يتميز بالزخم ، فظهرت سلبية توزع القوات الالمانية على المناطق الشاسعة التي احتلت في اوائل الحرب .

ان دروس الحرب العالمية الثانية من ناحية التكتيك لم تسقط منزلة الدفاع وانما اسقطت منزلة دفاع الخط الجامد . بل عززت قوة النقاط الدفاعية الحاسمة مثل لينينغراد وموسكو وستالينغراد ، كما عززت نظرية الدفاع الديناميكي الذي يصدع الهجوم ثم ينتقل الى الهجوم المضاد في الوقت المناسب والمدروس جيدا . ولقد تأكدت هذه النظرية في الجبهة السوفياتية وفي جبهة شمالي افريقيا وفي جبهة اوروبا الغربية .

لقد تعزز الدفاع تكتيكيا مع تطور الاسلحة المضادة للدبابات ، خاصة المدفع ذاتي الحركة على المصفحة ، كما تبين ان الدبابة تصلح للدفاع حين يحفر لها ولا يظهر منها غير مدفعها ، اي تستطيع ان تلعب دورا دفاعيا ،

ثم الخروج من الحفرة لشن الهجوم المضاد السريع . واذا اضفنا الى ان الحرب الآلية اصبحت اكثر اعتمادا على الاتصال المستمر بالمؤخرة من اجل التزويد والصيانة الخ. ، فان من الخطأ اخذ موقف تجريدي لمصلحة الهجوم ، او لمصلحة الدفاع ، وان كانت اكثر التجارب السابقة كانت لمصلحة دفاع – هجوم ، او هجوم – دفاع – هجوم ، (في الواقع ، ان تكتيك بليتزكريغ ليس تكتيك هجوم صرف ، وهذه مسألة لا يلحظها الكثيرون ، اذ كان النازيون يبدأون بالهجوم ثم يتمركزون للدفاع ليصدعوا الهجوم المضاد ثم ينتقلون الى الهجوم من جديد ، وقد طبق هذا بصورة واضحة في عملية احتلال بولندا ، كما طبق في الجبهة السوفياتية) .

بقيت مجموعة صغيرة من الملحوظات حول الحرب العالمية الثانية :

١ – سادت نظرية بريطانية رسمية في اوائل الحرب تقول بنظرية الدبابة مقابل الدبابة مع تشكيلات من المصفحات الخفيفة، بمعنى ان الحرب الآليةتعني تأمين تفوق آلي بالدبابات،لتحويل المعركةالى معركة «اساطيل»من الدبابات ضد «اساطيل» من الدبابات . ويقول باليت ان النتيجة كانت كارثة الصحراء الغربية في هجوم الدبابات . بينما كانت النظرية الالمانية عكس النظرية البريطانية تماما ، وهي تقول باستخدام الدبابة ضد القوات غير المصفحة لتحقيق اختراق سريع . اما سلاح العدو المدرع ، فيجب مواجهته بمضاد الدبابات ، والقصف الجوي ، وليس بالدبابات الالمانية . ولم تتخلص بريطانيا من خطئها الذي دام حتى ١٩٤٢ الا على يد الجنرال اوشينليك Auchinleck الذي انقذ الجيش الثامن في شمال افريقيا بعد ان كانت الهزيمة محققة ، وانهى اسطورة دور الدبابات المستقل واسطورة دبابة مقابل دبابة ، وحول تكتيك الدبابات الى تعاون بين مختلف الاسلحة في ارض المعركة الرئيسية .

٢ – سادت نظرية بريطانية رسمية اخرى حول الطيران اعتبرت ان دوره الرئيسي ضرب المنشآت الاقتصادية ومصادر القوة لدى العدو ، اي ضرب النقاط الداخلية (القصف الاستراتيجي) او ما سمي «بخطة الاستاذ» Master Plan . وقد القي في سنة ١٩٤٠ خمسة آلاف طن من القنابل على المانيا ثم القي ثلاثة وعشرين الف طن عام ١٩٤١ ثم سبعة وثلاثين الف طن عام ١٩٤٢ ، اما عام ١٩٤٣ فقد القت بريطانيا وحدها مائة وخمسة وثلاثين الف طن بالاضافة الى عمل الطيران الامريكي الذي رفع الرقم الى

١٨٠ الف طن . اما في أوائل سنة ١٩٤٤ فقد اصبح المعدل العام للقصف خمسة الاف طن يوميا . ولكن لم يثبت هذا القصف ان باستطاعته تحقيق نصر حاسم ، وان كانت له مزاياه الهامة في المدى البعيد ، اي انه يدخل ضمن حرب الاستنزاف والاعتماد على قوة النيران . **كما اثبتت التجربة انه اذا واجه خصما ثابت المعنويات ، وماهرا في الدفاع ، فسوف يتحول الى قوة تدميرية وحسب . ولو أخذت معركة كان Caan مثلا فسنجد انه القي على التحصينات الالمانية خمسة آلاف طن من القنابل في مدى اربعين دقيقة ، وعلى منطقة اقل من اربعة كيلومترات . وكل ما استطاع ان يفعله هو منع الحامية من تعزيز دفاعها ، ولكن لم يجعل من الممكن اختراقها .**

كانت النظرية الالمانية عكس النظرية الغربية حول استخدام الطائرات ايضا اذ اعتبرت مهمة سلاح الطيران كجزء من عمليات الجيش وليس كقوة مستقلةضد النقاط الصناعية والداخلية، اي نظرية القصف التكتيكي. وكما قلنا كانت النظرية السوفياتية قريبة من النظرية الالمانية في هذا المجال ، بل ان غالبية النقاد العسكريين الغربيين يشهدون ان الاتحاد السوفياتي كان امهر من جمع بين تكتيك الطائرات وتكتيك القوات الارضية ، في الحرب العالمية الثانية .

اما الامريكيون فقد جعلوا مهمة الطيران القصف الاستراتيجي اولا ، ثم التعاون التكتيكي ثانيا . ثم اخذ الفكر العسكري الغربي يميل مع تقدم عام ١٩٤٤ الى التركيز على نظرية القصف التكتيكي لا الاستراتيجي وتحويل الاخير الى المنزلة الثانية .

في الواقع لقد ظهرت اهمية الطيران حاسمة في معارك الاساطيل في حزيران (يونيو) ١٩٤٢ ، في حملات المحيط الهادي ، حيث كانت المعارك الجوية هي التي تقرر المعركة البحرية ، الى حد انهائها قبل ان يشتبك الاسطولان احيانا .

٣ ــ من المفيد هنا استرجاع بعضالدروس التي استخلصها السوفيات من تجربتهم في الحرب العالمية الثانية سواء من ناحية فن العمليات او من ناحية الدروس التكتيكية :

أ ــ من دروس فن العمليات :

ــ عملية الاختراق : لقد علمت تجربة الحرب ان حل المسألة المعقدة في الفن الحربي بشكل ناجح وهي مسألة خرق دفاع العدو المحضر ، تقتضي تنسيق القوى والوسائط في العمق على مستوى الجيوش والجبهات ، وقد شكلت انساق ثانية في الجيوش واحيانا في الجبهات واستخدمت الفيالق والجيوش المدرعة والميكانيكية كمجموعات متحركة للجيوش والجبهات .

ــ عملية التطويق : تقوم القوات العاملة على الجبهة الخارجية بصد محاولات العدو الرامية الى فك التطويق عن القوات المحاصرة ، كما كانت القوات العاملة على الجبهة الداخلية تقوم بمهمة تدمير التجمعات المطوقة .

واكدت تجربة الحرب ان عمليات تطويق العدو يجب ان تستهدف توحيد حادثتي التطويق والتدمير في حادثة واحدة. وظهرت كذلك ضرورة عزل العدو المطوق من الجو ايضا .

ــ **عمليات العمق :** استخدمت خلال الحرب وعلى نطاق واسع العمليات الهجومية مع توجيه ضربات جبهية عميقة (عملية فيسلا ــ اودر) ، وهذه العمليات لا تزال تحوز على اهمية عملية حتى في الظرف الحاضر .

لقد لعبت الجيوش المدرعة دورا كبيرا في ايجاد الايقاعات العالية للهجوم . وقد استخدمت لتوجيه ضربات **عميقة لتجزئة** التجمعات المعادية. وكذلك ضربات متلاقية لتطويق التجمعات المعادية . كما استخدمت في النسق الاول للترتيب العملياتي للجبهة عند اختراق الدفاع، كما استخدمت لتنفيذ المناورة الواسعة على جانب ومؤخرة العدو ، فضلا عن استخدامها في عمليات الملاحقة والمطاردة .

ــ **عمليات الطيران :** استخدم الطيران على المجال التكتيكي في اثناء اختراق المنطقة التكتيكية للدفاع ، ثم طور فاصبح يشمل المجال العملياتي ايضا اي اصبح الهجوم الجوي مستمرا حتى كامل عمق العملية الهجومية للجيش او الجبهة . ومن هنا فقد تألف هذا الهجوم من فترتين : التمهيد الجوي المباشر ، والدعم الجوي للهجوم .

ان أهم الدروس التي ما زالت تحتفظ بقيمتهـــا حتى في الظروف الراهنة : تنظيم التعاون بين الطيران والقوات البرية ، حشد القوى الجوية على اتجاهات الضربة الرئيسية ، تحقيق المفاجأة في الضربة والمحافظة على التأثير المستمر على العدو ، المركزية في القيادة مع الاستخدام الواســـع للوسائط الرادارية .

ـ **العمليات الدفاعية** : دلت تجربة الحرب على :

١ ـ ضرورة التحضير الهندسي للدفاع .

٢ ـ زيادة عمق الدفاع وصلابته، وبناء خطوط وسيطة ومائلة بالاضافة الى النطاقات الدفاعية الاساسية .

٣ ـ لم تكتف القوات السوفياتية ، بعد التجربة المريرة ، باحتـــلال المنطقة التكتيكية للدفاع والخط الدفاعي العملياتي العائد للجيش فحسب، وانما ايضا ، احتلت احيانا الخط الدفاعي الاول العائد للجبهة .

٤ ـ تطوير الدفاع المضاد للدبابات ، وقد دلت التجربة على ان الاعتماد على الاساليب السلبية في الالتجاء ضمن المناطق التي لا تسمح بمـــرور الدبابات كما حدث في الاشهر الاولى من الحرب ، هو اسلوب خاطىء ، فقد اعتمد فيما بعد على اقامة نقاط ومناطق قوية مضادة للدبابات عـــلى الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات .

لم تفقد خبرة تنظيم الدفاع العملياتي التي تجمعت في الحرب الماضية اهميتها حتى في الوقت الحاضر ، خاصة ، فيما يخص تنظيم الدفاع على عمق كبير وكذلك تنفيذ الضربات المعاكسة القوية والمناورات .

ب ـ من الدروس التكتيكية :

١ ـ **التكتيك الهجومي** : كان خرق الدفاع المعادي من اعقـد انـــواع الهجوم في فترة الحرب الوطنية العظمى ، وكان الخرق من التماس المباشر مع العدو هو النوع الاساسي للخرق .

ـ **الترتيب القتالي** : عندما كان الدفاع المعادي يتصف بالطابع البؤري كان اختراق الدفاع لا يتطلب قوى كبيرة ، ولكن عندما اصبح دفاعا **عميقا ومتصلا** اضطرت القوات السوفياتية المهاجمة الى اتخاذ ترتيبها القتالي على نسقين وذلك بالنسبة لفرق وافواج المشاة . اما الكتائب فقد تراوح ترتيبها بين النسق الواحد والنسقين حسب الظروف ، في حين بقيت سرايـــا وفصائل المشاة تعتمد على الترتيب القتالي ذي النسق الواحد .

لقد استخدمت الانساق الثانية للافواج من اجل اكمال خرق الموضـــع الثاني ، واستخدمت الانساق الثانية للفرق من اجل اكمال خرق النطاق الرئيسي للدفاع ، وتدمير الاحتياطات الفرقية المعادية واستخدمت الانساق الثانية للفيالق من اجل خرق النطاق الثاني للدفاع .

لقد دلت التجربة ايضا على عـــدم صحـــة تقسيم الترتيب القتالي الى مجموعة ضاربة ومجموعة مشاغلة بسبب عدم قيام هذه الاخيرة بأية اعمال ايجابية مما سمح للعدو بسحب قواته من امام مجموعة المشاغلـــة وبالتالي تعزيز الاتجاه المتعرض للضربة الرئيسية ، ولهذا السبب كلفت مجموعـــات المشاغلة بالقيام بأعمال نشيطة وباختراق الدفاع المعادي الى عمـــق أقـــل نسبيا من العمق الذي خصص للمجموعات الضاربة .

ـ **التنسيق بين القوات** : دلت التجربة على ضرورة التخلي عن تنظيم التعاون على الخارطة ، وليس على الارض . ولهذا تقرر ان لا يتخذ قائـــد الفرقة قراره للمعركة الا بعد القيام بالاستطـــلاع الشخصـــي ، وان يتم التعاون على الارض ، وان يتم تعيين اتجاهات الهجوم على الارض ايضا مع اعطاء الوقت الكافي للكتائب والافواج لتنظيم المعركة .

ـ **المطاردة** : ترتب القوات على نسقين بهدف تطوير قوة الضربـــة في حالة ازدياد مقاومة العدو المنسحب. اما اذا كان انسحاب العدو فوضويا وبلا مقاومة تذكر فيتبع ترتيب النسق الواحد لان السرعة في هذه الحالة تلعب الدور الحاسم الاول .

لقد اكدت خبرة الحرب ان الحصول على ايقاعات عالية خلال المطاردة يتعلق الى حد بعيد بقدرة القوات على الفتح السريع من ترتيب الرتل الى الترتيب القتالي، وعلى سرعة العودة من الترتيب القتالي الى ترتيب الرتل.

ـ **الاستطلاع** : لقد دلت تجربة الحرب على الاهمية الحاسمة للاستطلاع في حالات الهجوم كما في حالات الدفاع .

ـ **الاعمال الليلية** : اعتبرت الاعمال الليلية كأعمال ، خاصة ، ولكن تجاربها والافادة منها حاسمة لانها ستكون اعمالا عادية في اية حرب مقبلة.

٢ ـ التكتيك الدفاعي : دلت تجربة الحرب على :

ـ اهمية الدفاع التكتيكي العميق .

ـ ان الاسلوب الخندقي هو الاساس في التحضير الهندسي للمنطقة التكتيكية للدفاع .

ـ تطوير الدفاع المضاد للدبابات باتجاه زيادة كثافة وعمق الوسائط المضادة للدبابات وكذلك بالامتناع عن مركزه الوسائط المضادة بشكل خطي، وبحشدها على الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات .

دلت خلاصة تجربة الدفاع المضاد للدبابات على ان يتألف من : النقاط القوية المضادة للدبابات ، المناطق المضادة للدبابات ، الحواجز المضادة للدبابات ، الاحتياط المضاد للدبابات ، مفارز السدود المتحركة .

ـ ضرورة التنظيم الصحيح لجهاز النار كشرط اساسي من اجل تأمين صلابة الدفاع ومناعته بحيث لا ينحصر تنظيمه امام الحد الامامي للدفاع وضمن الموضع الاول ، وانما على كامل العمق التكتيكي للدفاع، وليس فقط على عمق الموضع الاول .

ودلت التجربة على ان من الخطأ وضع كتائب المدفعية خلف حاجز او عائق طبيعي بعيدا عن الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات .

ـ اهمية كبرى للدفاع الدائري وتنظيم تعاون القطيعات الدفاعية للكتائب ، فضلا عن بروز الاهمية الخاصة لنيران القناصة .

ـ ضرورة تنظيم جهاز الدفاع المضاد للطائرات تنظيما دقيقا ، بحيث

يتضمن : المراقبة الجوية ، الانذار عن الخطر الجوي ، جهاز النار للاسلحة المضادة للطائرات ، نيران اسلحة المشاة ، الوقاية الجيدة ، التمويه الجيد للتراتيب القتالية للقوات (١) .

ما بعد الحرب العالمية الثانية

يجب ادراك البعد الثالث للحركة الذي ولده تطور الطيران مما جعل السرعة تزيد عشرة اضعاف اية سرعة آلية على الارض وهذا يعني اعطاء الهجوم مزايا كبيرة على الدفاع كما زاد من اهمية الطيران :

أ ـ تحول الجيوش الى جيوش آلية محمولة، وهنا يلعب الطيران دورا حاسما في تقييد حركتها ، او حماية حركتها ، ولهذا فان تأثيره على حركة الاليات اكثر بكثير من تأثيره في القصف الاستراتيجي،او القصف التكتيكي على مواقع الدفاع . وقد اصبحت هذه احدى علامات التكتيك فيما بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم .

ب ـ تطور نقل القوات الارضية بآلياتها بوساطة الطيران جعل القوة الاختراقية كبيرة جدا ، تتيح وضع القوات الارضية في اية نقطة داخل جبهة العدو لتقوم بمناوراتها وعملياتها التكتيكية . ولكن رغم ذلك لم يثبت في الواقع ان الدفاع ضعيف كما يبدو نظريا . وقد قللت عوامل ثلاثة من سلبيات الدفاع ازاء هذا التفوق الهجومي :

ـ استخدام الهجوم المضاد بآليات لا تقل سرعة عن الاليات التي انزلتها الطائرات ، مع ميزة عدم مواجهة مشكلة الوقود ونقل القذائف ، واللوجستيكا من قواعد بعيدة .

ـ ضرورة تركيز المهاجم لقواته مسألة حتمية لكي يستطيع التقدم

---

(١) كل ما يتعلق بدروس التجربة السوفياتية حول دروس العمليات والتكتيك (البند ٣)، أخذ من كتاب «تاريخ فن الحرب» ـ الجزء الثاني ـ الجنرال ستروكوف ـ باللغة العربية ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الاتاسي .

الى هدفه الامر الذي يعيق امكاناته على المناورة في اللحظة الحاسمة .

— تركيز مواقع الرادار والارسال يعطي معلومات عن اتجاه طريق المهاجم ، وبهذا تقلل من قيمة المساحة التي يجب ان يغطيها الدفاع .

أما في المقابل ، فان التوزيع الحصيف للقوات الارضية ونقاط الدفاع والمنشآت الصناعية والمطارات الخ يحول قصف الطائرات الى ضياع في غالبيته لان العلو الذي على الطائرات ان تضرب منه يلغي دقة التسديد حتى بوجود افضل النواظير bom sights . اما القصف من علو منخفض فيزيد من الخطر على المهاجم . هذا فضلا عن سلبية وجود المهاجم وطائرته على ارض غريبة مما يسهل تضليله الى اضاعة قنابله على اهداف موهومة.

لذلك فان المشكلة الاساسية التي يواجهها التكتيك الان ، عدا الحرب النووية ، هي مسألة معالجة :

١ — الاختراق الهجومي عن طريق نقل القوات الارضية بالطائرات لتبدأ مناوراتها خلف خطوط الدفاع .

٢ — الهيلوكابتر المصفحة التي تحقق الهبوط العمودي وتنقل المشاة الى اية نقطة ، وكذلك الهيلوكابتر ناقلة القوات الالية الثقيلة .

٣ — مسألة السيطرة على الجو في حالة تحريك القوات الآلية المحمولة على الارض .

٤ — ازدياد ضخامة الاساطيل الجوية بشكل يتيح لها التركيز على القصف الاستراتيجي دون التضحية بالتعاون مع القوات الارضية في القصف التكتيكي .

ان هذه المشاكل التكتيكية ، في الواقع ، تواجه الشعوب المتخلفة ، اساسا ، لان هذه القضايا اصبحت ثانوية بالنسبة للدول الكبرى ، خاصة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، بالمقارنة بمسائل الحرب النووية — ولانها تعالج من قبل هذه الدول بمستوى التكتيك والتقنية

اياه — وقد راينا، في اثناء ، دراسة الاستراتيجية النووية، ان استراتيجية الردع النووي ، او قل استراتيجية التوازن النووي ، تستهدف حصر الحرب بالحروب المحدودة ، اي عدم اشتباك الدول الكبرى ببعضها البعض . وهذا يعني ان مسائل التكتيك الحديث — النقاط الاربع اعلاه — ستطبق ، عمليا ، في تلك الحروب المحدودة اي من جانب الامبريالية العالمية ، اساسا ، ضد الشعوب والدول المتحررة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وبالتالي لا بد من ايجاد التكتيك المضاد لها . ولكن من الواضح ان معالجة هذه المسائل التكتيكية يتوقف على وضع كل بلد يواجهها ومستوى تطوره سياسيا وتكنيكيا وتنظيميا واقتصاديا وعسكريا الخ. ، وان كانت ثمة خطوط عريضة لا بد من توفرها تتركز في :

أ — الاحتياطات الدفاعية المضادة — سلبيا — مثل التوزيع الحصيف لنقاط الدفاع والمنشآت والمطارات والملاجيء والخنادق والتمويه الخ.

ب — تبنى استراتيجية وتكتيك الدفاع العميق المتحرك، شبكة النقاط القوية المنتشرة في العمق والتي تتميز بالدفاع الديناميكي الايجابي، والمقاومة الشعبية الشاملة بكل اشكالها .

ح — التركيز على العناصر الانسانية مثل المعنويات والصمود والتنظيم الثوري الحديدي وتفجير عبقرية الجماهير لاكتشاف اشكال تكتيكية . وهنا لا بد من التشديد على العامل الذاتي، خاصة، نوعية القيادة وعبقريتها الاستراتيجية والتكتيكية .

د — اما بالنسبة للتكتيك الايجابي في مواجهتها فهذا يتوقف على نوع الاسلحة المتوفرة ، وعلى وضع القوات المسلحة . ولكن ، دائما ، هنالك طريق فعال في الجمع بين الاسلحة المتوفرة والحركة حتى ولو كانت في مواجهة اسلحة متفوقة .

ان اهم التطورات في العلم العسكري، بعد الحرب العالمية الثانية ، الى جانب احتمالات استخدام الاسلحة الصاروخية النووية ، هي التطورات المتعلقة بحرب الشعب الثورية التي استطاعت تحقيق انتصارات باهرة على المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية ضد التفوق المادي والتقني للجيوش الامبريالية . واننا لنشهد في هذه الايام حرب الشعب الثورية في

فياتنام ولاوس وكمبوديا تتجاوز التقنية العسكرية الامريكية وكل التطورات التي حدثت في ارتفاع مستوى الحركية الجوية ، وزيادة الكثافة النارية الجوية ، وسرعة الآلية البرية ليس اعتمادا على تفوق مقابل في هذه المجالات وانما ارتكازا على الجوانب السياسية والمعنوية والتنظيمية واطلاق مبادرات الجماهير الثورية واكتساب الخبرات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية العسكرية ، في اثناء الصراع المسلح ضد اعلى مستويات العسكرية الامبريالية .

لقد دلت التجربة على ان الاعتماد على عدالة القضية وعلى الانسان ، وعلى الوعي الثوري والتنظيم الثوري ، وتعبئة الجماهير وتنظيمها وتوحيدها وتسليحها واطلاق مبادراتها وتجريئها على خوض الصراع المسلح تستطيع ان تجد الاجوبة المناسبة على التكنيك المتفوق لاكثر الجيوش العصرية الامبريالية تطورا ، ليس هذا فحسب وانما ايضا على امتلاك فن القتال المناسب ، استراتيجيا وعملياتيا وتكتيكيا، اي تطوير العلم العسكري نفسه ، وفي كل المجالات .

ولعل الفصل الاخير من هذا الكتيب سيلقي بعض الضوء على ديالكتيك الحرب مما يعطي الدليل العلمي على حتمية انتصار الشعوب عسكريا على اعدائها الامبرياليين .

- ٥ -

ديالكتيك الحرب

الذي يقرر النصر او الهزيمة في الحرب هو الوضع ككل بمختلف جوانبه . وعندما يقال الوضع ككل بمختلف جوانبه فهذا يعني جبهة عريضة تمتد من اصغر قرية ومصنع الى اصغر حركة تكتيكية في ساحة المعركة حيث تتداخل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالعوامل التنظيمية والعسكرية استراتيجيا وتكتيكيا ، مرورا بعوامل المكان والزمان والعناصر الانسانية والذاتية ، بالاضافة الى الوضع العالمي ، والوضع المحلي والمدني لدى كل من الطرفين المتقابلين .

ولكن حين يقال الوضع ككل يجب ان يفهم ان من غير الممكن نزعه من اجزائه وجعله مستقلا عنها او جعلها مستقلة عنه ، لانه مكون من كل الاجزاء ، ولان كل جزء يؤثر ويتأثر بالاجزاء الاخرى ، فهو جزء يؤثر في الوضع ككل كما ان الوضع ككل يؤثر على كل جزء . غير ان اهمية كل جزء بالنسبة للوضع ككل ليست متساوية بين مختلف الاجزاء كما انها ليست مقدارا ثابتا .

يمكن تقسيم عمل الوضع ككل وعملية كل جزء فيه الى قسمين رئيسيين :

١ ـ العناصر المادية الموضوعية مثل الوضع البشري والاقتصادي والتقني والاسلحة والارض وسرعة الحركة الخ.

٢ ـ العناصر الذاتية مثل الدور الذاتي للقيادة والافراد والوعي والتنظيم والاجراءات ، واساليب معالجة العناصر المادية الموضوعية استراتيجيا وتكتيكيا في كل المجالات . والشجاعة والمعنويات والقتال الضاري الخ.

بكلمات اخرى ، يمكن القول ان الحرب عبارة عن خصمين – جبهتين – يتصارعان ضمن حدود العناصر المادية والذاتية المعطاة ، بحيث يحاول كل منهما الافادة حتى الحد الاقصى من تلك العناصر لتأمين التفوق على خصمه لانزال الهزيمة به . ولكن لما كان كل من الخصمين سيعمد الى العمل :

أ ـ ضمن جبهته .

ب ـ ضد جبهة الخصم .

حـ ـ وفي اطار الوضع ككل محليا وعالميا .

فان هذا يعني الدخول في عملية بناء داخلي ضمن جبهتك وعملية احباط لعملية البناء الداخلي للعدو في جبهته، وعملية صراع كلي بين الطرفين لجعل الوضع ككل بمختلف جوانبه محليا وعالميا يتجه لتأمين التفوق لك ضد العدو . وهذا يعني اشتباكا ديالكتيكيا على كل مستوى لانجاح مسعاك واحباط مسعى الآخر،والذي يعطي هذا الاشتباك صفة العملية الديالكتيكية ان الآخر سيحاول عمل الشيء نفسه . وهذا يجعل كل خطوة تتخذها لها مقابل لدى العدو ، وهذا المقابل سيسعى لتصعيد خطوته المقابلة والغاء او تنقيص خطوتك اي عملية نفي النفي بصورة مستمرة حتى يتقرر الانتصار لاحد الطرفين والهزيمة للطرف الآخر . مثلا تكتيك عسكري فالتكتيك المضاد ثم التكتيك المضاد التكتيك المضاد ـ تكتيك جديد ثم مضاد ، وهكذا .

وهنا يجدر الوقوف قليلا لملاحظة ان سمة العصر الراهن جعلت هذه العملية تدخل في نطاق الوعي ، ولم تعد تعمل عفويا . ان كل طرف جعل يدرس وضعه ووضع الطرف الآخر ـ النقيض ـ دراسة دقيقة معمقة لاستنباط انسب استراتيجية وتكتيك يتفقان مع الوضع ككل لتأمين

الانتصار وذلك عن طريق جعل عناصر جبهته المادية والذاتية تعمل بأعلى تأثير ضد مقابلاتها في الجبهة الاخرى ، مع حساب عمل مقابلاتها تلك ، وايجاد المضادات لها .

لننظر الآن الى العوامل التي تؤثر على الحرب ومصيرها ، نذكر اهمها دون حصرها كلها :

١ ـ الوضع الاقتصادي والمدني .

٢ ـ العامل السياسي وطبيعةالحرب ـ عدالتها او عدمعدالتها والطبقة التي تقودها .

٣ ـ المكان الذي تدور فيه الحرب ـ طبيعة الارض واتساعها .

٤ ـ الزمان الذي تقع فيه الحرب ـ مستوى التطور الانتاجي والتكنيكي وقوانين الحرب التي تحكمه .

٥ ـ العامل المعنوي والسيكولوجي بالنسبة للقادة وبالنسبة للجنود وبالنسبة للجبهة الخلفية والقتال الضاري ، والشجاعة والتماسك والايمان بالقضية التي يقاتل في سبيلها .

٦ ـ العوامل التنظيمية في المجالين المدني والعسكري .

٧ ـ مستوى التدريب ومستوى القيادات العليا والكوادر ، والصراع بين المبادرات والاجراءات ومضاداتها على كل مستوى .

٨ ـ كميات السلاح وعدد القوات المسلحة ، حجم القوات وكثافة النيران .

٩ ـ نسبة القوات للمساحة ، وعامل السرعة والحركة الآلية .

١٠ ـ الاستراتيجية والتكتيك المستخدمين من قبل كل من الطرفين .

١١ ـ المقدرة التخطيطية والتنفيذية .

١٢ ـ عامل الوقت والامكانات المحتملة مستقبلا .

١٣ ـ الراي العام في كلا الجبهتين والراي العام العالمي .

١٤ ـ نوع التحالفات السياسية ومدى اتساع جبهة كل طرف .

١٥ ـ مدى تماسك الوضع ككل في جبهة كل من الطرفين .

ان كل هذه العوامل متداخلة متشابكة ، وثمة ديناميكيــــة ، خاصة ، لنسبة تأثير كل من هذه العوامل في كل حرب وكل زمان ومكان . وهــذا السبب الذي جعل ديالكتيك الحرب شديد التعقيد ، وكثيرا ما قاد العلاقة بين كل هذه العوامل الى نتائج متضاربة ، فأحيانا نرى جيشا اصغر حجما واقل نيرانا ينتصر على جيش اكبر حجما واكثف نيرانا ، وهذا لا يعنــي الاستنتاج ان الاصغر حجما والاقل نيرانا اقوى من الاكبر حجمــا واكثف نيرانا ، لاننا اذا تعمقنا دراسة الاسباب لانتصار الاضعف فسنجدهــا في تفوقه في عوامل اخرى من المجموعة اعلاه قد تكون الاستراتيجية او الحركة التكتيكية او العوامل السياسية الخ. ـ قد تكون احداها او اكثر ـ واحيانا نجد الجيش المتفوق ماديا وتقنيا ينتصر على الجيش الاضعف وهنــا ايضا لا يجوز الخروج بالاستنتاج القائل ان المتفوق ماديا وتقنيا سينتصر حتمــا على الاضعف منه ، لان النصر هنا ـ اذا تعمقنا في دراسة اسبابه ـ لــن يرجع الى عامل التفوق المادي والتقني فقط اذ ستجد توفر عوامل اخــرى ايجابية في جبهته او توفر عوامل شديدة السلبية في جبهة الاخر لا تنحصر في تخلفه المادي والتقني . والا كيف تفسر الحالات التي تأتي النتيجــة فيها عكس ذلك ؟ هنا نحن امام خيارين اما تفسير حالة واحدة والوقوف عاجزين عن تفسير الحالات الاخرى ، حين نرجع الاسباب الى عامل واحد او الى عاملين او ثلاثة فقط ، وبالتالي لن نخرج بنظرية متماسكة في فهم ديالكتيك الحرب ، والاخطر اننا لن نستطيع معالجة اي حرب تواجهنــا الاضمن المحدودية الضيقة التي حصرنا انفسنا بها ، مثلا اذا قلنا ان التفوق المادي والتكنيكي هو الحاسم فسيؤدي هذا الى العجز في مواجهــة خصم متفوق علينا ماديا وتقنيا ، ليس هذا فحسب ، وانما ايضا سنفشل امــام خصم نحن متفوقين عليه ماديا وتقنيا اذا عرف كيف يفيد من العوامــل

الاخرى ويجعلها تعمل لمصلحته .

اما الخيار الثاني فهو ان ترى الحرب في اطار هذه الوحدة المتشابــكة المتفاعلة من العوامل والتي تتفاوت مقاديرها ، او نسبة تأثير واهمية كل منها ، من حرب الى حرب ، ومن زمان الى زمان ، ومن مكان الى مــكان ، ومن جبهة الى اخرى . واذا قبلت هذه الموضوعة فسوف يكون بالامــكان تفسير كل نصر وكل هزيمة تفسيرا علميا دقيقا يكون بمجموعه مفهومــا متماسكا في مستوى النظرية العلمية ، كما سيكون بالامكان ـ وهذا هــو الاهم ـ معالجة مسائل كل حرب تواجهنا معالجة علمية دقيقة تؤمن النصر، او في اسوا الحالات ـ عندما تكون كل الرياح معاكسة ـ تجنبنا هزيمــة ساحقــة .

والآن . لندخل في تمعن اشد لهذا الديالكتيك .

طبعا من السهل القول ان الجبهة التي تكون كل تلك العوامل لمصلحتها ستنتصر حتما ، ولكن ، عمليا ، لم توجد بعد تلك الجبهة التي تتوفر فيها كل تلك العوامل لمصلحتها دفعة واحدة ، وعندما توجــد يــكون « زمان » الحروب قد ولى . ولكن الذي هو واقع فعلا ، ان ايجابيات وسلبيات هذه العوامل تكون موزعة بين الطرفين بنسب متفاوتة او متقاربة حسب كــل حالة . فمثلا قد تتوفر لدى احد الطرفين بعض تلكالعوامل بصورة متفوقة على نظيراتها لدى الطرف الاخر ، كأن يكون متفوقا بحجم القوات وكثافــة النيران والحركة التكتيكية والدعم اللوجستيقي ، بينما يــكون خصمــه متفوقا بالجوانب السياسية والتنظيمية وصحة الاستراتيجية والتكتيــك المستخدمين وتأيد الراي العام المحلي والعالمي وحسن التأقــلم مع الارض التي يقاتل عليها ، وعدالة قضيته وصفات الشجاعة والذكاء لدى قادتــه وكوادره وجنوده (او مقاتليه) هنا يدخل كل طرف في صراع مع الطرف الاخر ، في محاولة ، لجعل جوانبه الايجابية ـ نقاط قوته ـ تعوض عــن جوانبه السلبية ـ نقاط ضعفه ـ ولتحويل المعركة ضد نقاط ضعف الطرف الآخر لتتقرر في ذلك المجال مع محاولة الغاء نقاط قوة الطرف المقابل ، او انقاصها واضعافها ، وتجنب تحويل المعركة الى تلك النقاط . بينما يفعل الطرف الآخر العكس تماما ، او على الاصح ، الشيء نفسه ، ولكن بصورة نفي لمحاولات الطرف الآخر .

وهنا يتقرر النصر لمصلحة الطرف الذي ينجح في تصعيد ايجابياته الى الحد الاقصى ويجعلها تعوض عن سلبياته ، وتوازي ، او تتفوق على ايجابيات الخصم في المجالات التي لا يستطيع ان يجاريه فيها . فمثلا اذا كانت الجزائر اضعف من الاستعمار الفرنسي من ناحية القوات المسلحة وكثافة النيران والتقنية فسيكون من السخف ان تحاول منازلته في هذه الميادين ، ولهذا فقد راحت تركز على مجموعة من العوامل الاخرى — القتال الفواري والعمل السياسي المحلي والعالمي وفي داخل فرنسا بالذات ، وتبني الاستراتيجية والتكتيك المناسبين عسكريا الخ. مما ادى في النهاية الى شل ارادة الاستعمار الفرنسي على القتال ، واضطره الى التراجع والتسليم باستقلال الجزائر .

ثمة حروب عديدة لعبت فيها بعض تلك العوامل دورا حاسما بينما ثمة حروب اخرى لعبت فيها بعض العوامل الاخرى الدور الحاسم وهكذا ، وهذا ما يفسر لماذا نشأت نظريات متضاربة حول اهمية كل عامل من تلك العوامل فمثلا نظرية اردان دوبيك Ardant du Picq التي تقول ان العامل الحاسم في الحرب ليس عمل الصدام اي قوة السلاح وانما ارادة القتال لدى المتحاربين . وهنالك نظرية يتبناها ليدل هارت وقد نقلها عن نابليون وفوش تقول ان الهزيمة تتقرر في عقول القيادة المقابلة ومعنوياتها وليس بعدد القتلى في المعركة . وهنالك نظرية شائعة تقول بتفوق الجانب المادي — القوات المسلحة والتقنية والعلوم وكثافة النيران والحركة التكتيكية — وقد تبناها هتلر بقوة وكذلك الجنرالات الامريكيون . وهنالك نظرية توينبي وفوللر التي تقول باولوية العامل التكتيكي — التقنية . وهنالك نظرية دانتون التي تعتبر ان الشجاعة هي كل شيء ، وهنالك نظرية كلاوسيفتز حول اولوية الوضع الاقتصادي والمدني . وهنالك نظريات لينين وماوتسي تونغ وجياب التي ركزت على اهمية العمل السياسي والجماهيري والتنظيمي وصحة الاستراتيجية والتكتيك في ظروف غياب التفوق في العناصر المادية في جبهتهم دون اغفال اهمية العناصر الاخرى ، او على الاصح ، دون جعل نظرياتهم احادية الجانب تقول بأولوية عامل واحد في كل الحالات .

في الواقع ، ما من نظرية بين هذه النظريات لا تستطيع ان تأتي بالشواهد العملية والتاريخية لاثبات جانب الصحة في موضوعتها . اذ ان في كل حرب لعبت مجموعة ما من تلك العوامل دورا اكثر حسما من بقية العوامل .

ثمة مجموعة من السمات يجب ملاحظتها حول ديالكتيك العلاقة بين هذه العوامل :

أ — كل عامل من هذه العوامل ليس مقدارا ثابتا اذ يمكن تصعيده وتطويره اكثر فاكثر باستمرار ليلعب دورا اكثر حسما باستمرار .

ب — ان زيادة تصعيد وتطوير احد هذه العوامل او مجموعة منها يمكن ان يصل الى حد يعوض فيه عن النقص او التخلف في العوامل الاخرى ، او بمعنى آخر يمكن ان يقابل تفوق العدو في مجال آخر .

حـ — مواجهة تفوق العدو في مجموعة من تلك العوامل يمكن ان تأخذ عدة اشكال :

١ — محاولة التفوق عليه في تلك المجموعة من العوامل بالذات ، اي اذا كان متفوقا تكنيكيا مثلا ، محاولة اللحاق به والتفوق عليه في المجال التكنيكي ولكن هذه العملية تحتاج الى توفر شروط مادية وذاتية لمثل هذا السباق ، واذا لم يكن هذا ممكنا — وهذا ما يحدث في اغلب الحالات — فيعمد الى

٢ — محاولة التفوق عليه في مجال آخر ، او عدة مجالات ، تفوقا حاسما يعوض النقص ويتخطى تفوقه ، ولكن هذا يشترط العمل على تخفيف تأثير تفوقه في مجاله بالذات مثلا اذا كان متفوقا في الطيران فيجب محاولة تخفيف تأثير هذا السلاح عن طريق التحصين الجيد ، او التمويه الجيد ، والتوزيع الحصيف للقوات والمنشآت ، وتقوية الدفاع الارضي المضاد ، وتعزيز المعنويات في تحمل القصف الخ. بينما يعمد على تصعيد التفوق عليه في احدى مجالات التكتيك الاخرى — حسب الظروف — تفوقا حاسما ، مثلا سرعة الحركة ، المفاجأة ، التركيز ، التوزيع الخ.

د — مسألة تحديد العوامل التي يجب ان تركز عليها في جبهتك لتحقيق التفوق او تعويض تفوق العدو ، وتحديد العوامل التي يجب الغاء تأثيرها او تخفيفه في جبهة العدو — وهي نقاط قوته — وتحديد عوامل الضعف في جبهته التي يجب التركيز على استغلالها لمصلحتك ومحاولة منع العدو من الغاء تأثير نقاط قوتك والتركيز على استغلال نقاط ضعفك لمصلحته . كل

ذلك محكوم بالظروف المادية المعطاة في كل جبهة من جهة ومحكوم بدور العامل الذاتي ، خاصة القيادة ، في تحديد كل ذلك وفي قيادة العمل بنجاح تكتيكيا واستراتيجيا من جهة اخرى .

هـ ـ يتطلب تحديد العوامل التي يجب التركيز عليها في جبهتك وكذلك تحديد المضادات ضد نقاط قوة العدو وتحديد استراتيجية وتكتيك العمل في اثناء عملية الصراع الخ. وان تكتشف القوانين الخاصة للعمل في كل مجال، فمثلا لا يكفي ان تقول يجب التركيز على عامل التنظيم ، او على العمل السياسي ، اذ يجب ان تحدد استراتيجية وتكتيك العمل في ذلك المجال تحديدا صحيحا لتأمين اقصى درجات التفوق فيه .

و ـ ان التركيز على مجموعة العوامل التي يقدر انها ستلعب الدور الحاسم في تحقيق الانتصار لا يعني اهمال ، او احتقار ، العوامل الاخرى، بل يجب الاهتمام بها قدر المستطاع لتسهم ايجابيا ، رغم تطورك المحدود فيها ، في تعزيز مجموعة العوامل الرئيسية التي لها الاولوية .

ان هذه الموضوعة ترفض التقليل من شأن اي عامل من العوامل الخمسة عشر المذكورة ، ولا تنتهي الى نتيجة تقول ان هنالك عاملا اشد حسما في كل الحالات . لان مجال الخيار هنا لا يأخذ شكل طرح كل هذه العوامل امام المرء ليختار من بينها العوامل التي يجب ان تتوفر في جبهته ، بصورة متفوقة . فمثلا لا يستطيع جنرالات دولة امبريالية ان يختاروا عامل عدالة القضية ليكون الى جانبهم ، كما ان قادة حرب ثورية في بلد متخلف لا يستطيعون ان يختاروا عامل التفوق في النيران والتكنولوجيا على دولة امبريالية كبرى . ان هذه الموضوعة تستهدف الاشارة الى توزع هذه العوامل ، ايجابا وسلبيا ، بين كل جبهتين متحاربتين ، توزعا مختلفا متنوعا في كل حرب . وهنا يأتي دور العامل الذاتي ـ القيادة اساسا ـ لجعل العوامل الايجابية في جبهته هي التي تلعب الدور الحاسم في تقرير مصير الحرب المعطاة . وهذا يعني ان فهم ديالكتيك العلاقة بين مجموعة العوامل التي تؤثر على الحرب ، وبالتالي اكتشاف اصح اساليب معالجتها استراتيجيا وتكتيكيا ، يفتح آفاقا واسعة للعمل الناجح ضمن كل ظروف حرب ، ومهما يكن الوضع معقدا ، او العدو متفوقا . وبكلمات اخرى ، ان هذا الديالكتيك يؤكد ـ خاصة للشعوب المتخلفة ، ان هنالك ، دائما ،

طريقا او طرقا لتحقيق الانتصار على عدو متفوق ببعض العوامل وذلك بوساطة تطبيق :

١ ـ نظرية التخفيف حتى الحد الادني من نقاط تفوق العدو عن طريق اجراءات دفاعية ، ومضادات ، وايجاد التكتيك الانسب في مواجهتها . ومراعاة مبدأ الامن ضدها .

٢ ـ نظرية التعويض ، او على الاصح نظرية تصعيد تأثير العوامل الايجابية حتى الحد الاقصى لتقوم بالتعويض عن المجالات التي يتفوق فيها العدو .

٣ ـ نظرية نقل المعركة ، قدر الامكان ، الى نقاط ضعف العدو وحيث نقاط قوتك ليقرر مصير الحرب في هذه الميادين .

٤ ـ نظرية استمرار تصعيد التعويض والمضادات ، والتركيز على الدفاع في مجالات وتركيز الهجوم في مجالات أخرى .

وبعد ،

فان مفتاح النجاح في معالجة ديالكتيك الحرب هو بيد العنصر الانساني الواعي الديناميكي في الحرب ، العنصر الانساني الذي يسير باتجاه تطور التاريخ .

مصادر البحث

1 — On War — K. Clausewitz

2 — Summary of the Art of War — H. Jomini

3 — A History of the World War 1914 - 1918 — B. Liddell Hart

4 — The Revolution in Warfare — B. Liddell Hatt

5 — The Strategy of Indirect Approach — B. Liddell Hart

6 — The Essentials of Military Knowledge — D. K. Palit

7 — Engles as Military Critic - (selected Articles) — F. Engels

8 — Selected Correspondence — Marx & Engels

9 — Letters to Americans — Marx & Engels

10 — The Civil War in the U.S. — Marx & Engels

11 — Selected Military Writings — Mao Tse - Tung

12 — Lenin On War and Peace (Three Articles) — Lenin

13 — «Left-Wing» Childishnes and the Petty-Bourgeois Mentality — Lenin

14 — «Left-Wing» Communism - An Jnfantile Disorder — Lenin

15 — The Foundations Of Leninism — J. Stalin

16 — The History of He Civil War in the U.S.S.R. by Stalin & Gorki & Voroshilov & Kirov & Jhdanov

17 — The Historian and the Army — K. R. Greenfield

18 — Introduction to Strategy — A. Beaufre

19 — Military Writings — L. Trotsky

20 — The Thin Red line — J. Selby

21 — A Study of History — A. Toynbee

22 — The Great Arab Conquests — J. B. Glubb

23 — Crusading Warfare (1097-1193) — R. S. Smail

24 — Military Srategy : Soviet Doctrines of Concept — V. D. Sokolovsky

25 — Srategy in the missile age — B. Broclie

26 — Gustavous Adolphus — Dodge

٢٧ ـ تاريخ فن الحرب (جزءان) ـ الجنرال ستروكوف ـ بالعربيــة ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الاتاسي .

٢٨ ـ مكافحة الدبابات ـ تأليف : بير يوكوف ، ميلنيكوف ـ بالعربية ـ دار التقدم ، موسكو .

ملحق

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الاولى

بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الاولى[1]

مدخل

عندما تقيم حروب الفتوحات العربية الاسلامية الاولى ، يركز الجميع على الحماسة الدينية التي بثها الاسلام في قلوب العرب فجعلهم يعجلون لنيل الشهادة ، وقد حرصوا على كسب الآخرة اكثر مما حرص اعداؤهم على كسب الدنيا . وبولغ في ابراز هذه الناحية الى حد طغت معه على كل ما عداها .

فالذين ارخوا لتلك الحروب من زاوية عربية اسلامية ، ارادوا ، اساسا ، من تناول تلك المعارك اظهار الدور الذي لعبه الايمان في كسب تلك الحروب ، مما حول تلك المعارك الى سلسلة من البطولات الفردية والجماعية ، وضروب الشجاعة الخارقة ، الامر الذي جعلهم يقدمون تاريخ تلك الحروب على شكل قصص ، وقصائد ، وروايات . وقد ادى هذا الى طمس جانب الفن العسكري في تلك الحروب ، واضاعة ما احدثه القادة العرب المسلمون من تطوير في هذا الفن استراتيجيا وتكتيكيا . فلو اخذنا مثلا كتاب « المدرسة العسكرية الاسلامية » للاستاذ محمد فرج الذي حاول ان يقدم الموضوع من خلال تحليل علمي عسكري ، فسنجده يستهلك معظم الكتاب في ابراز تلك الناحية التي اشرنا اليها . رغم انه حاول في بعض الاحيان تناول الفن العسكري الاسلامي الا انه حوله الى عبارات

---

(١) نشرت هذه الدراسة في مجلة «دراسات عربية» ـ العدد ٦ . نيسان (ابريل) ١٩٧٢ ونقلت هنا كما هي مع بعض التنقيح الطفيف .

تقريظ ومديح دون ان يقدم تحليلا ملموسا يدعم عباراته . بل انه حاول في آخر فصول مؤلفة ان يظهر كيف طبق المسلمون قواعد علم الحرب التي استخلصها كلاوسيفتز وجوميني وفوللر ولكنه اخفق في تلك المحاولة الى حد بدا وكأنه يريد ان يلبس قبعة على راس ليست لها ، رغم ان حروب المسلمين الاوائل يمكن ان تكون اساسا لاشتقاق تلك القواعد التي اشتقت ، اساسا ، من دراسة حروب نابليون .

اما الذين ارخوا لتلك الحروب من زاوية معادية للعرب والمسلمين فقد التقوا في الجوهر مع ذلك المنطلق ، فقد راحوا يصورون الجيوش العربية الاسلامية ارتالا من المتعصبين الذين امتلأوا بالحماسة لدخول الجنة فراحوا يكتسحون كل ما امامهم بهجمات محمومة دون ان يمتلكوا ناحية فن علم الحرب . فلو اخذنا مثلا كتاب الجنرال ج.ب. غلوب « الفتوحات العربية الكبرى » ، فسنجده يؤكد المرة تلو الاخرى على تخلف العرب المسلمين من ناحية الفن العسكري . بل حتى انه حين كان يمر عن بعض التفصيلات المدهشة في تلك المعارك كان يحاول تقديمها بروح تنكر عليها وجود استراتيجية عمليات وتكتيك عسكري متطورين جدا . واذا كان المرء يجد بعض العذر لمحمد فرج حين اخفق في تقييم تلك الحروب من زاوية علمية عسكرية ، الا ان المرء لا يستطيع ان يجد اي عذر للجنرال غلوب ، خاصة وانه قدم تلك الحروب مدعومة بتفصيلات وخرائط تتناول العمليات والتكتيك ، ولم يبق الا الخروج بالاستنتاجات المنطقية من تلك التفصيلات والخرائط الا ان تعصبه الاعمى قاده الى استنتاجات ليست خاطئة فحسب، وانما ايضا منافية للروح العلمية والامانة العلمية .

ومن هنا ، فان النقطة الاولى التي لا بد من اجلائها هي ان الانتصارات العسكرية التي تحققت في حروب الفتوحات الاولى لم تكن نتاج الحماسة الدينية فحسب ، وانما ايضا ، نتاج وجود فن عسكري متطور جدا ووجود قيادات استراتيجية وتكتيكية على اعلى مستوى .

ان هذه الموضوعة لا تستهدف الانقاص من اهمية الجانب المعنوي لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنها تستهدف ابراز جانب الفن العسكري ، وان كان من الضروري قبل ابراز ذلك الجانب رؤية العلاقة بين اجتماع القوة المعنوية التي ولدها الاسلام في العرب والفن العسكري .

الجانب المعنوي والفن العسكري :

خصص كلاوسيفتز جزءاً كبيرا من كتابه « حول الحرب » On war على ابراز اهمية الجانب المعنوي في الحرب،خاصة، الشجاعة والاستبسال في القتال . ولهذا فان مناقشة اهمية الناحية المعنوية مسألة مفروغ منها. ولكن ، لا يعني هذا ان الحروب تكسب ، فقط ، بتوفر التفوق المعنوي . اذ ان اهمية الفن العسكري ـ الاستراتيجية والعمليات وقيادة التكتيك في المعركة ـ لا تقل اهميةعن الجانب المعنوي فهما صنوان كل منهما يكمل الآخر، ولا يؤدي افتقاد احدهما الا الى الهزيمة. طبعا لا نقصد القول هنا ان الحرب هي جانب معنوي وفن عسكري فقط .. اذ هنالك عوامل اخرى تلعب دورا هاما في مصير الحرب مثل التفوق العددي والتكنيكي والوضع المدني والاقتصادي الخ. ان الذي يناقش الان هو العلاقة بين الجانب المعنوي والفن العسكري في الفتوحات العربية الاولى .

ثمة جواب بسيط على اولئك الذين يفسرون الانتصارات العربية الاسلامية من زاوية واحدة فقط هي الحماسة الدينية . اذ كيف يستطيعون ان يفسروا بعض الهزائم التي مني بها المسلمون عندما كانوا في أوج حماستهم الدينية وشغفهم بالاستشهاد . فلو اخذنا معركة احد فلن نجد وهنا في ايمان المسلمين ، وانما سنجد الهزيمة نتاج خطأ تكتيكي ارتكبه رماة النبل عندما تخلوا عن موقعهم الذي حدده الرسول (صلعم) لهم وامرهم الا يتخلوا عنه تحت اي ظرف من الظروف . هنا نجد ان الحماسة الدينية والشغف بالاستشهاد لم يؤديا الى نصر عندما وقع خلل تكتيكي . ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن معركة الجسر ومعركة مؤته بالاضافة الى عدة حوادث هزم بها المقاتلون المسلمون مثل مقتل عقبة بن نافع وكامل جيشه الذي كان معه على يد البربر في شمالي افريقيا ، او الاربعة الاف مسلم الذين شقوا طريقهم الى باكو بعد معركة نهاوند حيث قضى عليهم الخزر ولم ينج منهم احد . ان المسلمين في هذه المعارك طلبوا الاستشهاد بقوة لا تقل عن اية معركة ظافرة اخرى لم تزد عليها . في الواقع لا يستطيع احد ان يجد مطعنا من الناحية المعنوية في تلك الهزائم ، بل على العكس سيجد طغيان الناحية المعنوية كان قويا الى حد اهملت بسببه بعض القواعد الاساسية في الحرب .. تلك القواعد التي حرص عليها المسلمون في كل معاركهم الظافرة .

اذا اردنا ان نقيم الاهمية المعنوية التي لعبها الاسلام في حروب الفتوحات فسنجد تلك الاهمية تتجلى :

اولا : من الناحية الاستراتيجية :

استطاع الاسلام ان يوحد العرب في الجزيرة العربية ، ثم في سائر المناطق التي تواجد فيها العرب خارج الجزيرة ، وبث فيهم روحا ثورية عالية لنقل ثورة الاسلام خارج حدودهم وبالتالي كون الجيوش الجرارة ، وحقق ما نسميه اليوم بالتعبئة العامة والحرب الكلية .

ثانيا : من الناحية التكتيكية :

١ ـ خلق قوات منظمة ، وارساء قواعد الانضباط الصارم ، مما عوض النقص في التدريب النظامي .

٢ ـ ادت الحماسة الدينية والشغف بالاستشهاد الى انجاح عمليات المناورة التي تتطلب جهودا كبيرة على تحمل صعوبات السير مئات الاميال، وتحمل كل انواع المشقات وشظف الحياة القتالية . هذا فضلا عن الدور التكتيكي في المعركة نفسها حيث اصبحت هجمات الصدام تتميز بزخم شديد للغاية .

ان ما تقدم لا يغطي كل شيء ولكنه يلقي ضوءا على الاهمية الحاسمة ، والاثر الكبير للدور الذي لعبته الناحية المعنوية استراتيجيا وتكتيكيا ، بل يمكن القول ان الفن العسكري العربي الاسلامي ما كان له ان يتجلى بأروع صوره لولا توفر الناحية المعنوية تلك .

ولكن ، كما سبق وقدمنا القول ان الناحية المعنوية وحدها ما كانت لتستطيع ان تحقق الانتصارات لولا ان توفر الى جانبها فن عسكري متطور جدا . فما هو هذا الفن العسكري الذي لعب دورا حاسما هو الاخر ؟ لكي نقيم المستوى الذي كان عليه الفن العسكري في تلك الحروب ، سنعقد مقارنة بينه وبين نظيره في حروب نابليون بونابارت . وهنا ينشأ سؤالان :

الاول : لماذا المقارنة مع حروب نابليون ؟ تعتبر حروب نابليون ـ استراتيجية عملياته وتكتيكه ـ الاساس الذي قام عليه علم الحرب الحديث . اذ لا يختلف اثنان من مؤرخي ومنظري الحرب ، في الغرب في ان نابليون يشكل نقطة الانعطاف التاريخية في فن الحرب ، حيث يتفق الجميع على ان الحروب قبل نابليون كانت عبارة عن تحرك الجيش المركز من نقطة في المكان الى ساحة المعركة حيث يلتقي الجيشان في معركة تخلو من المناورة الاستراتيجية ، وفي احسن الحالات تتضمن بعض المناورات التكتيكية . ولكن الحرب في عهد نابليون اصبحت حرب حركة .. تتميز بمناورات استراتيجية تلعب دورا حاسما في تقرير مصير الاشتباك قبل حدوثه . ولهذا نظر كلاوسيفتز وجوميني لعلم الحرب المعاصر انطلاقا من دراسة حروب نابليون . وسار على نهجهما من جاء بعدهما من مؤرخين ومنظرين .

في الواقع ان كل الذين كتبوا عن تاريخ الحروب ، وقيموا حروب نابليون ، تجاهلوا الحروب العربية الاسلامية ، وربما بسبب الجهل بالدرجة الاولى ، لان نظرة سريعة الى الفن العسكري الذي استخدم في حروب الفتوحات تكفي للخروج بالموضوعتين التاليتين :

أ ـ لا يمكن وضع حروب الفتوحات الاسلامية من ناحية الفن العسكري استراتيجيا وتكتيكيا ضمن عائلة الحروب التي سبقت عهد نابليون ، لانها تمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون عليها .

ب ـ ان التطوير الذي احدثه نابليون على فن الحرب ، قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من الف عام على يد العرب المسلمين ، رغم ان التطوير الذي جاء به نابليون لم يكن استمرارا موصول النسب بالتطوير الذي احدثه العرب . او على اقل تعديل لم يقم الدليل حتى الان على ان نابليون اطلع على حروب الفتوحات ، رغم انه من غير المستبعد ان يكون قد اطلع عليها ، وهو المشهور بشديد اهتمامه بدراسته تاريخ الحروب القديمة .

الثاني : هل من الصحيح اجراء مقارنة بين حروب نابليون وبين حروب الفتوحات ؟ حقا ان اجراء مثل هذه المقارنة يتضمن مخاطرة كبيرة لان كلا من تلك الحروب قد وقع ضمن ظروف مختلفة اختلافا جوهريا .. انها

مختلفة زمانا اي من ناحية التطور التقني واداة الحرب وقوى الانتاج والعلوم ، وهي مختلفة من ناحية المكان اي طبيعة الارض والظروف المادية والبشرية .. وهي مختلفة طبيعة اي من ناحية الاهداف التي قامت تلك الحروب من اجل تحقيقها ، ومن ناحية الطبقات التي قادتها . ولكن اذا اخذنا هذه الاختلافات بعين الاعتبار واجرينا المقارنة فسنجد تلك المقارنة مسوغة ، خاصة ، عندما نضع ايدينا على اوجه الشبه المذهلة .. بل اننا سندهش حقا حين نرى اوجه الشبه رغم تلك الاختلافات . ولكن يجب التذكر في اثناء المقارنة ان الجانب النابليوني كان اكثر تطورا ولكن في الاتجاه نفسه .

على ان الحكم الفيصل سيتقرر بعد خوضنا لهذه المخاطرة اذ سيظهر بالبرهان الملموس ان كنا على حق فيما ذهبنا اليه .

حروب نابليون

يقسم الجنرال الفرنسي اندريه بوفر Andre Beaufre في كتابه « مدخل الى الاستراتيجية Introduction to strategy تاريخ الحروب الى عدة مراحل يهمنا منها الان المرحلة الاولى والمرحلة الثانية اما المرحلة الاولى فتمتد منذ اولى الحروب التي سجلها التاريخ حتى نهاية القرن الثامن عشر، او على التحديد ، حتى نابليون وقد تميزت هذه المرحلة باستقلال كل من العمليات والاشتباك، اي كانت العمليات والمعركة شيئين مختلفين مستقلين عن بعضهما البعض ، وكان السبب في ذلك يرجع الى ان مستوى تطور المعدات العسكرية والسلاح لا يتيح لوحدة صغيرة معزولة ان تقاوم مدة طويلة ، اي اذا كان عليك التحرك بأمن فيجب ان يكون جيشك متراصا يسير ككتلة واحدة .. ولهذا فقد كانت عملية انتقال الجيش عبارة عن انتقال من نقطة في المكان الى نقطة اخرى لمواجهة العدو وكان من الممكن لاحد الجيشين او لكليهما رفض القتال عن طريق الانسحاب من نقطة الالتقاء ، او بعبارة اخرى لم تكن هنالك عمليات تطويق استراتيجي تفرض على العدو معركة سواء رضي او ابى . لذا كان على الجنرال ان يدخل المعركة بعد ان يؤمن تفوقا عدديا او وضعا اقوى .

اما المرحلة الثانية – مرحلة حروب نابليون – فقد اصبحت العمليات

والمعركة شيئين متمايزين **ولكنهما مرحلتان متداخلتان** . اذ تم على يد نابليون الجمع بين نظام التشكيلات المرنة الموزعة للعمليات وبين التركيز المطلوب للمعركة . بينما ظل اعداؤه يناورون مركزين . وقد ادى توزيع نابليون لقواته بعد ان قسمها الى جيوش وتحريكها من نقاط مختلفة الى شل عدوه وجعله لا يدري اين ستكون نقطة التركيز في المعركة . وبهذا كان بمقدور نابليون محاصرة العدو كما حدث في اولم Ulm او الالتفاف من خلفه وقطع خطوط مواصلاته واجباره على القتال كما حدث في معركة جينا Jena وبالتالي كان العدو مضطرا على خوض المعركة حتى ضمن ظروف غير ملائمة . وهنا كانت العمليات الاستراتيجية هي العامل الحاسم اكثر من المعركة . وبكلمات اخرى كان تحرك جيوش نابليون سريعا مرنا يستطيع ان ينسحب اذا شاء ويستطيع ان يفرض على العدو المعركة دون ان يتيح له امكانية الانسحاب . الامر الذي جعل استراتيجية العمليات تؤمن له نصرا بعد نصر .

اما الجنرال البريطاني د.ك. باليت D. K. Palit في كتابه اسس المعرفة العسكرية the Essentials of Military Knowledge فيعتبر هو الاخر نابليون نقطة الاساس في العلم العسكري الحديث ، ويرى ان الثورة الفرنسية خلقت الظروف التي اتاحت لنابليون استغلالها . اذ ان تقسيم الجيش الشعبي الى عدة جيوش كل جيش منها تحت قيادة مستقلة وكل جيش يتشكل من مختلف الاسلحة وقادر على خوض معارك بمفرده فتح امكانات استراتيجية وتكتيكية جديدة . كما ادى تطوير الطرقات ووسائط النقل الى زيادة قوة المناورة وولد مفاهيم مثل « خطوط العمليات » و « الخطوط الداخلية » ، و « الخطوط الخارجية » في حين كان اعداؤه يعملون ضمن جيوش مكثفة تحت قيادة مركزية مما جعلهم غير قادرين على ممارسة المناورة الاستراتيجية والمناورات التكتيكية . اما نابليون فقد كانت فرقه المنفصلة تعمل على نقاط متباعدة ، وذات امكانيات على المناورة الذاتية ، وبالتالي كانت قادرة على رسم خطة للمعركة بمرونة اكبر وقوة حركة اسرع، كان نابليون قادرا على تقسيم التنفيذ الى مرحلتين منفصلتين – مرحلة المناورات قبل الاشتباك ومرحلة المعركة نفسها . فقد استهدف من المرحلة الاولى كسب موقع استراتيجي من خلال تتابع تحرك مختلف الفرق التي تقوم بتطويق العدو او الالتفاف على احد اجنحته بحركة فائقة كما حدث في أولم، او قطع خطوط مواصلاته كما حدث في جينا ، واخيرا

عندما يوضع العدو في وضع غير ملائم له ، كان نابليون ينفذ المرحلة الثانية من خلال الاطباق على العدو بتشكيلات هجومية .

اما جوميني Jomini الذي عمل تحت قيادة نابليون والذي يعتبر افضل من ارخ لحروب نابليون فقد ركز في كتابه « خلاصة فن الحرب » Summary of the Art of war على اهم الدروس التي استقاها من حروب نابليون وهي جلب القسم الاعظم من قوات الجيش بالتتابع من خلال اجراءات استراتيجية الى المسرح الرئيسي في الحرب ، على ان تقطع طرق مواصلات العدو دون ان تعرض طرق مواصلاتها هي الى الخطر . ان المناورة بهذه الطريقة تستهدف وضع قواتك الرئيسية ضد اجزاء من قوات العدو . ولا يكفي ان يكون جلب تلك القوات الى احتلال النقاط الحاسمة فحسب ، وانما يجب ايضا جعلها تعمل بسرعة وجماعيا بحيث تقوم بجهد موحد .

واذا كان كلاوسيفتز Clausewitz قد حلل حروب نابليون ضمن تلك الخطوط الا انه اهتم بصورة خاصة في كتابه «حول الحرب» (On war) في مسألة اخذ القرار الاستراتيجي الحاسم الذي يعني دفع الحرب « الى حدها الاقصى » حيث يجب ان تنتهي اما بسحق العدو نهائيا واما بالاطاحة به اطاحة كاملة . كما كانت استراتيجية نابليون دائما . كما اهتم بدور الجانب المدني للامة في الحرب .

اما جيمس مارشال كورنول James Marshal - Cornwall في مؤلفه الضخم « نابليون كقائد عسكري Napolion as Military Commander فقد حاول ان يبرهن على ان التطوير الذي عرفه الفن العسكري على يد نابليون لم يكن من ابداع نابليون بالذات ، وانما سبق وولدته التجارب السابقة ، وتناولته كتابات عسكرية تقدمت على عصر نابليون . اما دور نابليون فقد تلخص بالتطبيق الخلاق لكل تلك التجارب والكتابات على ارض الحرب والمعركة ، فمثلا :

أ ـ المبدأ التكتيكي الذي سبق واستخلصته ـ الثورة الفرنسية ـ في الفترة ما بين ١٧٩٢ ـ ١٧٩٥ هو ان يشن القائد هجومه الرئيسي بارتال مكثفة هجومية Columns ضد النقطة التي يعتبرها مفتاح موقع العدو بعد ان يكون قد زعزع الدفاع بنيران تحضيرية عن طريق المناوشين Skirmishers

وتركيز المدفعية . اما اضافة نابليون على هذا المبدأ فلم تتعد زيادة نسبة المدافع والاحتفاظ بمدفعية احتياط تحت تصرفه من اجل ان تركز نيرانها عندما تصل المعركة اوجها .

ب ـ وكذلك الحال بالنسبة « للتكتيك الكبير » (grand tactics) والالتفاف حول الاجنحة وتنظيم الجيش الى فرق وفيالق من اجل امتلاك مرونة اكبر في الزحف وفي المعركة فقد جاء نتيجة تجربة حرب السنوات السبع .

ج ـ تشديد نابليون على ضرورة ان تعيش جنوده من البلاد التي تدخلها ، او تعمل فيها، وبهذا تمتلك حرية المناورة حين تتحرر من الاعتماد على الامدادات والمخازن الخلفية هو تقليد الجيوش الثورية .. يرجع منشأه من حاجة فرنسا الى اطعام الجيش من خارج الحدود .

د ـ كان مارشال دي ساكس Marshal Count Maurice de Saxe (١٦٩٦ ـ ١٧٥٠) والذي وصفه ليدل هارت بانه « نبي العسكرية » قد كتب في مذكراته Rêveries (١٧٣٢) حول ضرورة زيادة حركة الجيش ومناوراته . واقترح من اجل تحقيق ذلك ، تنظيم الجيش على اساس ليجونات (او قل فرق باللغة الحديثة) على ان تكون كل فرقة قوة قتالية مستقلة مؤلفة من كل الاسلحة .

هـ ـ ان تقسيم الجيش الى جسم رئيسي تسبقه قوات طليعة وله احتياط في الاجنحة جاء نتيجة تجربة حرب السبع سنوات ، وقد اكسب هذا التنظيم الجيش مزيدا من الحركة والمناورة اذ اتاح للجسم الرئيسي ان ينشر صفوفه deploy او يلتف حول اجنحة العدو بينما تكون قواته الطليعية ، قد اشغلت وثبتت الجسم الرئيسي في قوات العدو . وكانت هذه التشكيلة هي تشكيلة فرق جيش نابليون عام ١٧٩٦ في حملته الاولى على بيدمونت Piedmont . ان الفن العسكري هنا يتلخص في تقسيم الجيش الى عدة اقسام وابقائها تحت سيطرة القائد وضمن تعاون قريب لتجنب هزيمة اي قسم على حدة ومن اجل التركيز للمعركة في اللحظة الحاسمة .. ان المبدأ العام هنا هو الزحف بارتال مختلفة ولكن القتال يتم على اساس توحيد تلك الارتال وتركيزها في المعركة .

و ـ كان الجنرال ج. جيوبرت J.A.H. Guibert (١٧٤٣ — ١٧٩٠) وهو الذي درسه نابليون جيدا قد كتب . « في الماضي كانت الحركات الضرورية لجعل الجيش يأخذ شكل رتل او خط المعركة ، بطيئة ومعقدة الى حد كانت تستغرق فيه عدة ساعات من اجل اخذ المواقع ، وكان على الجيش ان يصطف من مسافة بعيدة عن العدو . اما في المستقبل فيجب ان تكون الحركات بسيطة سريعة متأقلمة مع كل انواع الارض .. كما يجب ان تنظم تشكيلة القتال في اخر لحظة ومن اقرب مسافة ممكنة من العدو ، لان الارتال Columns اسهل على المناورة من الخطوط Lines . اذ سيؤدي تضييق نقطة الهجوم في اللحظة الاخيرة الى ارباك العدو وعدم اتاحة فرصة له لمواجهتها » .

لقد اراد جيمس كورنول من كل ما تقدم ان يؤكد على ان تلك التطويرات العسكرية التي تنسب الى نابليون كان مسبوقا عليها، اما عبقريته فتتلخص في تطبيقها تطبيقا خلاقا .

اما فردريك انجلز في موضوعته « نظرية القوة » في كتابه « ضد دوهرنغ فقد ابرز كيف الغيت قيمة تشكيلة الخطوط Lines القتالية امام زمر الثوار الاميركيين في حرب الاستقلال الاميركية حيث اعيد اكتشاف القتال باسلوب المناوشات وهو اسلوب جديد في الحرب جاء نتيجة تغير المادة الانسانية ، اي الرجال الذين يقاتلون من اجل قضية وليس كجيوش مرتزقة . ثم يشير الى الثورة الفرنسية التي اكملت ما بدأته الثورة الاميركية في المجال العسكري حيث واجهت جيوشا مرتزقة حسنة التدريب بقوات تمثل تجنيد امة بأسرها ، ولكن كان على الثورة الفرنسية ان تدافع عن باريس وتدخل معارك مكشوفة مما جعل اسلوب القتال بالمناوشات غير كاف .. فتم اكتشاف شكل جديد يستخدم من قبل كتل كبيرة من المقاتلين وهو تشكيلة الرتل Column حيث اتاحت هذه التشكيلة امكانية التحرك بسرعة وبدرجة جيدة من النظام بالنسبة لقوات ضعيفة التدريب كما اتاحت تشكيلة الرتل امكانية القتال على اي ارض حتى على الارض التي تعتبر غير مؤاتية اطلاقا لتشكيلة الخطوط ، لقد اتاحت تشكيلة الرتل العمل جنبا الى جنب مع هجمات من قبل قوات المناوشة لاشغال تشكيلات خطوط العدو وابقائها في حالة اشتباك وانهاكها الى ان تأتي اللحظة المناسبة لتندفع كتل الاحتياط فتخرق تلك الخطوط في

النقطة الحاسمة .

ويتابع انجلز قائلا « ان هذا الاسلوب الجديد في الحرب والقائم على اساس الجمع بين قتال المناوشات وقتال الارتال ، والقائم ايضا على اساس تقسيم الجيش الى فرق او فيالق مستقلة مؤلفة من كل انماط الاسلحة ، قد بلغ غاية كماله على يد نابليون سواء من ناحيته الاستراتيجية او من ناحيته التكتيكية » .

والى هنا ، نكون قد استعرضنا كيف يقيم المنظرون والمؤرخون العسكريون التطوير الذي حدث في فن الحرب في عهد حروب نابليون ، كما نكون قد وضعنا الخطوط الاساسية او قل السمات الرئيسية التي تميز بها الفن العسكري على يد نابليون والتي اعتبرت نقطة انعطاف في فن الحرب انتقلت به من مرحلة متدنية الى مرحلة ارقى مختلفة كيفيا عن سابقتها .

ولكن كنا قد زعمنا في مطلع هذه الدراسة ان الفن العسكري في عهد الفتوحات العربية الاسلامية الاولى لا يمكن وضعه استراتيجيا وتكتيكيا ضمن عائلة الحروب التي سبقت عهد نابليون لانه يمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون عليها ، كما زعمنا بأن التطوير الذي احدثه نابليون على فن الحرب قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من الف عام (١١٦٠ سنة) على يد العرب المسلمين ، ولهذا علينا الان اقامة الدليل الذي يحول الزعم الى حقيقة ملموسة .

ولكي نسهل المقارنة فلنتناول تلك السمات التي امتاز بها الفن العسكري تحت قيادة نابليون كاجزاء اولا ثم رؤية ديناميكية عملها مجتمعة :

تقسيم الجيش والمناورة الاستراتيجية

يلاحظ من كل الموضوعات السابقة حول نابليون انها ركزت على اهمية تقسيمه للجيش الى فرق او فيالق ، كل منها ذات قيادة مستقلة ، كما تتشكل كل فرقة من مختلف صنوف الاسلحة وتستطيع الدخول بمعارك منفردة الى جانب تحريكها من نقاط مختلفة مما جعل ساحة الحرب ساحة واسعة جدا

تتحرك فيها تلك الفرق بمناورات استراتيجية لا تسمح للعدو تحديد اتجاه التركيز ، كما تؤدي الى قطع مواصلاته او تطويقه واجباره على دخول معركة حتى حين يجد نفسه في وضع غير ملائم . وكان هذا عكس ما جرّى عليه التقليد العسكري في الماضي حيث كان الجيش يتحرك ككتلة واحدة جبارة باتجاه نقطة المعركة حيث يلتقي مع الخصم في معركة مواجهة دون عمليات مناورة استراتيجية ، فقد كان الشيء الحاسم هو عملية الاشتباك بالذات .

عندما حدثت ردة القبائل العربية عن الاسلام قسم الخليفة ابو بكر الصديق جيش المسلمين الى احد عشر لواء ، وجعل على كل لواء قائدا .. وحرك تلك الالوية لتعمل مستقلة ومتعاونة في آن ، فقد كان على كل لواء ان يقوم بعمليات مستقلة في جبهة محددة ، فأحيانا كانت مهمته تثبيت العدو وازعاجه باستمرار ، واحيانا كانت مهمته الدخول في معركة فاصلة معه ، حسب مقتضيات الوضع . ولكن كان من بين تلك الالوية لواء رئيسي يشكل الجسم الرئيسي الذي يقوم بمهمة الدخول في المعركة الحاسمة مع قوات العدو الواحدة بعد الاخرى ، وكان على رأس هذا الجيش خالد بن الوليد . وكان كلما واجه قوة رئيسية من قوات المرتدين ، يقوم بالتركيز ضدها عن طريق انضمام بعض الالوية الاخرى له . ثم ينتقل ليكرر تلك العملية . وهنا نجد كل ملامح التقسيم الذي يجمع بين مرونة الحركة والمناورة وبين التركيز في المعركة .

كان لنجاح هذه التجربة أثر حاسم اذ اصبحت احدى السمات الرئيسية في الفن العسكري في حروب الفتوحات .

ولعل حملة بر الشام من اروع الامثلة على تأكيد هذه النقطة فقد قسم ابو بكر الصديق جيش المسلمين الى ثلاثة جيوش قاد احدها عمرو بن العاص ، وقاد شرحبيل بن حسنه الجيش الثاني بينما قاد يزيد بن ابي سفيان الجيش الثالث . واخذ كل جيش خط عمليات مستقل ، فانطلق جيش عمرو بن العاص باتجاه العقبة ومنها الى جنوب فلسطين .. بينما كانت منطقة جيش يزيد عبر تبوك ثم شمالا الى البحر الميت ومنطقة شرقي الاردن ، اما جيش شرحبيل فاتجه شرقا نحو دمشق وكانت التعليمات التي حملها قادة تلك الجيوش ان يعملوا بتناغم بحيث يظل الاتصال مستمرا فيما

بينهم كما يظل مستمرا فيما بينهم وبين الخليفة . واذا ما ارتطم احدهما بمقاومة تعني معركة حاسمة انضم له الجيشان الاخران وركزت القيادة بيد القائد الذي تجري العمليات في منطقته .. نجد هنا السمات التالية :

ا ـ منطقة الحرب اصبحت ساحة واسعة جدا تناور فيها الجيوش على الخطوط الداخلية للعدو دون ان تفقد الاتصال فيما بينها ودون ان تعرض خطوط مواصلاتها للخطر .

ب ـ الجمع بين مرونة المناورة والحركة الواسعة وبين التركيز المطلوب للمعركة .

ج ـ كل جيش له قيادتهالمستقلة ويتشكل منمختلف صنوف الاسلحة، وقادر على خوض معارك بمفرده .

د ـ ابقاء الاتصال وخط المواصلات مع المركز في المدينة من اجل استمرار التعبئة والتعزيز وقيادة استراتيجية العمليات . الى جانب المحافظة على الاتصال وخط المواصلات فيما بين تلك الجيوش الثلاثة .

بدلا من ان يقيم الجنرال غلوب هذا التقسيم ، واستراتيجية عملياته على ضوء ما يقيم به تقسيم جيوش نابليون واستراتيجية عملياته ، راح يبدي استغرابه لماذا قسم ابو بكر القوات على هذه الصورة وحاول تأويل ذلك في كتابة « الفتوحات العربية الكبرى » (الصفحات ١٣١ و ١٣٢ ـ الطبعة الانكليزية) بطرح الاحتمالات التالية :

١ ـ « ربما جعل نقص الماء في الصحراء من الضروري التحرك بقوات منفصلة » ولكنه نسي ان هذه النقطة مردود عليها في حملة تبوك التي سبقت ذلك العهد حيث سار جيش موحد من ثلاثين الفا الى تبوك .

٢ ـ او ربما « بسبب الحسد بين القادة الذين يرفضون الخدمة تحت بعضهم البعض » . ولكن هذا التأويل ادهى من سابقه ، اذ ثمة دلائل عديدة على ان مسالة الحسد غير واردة ، فقد خدم كل اولئك القادة تحت قيادة خالد بن الوليد في حروب الردة ، كما خدموا فيما بعد تحت قيادة خالد

في تلك الحملة نفسها ، ثم تحت قيادة ابي عبيدة بن الجراح . بل ان كلمة خليفة المسلمين ما كانت لتخالف عندما كان يختار قائدا عاما او عندما كان يعزل قائدا . والدليل على ذلك تدعمه امثلة كثيرة .

٣ ـ « منطقيا يمكن الاستنتاج ان ابا بكر اراد لهذه القوات ان تلعب دور ازعاج اكثر من غزو البلاد » وهنا ايضا يسقط منطق غلوب امام جدية الحملة التي دخلت معارك فاصلة وفتحت بر الشام كله . ثم كيف يستطيع ان يفسر اعادة تقسيم قوات المسلمين الى عدة جيوش بعد ان دحرت قوات البيزنطيين في اليرموك وفتحت دمشق . اذا لم يكن هذا التقسيم قد قام على اساس مدروس وفهم كامل لدوره واهميته ؟ وكيف يفسر نقل احد الجيوش من جبهة سوريا لتعزيز جبهة العراق ، او نقل احد الجيوش من جبهة العراق لتعزيز جبهة سوريا .

يبقى السؤال ما هي العوامل التي جعلت العرب المسلمين يكتشفون هذا الشكل من القتال وتقسيم الجيش ؟ اذا كان تقسيم الجيش الفرنسي بعد الثورة قد جاء نتيجة ثلاثة عوامل رئيسية :

أ ـ عندما اصبح الجيش كتلا من الجماهير المعبأة بعد الثورة الفرنسية، او عندما اصبح يمثل تجنيد امة بأسرها كما يقول انجلز ، غدا من الممكن تقسيمه الى ارتال وفرق ، فان هذا الشرط توفر لجيوش العرب بعد ثورة الاسلام التي اصبحت تمثل تجنيد امة بأسرها .

ب ـ زيادة كثافة النيران لوحدة صغيرة اتاح لها امكانات المقاومة مدة اطول ، وبالتالي خلقت الشروط لتقسيم الجيش الى فرق دون تعريض امنه وحركته للخطر .. ان هذا الشرط لم يتوفر في فترة الفتوحات الاولى ، ولكن كان مقابله شرط آخر يؤدي في الجوهر الى النتيجة نفسها ، وهو اعتماد التقليد العربي الصحراوي على سرعة الحركة والقدرة على الاختفاء والظهور وكثرة التنقل والمناورة ، مما اتاح لوحدة صغيرة امكانات المقاومة مدة اطول من خلال التحرك الخاطف .. الاختفاء الخاطف والظهور الخاطف . فامن هذا امكانية تقسيم الجيش الى فرق دون تعريض امنه وحركته للخطر . وهذا بدوره اتاح للعرب المسلمين امكانية اكتشاف اهمية المحافظة على خطوطهم الداخلية والعمل على خطوط العدو الداخلية ، لان العمل العسكري هنا اصبح يعتمد على الحركة والسرعة والاتصال المستمر

بالمركز وبالقوات الاخرى من اجل تأمين المساندة والتعاون .

ج ـ تطور الطرق والمواصلات زاد من قوة المناورة الى جانب تطور وسائط النقل .. ان هذا الشرط الذي لعب دورا هاما في تقسيم جيش نابليون وبروز مفاهيم مثل « خطوط العمليات » ، و « الخطوط الداخلية » و « الخطوط الخارجية ». قابله شرط اخر لدى الجيوش العربية الاسلامية وهو خفة احمالها وسهولة تنقلها .. وبالتالي اصبحت كل الاراضي عبارة عن طرق مواصلات ليست بحاجة لان تعبد .

التكتيك الكبير grand tactics

قلنا ان تقسيم الجيش الى فرق فتح امكانات واسعة امام نابليون لتطوير فن الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية . فقد اصبح بمقدوره امتلاك زمام المبادرة في التحرك على خطوط متعددة ، بحيث ينسحب من المعركة اذا شاء بينما يكون قادرا على فرض معركة على العدو دون ان يترك له مجالا للانسحاب .

كان العرب المسلمون كما قلنا قد قسموا جيوشهم الى فرق وطوروا فن الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية ، فمثلا ركزوا قواتهم في اليرموك وجنوبي درعا عندما واجهوا تركيز البيزنطيين بين جبل حوران واليرموك وجبال الجولان ـ في سهل درعا .. وكان ذلك الموقع الاستراتيجي يشكل مفتاح سوريا كما تتركز فيه القوات العسكرية للعدو ، بينما امر الخليفة ابو بكر خالد بن الوليد التحرك بجيشه الذي كان يعمل مع جيش المثنى بن حارثة في جبهة العراق ، لمساندة جيوش المسلمين في اليرموك .. فقام خالد بن الوليد بعملية التفاف عبقرية حول جيش العدو وضرب طريق مواصلاته مع دمشق .. وتم له الاتصال مع القوات المركزة جنوبي درعا .. وعندما حاول هرقل التحرك بجيش كبير جنده خصيصا لمساندة قواته في درعا . قرر تجاوز تلك المنطقة عن طريق شمالي فلسطين والتوجه لضرب قوات عمرو بن العاص اولا في جنوب فلسطين ومن ثم يكون بمقدوره محاصرة قوات العرب في اليرموك من الجنوب .. ولكن سرعان ما قررت قوات اليرموك اللحاق به والقيام بعملية التفاف مضاد ودعم قوات عمرو بن العاص فشقت طريقها عبر شرقي الاردن ـ عمان

فالكرك الى جنوب البحر الميت ومن هناك الى وادي عربة وبئر السبع حيث جيش عمرو بن العاص .. وكانت حركتهم اسرع بكثير من حركة قوات هرقل رغم ان الطريق التي قطعوها ، خاصة ، جبال مؤاب الصعبة ، اشد وعورة واطول مسافة ، ولكنهم سبقوه .. وتم اللقاء في معركة اجنادين التي اطبقوا عليه فيها وانزلوا الهزيمة بقواته ثم استداروا بسرعة للعودة الى اليرموك بقواتهم المركزة .

ان الذي راجع حملة نابليون الاولى على بيدمونت وشمالي ايطاليا يلاحظ شدة الشبه بين تقسيم قواته وعملياته الاستراتيجية وبين تقسيم القوات العربية وعملياتها الاستراتيجية في بر الشام .

كان نابليون قد قسم جيشه الى ثلاثة فرق بقيادة كل من ماسينا Massena واوغريو Augereau وسيروري Serruier وكان على ماسينا ان يقطع ممر كاديبونا Cadibona ويتمركز في مونتينوتي وديغو Montenotte and Dego لعزل النمساويين بينما يتقدم اوغريو من الغرب وسيروري من الجنوب وبهذا يشن الهجوم على سيفا Ceva التي هي مفتاح بيدمونت . ولكن اكتشف نابليون ان الحركة التهديدية التي قامت بها الحكومة الفرنسية ضد جنوه لاجبارها على تقديم قرض قد تستدرج القوات النمساوية .. فأمر بتعزيز قوات فولتري Voltri مما ازعج النمساويين وجعلهم يطلبون من قائدهم بيوليو Beaulieu التحرك لحماية جنوده .. فوقع بالفخ وارسل قواته المتحركة .. وهنا قرر نابليون تغيير خطته فبدلا من مهاجمة سيفا Ceva تحرك لضرب بيوليو اولا .. وكانت معركة مونتينوتي Montenotte التي قررت مصير الحملة .. ومنها انتقل للاجهاز على القوات النمساوية .. ثم بعد ان تم له ذلك توجه لمحاصرة سيفا Ceva على أن يهاجم أوغريو مواجهة بينما يلتف ماسينا على الميمنة ويلتف سيروير على الميسرة .. ولكن كولي Colli قائد البيدمونتيين تراجع قليلا ليتحصن في موقع قوي على نهير كورساغليا Corsaglia بين سان ميشيل وليزينغو Lesengo .. وأخيرا اقتحمه نابليون هناك وفتحت امامه سهول بيدمونت .

الشيء الغريب الذي حدث في معركة اليرموك الاولى ان العرب حين راحوا يركزون في جنوبي درعا وقد امر الخليفة جيش خالد بن الوليد

بالتحرك من العراق لتعزيز القوات هناك ، ظلت قوات عمرو بن العاص تعمل في جنوبي فلسطين ولم تتحرك للانضمام الى القوات العربية الاسلامية الاخرى في اليرموك . واذا اضفنا الى هذه الواقعة عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين وانما القيام بعمليات مناوشة ، فمن المشروع ان نستنتج ان القيادة تركت قوات عمرو بن العاص كطعم يضطر هرقل للتحرك باتجاهه، ما دام يهدد مواقع البيزنطيين الهامة في فلسطين ، والا فما معنى ابقاء عمرو بن العاص هناك بالوقت الذي يحث فيه خالد بن الوليد للتحرك باسرع ما يمكن لتعزيز قوات اليرموك ؟ وما معنى عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين ؟ ثم لماذا لم يطلب من عمرو بن العاص الانسحاب من فلسطين امام تهديد زحف هرقل بدل ان تنتقل القوات المركزة في اليرموك الى فلسطين ؟ ان كل هذه التساؤلات تفرض علينا الاستنتاج ان خطة العمليات العربية كانت تستهدف استدراج قوات هرقل وضربها في فلسطين قبل اقتحام قوات هرقل المركزة في سهل درعا . واذا صح هذا الاستنتاج فلن يكون الشبه كاملا فحسب ، وانما ايضا تكون العقلية الاستراتيجية العربية في تلك الحملة ارقى من الطراز النابليوني . ولكن حتى لو اعتبر هذا الاستنتاج ضعيفا بسبب عدم وجود دليل مكتوب عليه ، فان تغيير خطة التركيز من اليرموك والتحرك السريع الى ملاقاة جيش هرقل في فلسطين، يعتبر عملية استراتيجية من اعلى مستوى تماما كتغيير تركيز نابليون على ممر سيفا Ceva والتحرك الى جنوه لضرب الجيش المتحرك .

الجمع بين تشكيلة الرتل والمناوشة

كانت تشكيلة الفلانكس Phalanx المكدونية في القتال تأخذ شكل خطين متوازيين وهذه تشكيلة تؤمن جبهة واسعة ولكن ضعفها يتركز في خلوها من الاحتياط الى جانب ضعف مناورتها فما ان يشتبك الخطان Lines حتى يصبح اي تحرك غير ممكن عدا المضي في الصدام حتى النهاية . كما لها ضعف اخر وهو ارتباطها بالارض المنبسطة اذ تنبع قوتها من تماسك كتلتها لذلك كان دخولها الى ارض ضيقة او متعرجة او وعرة يضعف تماسكها وقوتها .

اكتشف الرومان نقاط ضعف الفلانكس اليوناني ، فاستبدلوه بتشكيلة الليجون Legion وهو عبارة عن تشكيلة خط الفلانكس ولكن مع قسمة الخط الى خطين بينهما ٢٥٠ قدما وهما للصدام المباشر بينما ترك

وراءهما خط ثالث كتعزيز او دعم او احتياط ، اي ان الرومان جعلوا تشكيلة الليجون من ثلاثة خطوط Lines ، وقد اكتسب الليجون من هذا التقسيم عمقا وبالتالي اصبحت الكتلة الكبيرة اقوى على الحركة والمناورة . وعندما اصطدمت تشكيلة الفلانكس اليونانية بتشكيلة الليجون الرومانية في معركة بيدنا Pydna ١٦٨ ق.م استغل الرومان ضعف الفلانكس فجروه الى ارض غير منبسطة فانفصل جناحاه في حين اندفع الرومان على شكل راس سهم فشقوا تماسكه .. واصبح غير قادر على الحركة في حين راح الرومان يستخدمون الاحتياط وبهذا انزلوا به الهزيمة .

استفاد البيزنطيون من معركة ادريانوبل Adrianople (٣٧٨ ب.م) واصبح سلاح الفرسان يشكل قوة الصدمة الاولى التي تستطيع شق الليجونات بينما راح الفرس يستخدمون سلاح الفيلة لعمليات اختراق الصفوف وتمزيقها ، وكانت تشكيلتهم تتألف من ثلاثة خطوط كالليجون .

ادى استخدام الاسلحة النارية حتى عهد نابليون الى سيادة تشكيلة الخطوط Lines من جديد ، لتأمين جبهة امامية كثيفة في نيرانها وواسعة جدا .

وجاءت الثورة الفرنسية بجماهيرها الغفيرة لتبدع تشكيلة الرتل (Column) . الذي لم يضح باتساع الجبهة الامامية التي تؤمنها تشكيلة الخط في حين أمن ايضا العمق الذي برزت اهميته في معركتي ريفولي Rivoli ومارينغو Maringo وبهذا تميز على تشكيلة الخط التي تخلو من العمق كما تميز عليها بسهولة قيادته وسهولة حركته وسرعته ومقدرته على التأقلم مع الارض . وقد ابدع نابليون باستخدام كتائب القناصة لحماية اطراف الرتل ودعم نيرانه بنيران المناوشة . ان الشيء الاساسي هنا هو الجمع المرن بين تشكيلة الرتل وبين اسلوب المناوشة في القتال الذي طورته تجربة حرب الاستقلال الامريكية .

لقد كان لتشكيلة الرتل اهمية استراتيجية اذ اتاحت امكانات لحركة المناورة الواسعة كما زادت من سرعة تحرك الجيش ، الى جانب عدم التقيد

بالطرقات الممهدة في اثناء الزحف ، اي امتلكت مرونة التحرك على مختلف اشكال الارض . كما كان لتشكيلة الرتل اهمية تكتيكية اذ اعطت عمقا للجبهة دفاعيا كما زودت الهجوم بزخم شديد ، واكسبت الجيش مرونة وسرعة في اجراء الحركات التكتيكية .

كانت تشكيلة القتال الاساسية في حروب القبائل العربية اشبه بزمر المناوشة حيث تنظم القوات على شكل مجموعات لتمتلك المرونة في تطبيق تكتيك المناوشة الذي كان يسمى بأسلوب الكر والفر ، فقد كانوا اذا رأوا ضعفا في العدو كروا عليه ، ولكن اذا امتد الضعف الى جبهتهم فروا ثم يعودون فيكرون وهكذا .

وعندما جاء الاسلام كرس الرسول (صلعم) تشكيلة الصفوف التي تشبه صفوف الصلاة وهي ارقى من تشكيلة الليجونات بسبب توفر العمق للدفاع والزخم في الهجوم .

ولكن عندما انتصر الاسلام واصبحت جيوشه كتلا ضخمة من المقاتلين كرس خالد بن الوليد تشكيلة الكراديس وهي اقرب ما تكون لتشكيلة الرتل وقد بلغ جيش المسلمين في معركة اليرموك الاولى ٣٦ كردوسا مقسمة الى كراديس ميمنة واخرى ميسرة واخرى قلب الى جانب مجموعات المناوشة والطليعة . وبهذا اصبح الجيش كتلا من الكتائب التي تجمع بين المرونة والتركيز ، وبين اتساع الجبهة وتوفر العمق مع امكانات كبيرة على المناورة التكتيكية .

في الواقع لا توجد تفصيلات دقيقة حول طريقة صف الكراديس وكيف تنظم في الزحف وكيف تأخذ تشكيلة القتال في المعركة .. ولكن يمكن الاستدلال من سرعة تحرك جيوش العرب المسلمين في اثناء الزحف على ان تشكيلاتها لا يمكن ان تكون الا شبيهة بتشكيلة الرتل فاذا كانت تشكيلة رتل نابليون ضربت رقما قياسيا في سرعة الزحف اذ كان معدلها ١٤ ميلا في اليوم وعلى ارض صعبة وهذه سرعة لا يمكن ان تتوفر الا لتشكيلة الرتل ، واذا عرفنا ان معدل سرعة جيوش المسلمين انها فاقت تلك السرعة بضعفين او ثلاثة على الاقل ـ مثلا قطع خالد بن الوليد صحراء حمد بخمسة ايام والمسافة حوالي مائتي ميل ـ واذا خصمنا لمصلحة جيوش

نابليون عامل ثقل معداتها وذخائرها ومدافعها ، فان نسبة سرعة جيوش
العرب المسلمين ستظل بالمستوى نفسه او اكثر . ثم اذا حسبنا المسافة
التي قطعها هرقل من شمالي فلسطين حتى اجنادين ، ثم اذا حسبنا
المسافة المقابلة من الرمشا الى عمان فالكرك فوادي عربة ثم صعودا الى
اجنادين ، فسنجد ان سرعة جيوش العرب المسلمين كانت تفوق سرعة
جيوش الرومان بما لا يقل عن اربعة اضعاف . ولا يمكن لجيش ان يحقق
مثل هذه السرعة وعبر مناطق جبلية (سلسلة جبال مؤاب) الا على اساس
تشكيلة الرتل .

ثم يمكن الاستدلال من مجموعة المعارك التي حملت كتب التاريخ بعض
التفصيلات عنها ، بان تشكيلة القتال التي تبناها العرب اقرب ما تكون
لتشكيلة الرتل ، فمثلا في معركة البويب ضد الفرس الذين تبنوا
تشكيلة قريبة من تشكيلة الليجون مقسمة الى ثلاثة صفوف وقد استخدموا
الفيلة كقوة الصدمة الهجومية ، وجدنا بعض اجنحة العرب اخذت تترنح
بادىء ذي بدء خاصة فرقة بني عجل . ولكن سرعان ما حثهم المثنى على
الثبات فأعادوا تنظيم تشكيلتهم بسرعة وثبتوا .. وهذه صفة لا يمكن ان
تتوفر الا لصفوف تشكل مربعا كثيفا او رتلا ، خاصة ، اذا اخذنا بعين
الاعتبار ان تشكيلة الليجونات او الخطوط Lines تحتاج اذا ما تخلخلت،
الى درجة عالية جدا من التدريب العسكري لجيش محترف وهي تشكيلة
لا تناسب قوات شعبية ، ثم اذا تابعنا تلك المعركة التي دارت سجالا وظل
المثنى الى وقت طويل يراقب المعركة ومعه جيش من الاحتياط مؤلف من
قوات تمير وتغلب المسيحية دون ان يلقي بها الى المعركة وظل كذلك حتى
بدا هجوم الفرس يفقد زخمه ، وهنا لاحت اللحظة الحاسمة لشن الهجوم
المضاد فشد بقوات الاحتياط تلك الى وسط الجيش الفارسي فخرقه تماما
فدبت به الفوضى وفقد تماسكه ، في حين تابع المثنى وقوات الاحتياط
خرق الجيش واسرعوا لسد الجسر في مؤخرة الفرس لمنعهم من الانسحاب..
وبهذا سحقت القوات الفارسية وتحقق نصر استراتيجي اصبح العرب بعده
يطرقون ابواب بغداد والمدائن .

ان عملية الهجوم الذي شنه المثنى وطريقة تنفيذه لا يمكن ان يتم الا
على اساس تشكيلة الرتل فهو تركيز على نقطة يتطلب عمقا وزخما لا يمكن

ان يتوفرا لتشكيلة الخط .

على ان الشبه الاكبر يكمن بين تكتيك نابليون في الجمع بين قتال
الرتل وقتال المناوشات ، وبين تكتيك العرب المسلمين في الجمع بين
قتال الكراديس وقتال المناوشات . فقد اعتبر نابليون مطورا لاسلوب قتال
المناوشات التي بدأته الثورة الامريكية اذ لم يجعله الشكل الوحيد للقتال
وانما جعله شكلا مصاحبا لقتال الارتال .

في الواقع ، حدث الشيء نفسه بالنسبة للفتوحات العربية الاولى ،
اذ كان قتال المناوشات هو الشكل السائد في القتال بين القبائل العربية
قبل الاسلام ، وقد وصل درجة عالية من الكمال على يد عرب العراق ،
خاصة ، بعد ان عزل الفرس الملك النعمان عام ٦٠٥ م ودخل اللخميون في
صراع طويل الاجل ضد الدولة الفارسية حيث راحوا يشنون قتالا غواريا
ضدها .. يقوم على اساس المناوشة وتجنب معارك المواجهة المكشوفة .

وعندما تكونت الجيوش العربية بعد الاسلام واصبحت تخوض معارك
مواجهة مكشوفة حرصت على الجمع بين القتال النظامي وبين قتال
المناوشات ، فقد احتفظت بمجموعات مناوشة لتقوم بدور الاستطلاع الى
جانب العمل كطليعة امام الجيش وقوات متحركة على الاطراف . تستخدم
السهام في مناوشة العدو . الى هنا يكون دورها شبيها بدور كتائب
المناوشة النابليونية ، ولكن القيادة العربية الاسلامية استخدمتها ايضا
لازعاج العدو واجباره على دخول معارك تحت ظروف غير ملائمة ، كما
حدث في معركة القادسية حيث كان رستم قائد الجيش الفارسي قد قرر
عدم عبور النهر وانتظار العرب لعبوره لئلا تتكرر معركة البويب . وكان
كل من الطرفين يتجنب جعل النهر وراءه لانه في حالة الهزيمة يسحق
سحقا كما حدث ايضا للمسلمين في معركة الجسر .. وهذا جعل انتظار
القوتين وبينهما النهر يمتد عدة اشهر ولكن العرب راحوا يشنون عمليات
مناوشة غوارية في مؤخرة الجيش الفارسي مما ازعج الوضع الداخلي الى
حد جعل الفرس يضطرون الى عبور النهر ودخول معركة مواجهة في وضع
غير ملائم .

طبق العرب اسلوب المناوشة كعمليات انهاك تحضيرية للهجوم العام

كما حدث في اليرموك في معركتيه الاولى والثانية .

واخيرا يمكن القول حول وجه الشبه بالنسبة للتشكيلة القتالية وبالنسبة لتشكيلة الزحف ان كلا من جيوش نابليون وجيوش العرب المسلمين لجأت الى تقسيم الجيش الى جسم رئيسي تسبقه قوات طليعة وله احتياط في الاجنحة والمؤخرة . ويبدو من رسالة عبد الحميد كاتب محمد بن مروان ، ومن الحوار الذي دار في صفوف ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب .. ان نقاط ضعف تشكيلة الخط بالمقارنة مع تشكيلة الكراديس كانت واضحة جدا بالنسبة للقادة «لان الكراديس اثبت في الحرب فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، اما الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره» (١) .

الحرب المتحركة

لعل ابرز ما تميزت به الحرب على يد نابليون انها اصبحت حربا متحركة ، وتخلصت من تلك المراسيم التقليدية في اتباع اصول جامدة في المعركة وقيادة الحرب ، ولم يعد احتلال المواقع او الدفاع عنها هو الشيء الرئيسي ، وانما العمل على سحق الجسم الرئيسي لقوات العدو المتحركة الضاربة ، فقد اصبح المبدأ القائد في استراتيجية نابليون هو القضاء على جيش العدو الذي في الميدان . واخضع احتلال المواقع لخدمة هذا الغرض وليس العكس . وان نظرة سريعة الى تاريخ حروب نابليون تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميزت بها قواته .. فهي دائمة الانتقال من مكان الى مكان سعيا وراء قوات العدو المتحركة ، ولم يثبتها قط في مواقع جامدة بل كان يحركها من نقاط تواجدها الى نقاط تواجد العدو ولم يكن يتردد عن التخلي عن مساحات واسعة من الارض من اجل تأمين التركيز . كانت تعليماته لقادته :

(١) محمد فرج ـ «المدرسة العسكرية الاسلامية» ص ٢٨٣ .

١ ـ ابقوا القوات مركزة ولا تفرقوها الى جيوب صغيرة .

٢ ـ سيروا بارتال على مسافات متساندة فيما بينكم .

٣ ـ لاحقوا العدو بالسيف وهو يفر .

وكانت مبادىء استراتيجية عملياته :

آ ـ تركيز القوات ضد الهدف المباشر .

ب ـ الاقتصاد بالقوات والاحتفاظ بقوات احتياط لمواجهة اي طارىء جديد .

ج ـ المرونة والمناورة والسرعة في الحركة واخذ الفرار .

د ـ تجري كل عمليات الحملة على اساس المحافظة على الهدف .

وان نظرة سريعة اخرى الى تاريخ حروب الفتوحات العربية الاسلامية تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميزت بها قوات المسلمين . ولا نبالغ اذا قلنا ان الحرب اصبحت على يد العرب حربا متحركة ، لا تتبع تلك الاصول التقليدية في المعركة وقيادة الحرب ، التي درجت عليها الجيوش الرومانية واليونانية والفارسية من قبلهم او جيوش الاقطاع الاوروبي وعصر النهضة حتى نابليون من بعدهم .

كان جيش عمرو بن العاص في حملة سوريا قد تغلغل حتى غزة وبئر السبع وراء خطوط البيزنطيين .. بينما تغلغلت قوات يزيد بن ابي سفيان في شرقي الاردن حيث راحت تجوب المنطقة كلها وكذلك فعلت شمالا قوات شرحبيل بن حسنة ، بينما كانت قوات خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة قد راحت تعمل في جبهة العراق متحدة احيانا، وعلى جبهتين احيانا،اذ بعد معركة قاصمة (او قضيمة) ضد الفرس زحف خالد الى شط العرب وقطع نهر الفرات ثم عاد الى الصحراء بعد ان بدأ الفرس يركزون لمواجهته .. واشتبك مع الفرس في معركة نهر الدم بعد ان انضمت له قوات بني تميم

بقيادة القعقاع بن عمر .. ومن هناك توجه الى الحيرة حيث فر حاكمها الفارسي من امامه الى المدائن ، فحاصر الحيرة واستسلمت .. ولكن خالد بن الوليد تحرك فورا ليقطع النهر ثانية ويحتل مدينة الانبار بينما تحركت قوات المثنى لاشغال الفرس ومنعهم من التحرك ضد زحف جيش خالد الذي شن هجوما كاسحا على مدينة الانبار التي كانت الاسوار تحيطها من ثلاث جهات بينما حفر خندق في الجهة الرابعة ومن هذه النقطة ركز خالد هجوم الاقتحام بعد ان نحر الجمال الضعاف والقاها في الخندق .. ومن هناك تحول الى عين التمر .

كنا قد ذكرنا كيف تحرك خالد من عين التمر لنجدة قوات اليرموك وكيف انتقلت قوات اليرموك جنوبا الى الكرك فوادي عربة ثم شمالا الى اجنادين لملاقاة جيش هرقل .. ومن هناك عادت القوات الى هدفها الرئيسي لضرب القوات البيزنطية في اليرموك . وبعد اكتساحها تحول التركيز على مدينة دمشق التي سقطت بيد المسلمين فتوزعت القوات بعد ذلك لتنظيف جيوب المقاومة على جبهة واسعة جدا . فانتقل جيش خالد بن الوليد الى حمص وحماه وانتقل جيش عمرو بن العاص الى فلسطين وتوزعت قوات ابي عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان على المنطقة الواسعة المتوسطة بين جيش خالد وبين جيش عمرو بن العاص . ولكن عندما عاد هرقل وحشد قوات ضخمة لاستعادة ما فقد ، زحف من شمالي سوريا بجيش يقال ان التاريخ لم يعرف له مثيلا من حيث العدد على ارض سوريا ، فما كان من قوات خالد وابي عبيدة ويزيد الا ان تخلت عن كل سوريا بلا قتال وتراجعت لتتركز جنوبي درعا من اجل المحافظة على خطوط مواصلاتها ومن اجل تأمين التركيز ، وبالتالي الدخول في معركة فاصلة على ارض اليرموك التي حددت كنقطة وقف زحف هرقل .. وهكذا عادت حمص وحماه ودمشق الى هرقل بلا قتال ، واخذ مواقعه الحصينة من جديد في سهل درعا لتقع معركة اليرموك الثانية التي لم تقم للبيزنطيين بعدها قائمة.

عندما سقطت دمشق بعد معركة اليرموك الاولى قرر الخليفة عمر بن الخطاب تعزيز جبهة العراق فجند جيشا اقام على راسه ابا عبيد عمرو بن مسعود الثقفي وجعل المثنى ينضم تحت قيادته ، ولكن ابا عبيد ارتكب خطأ عسكريا فادحا في معركة الجسر فنزلت هزيمة قاسية بجيوش المسلمين اذ تخلى عن خط انسحابه فقطع النهر الى جانب الفرس ، وبهذا

وضع القوات بلا خط انسحاب كما ضيق عليها ارض المناورة .. وعلى الرغم من ان المسلمين قاتلوا قتالا باسلا للغاية واستشهد ابو عبيد . الا ان الكفة مالت ضدهم واصبحوا بين مهلكين: بين سيوف الفرس من جهة والنهر من جهة ولولا مبادرة المثنى في اعادة تنظيم قوة شنت هجوما مضادا ليكون كفطاء ينسحب تحته المسلمون عبر الجسر ، لكانت الكارثة كاملة .

ولكن سرعان ما بدات تعبئة جديدة ونشط المثنى في جمع قوات من القبائل وكان عمر بن الخطاب قد سمح باعادة تجنيد الذين قاتلوا ضد المسلمين في حروب الردة .. فالتقى المثنى من جديد مع الفرس في معركة البويب وانزل بهم هزيمة ثارت لمعركة الجسر ، واصبحت بيد العرب بعدها مناطق شاسعة من سواد العراق . ولكن الفرس عادوا فجندوا جيشا جرارا فما كان من المثنى الا ان انسحب من سواد العراق وحتى من الحيرة دون قتال وعاد الى الصحراء ، خاصة ، وان الجيش الفارسي الجديد يتطلب ان يواجه بقوات مركزة فطلب من عمر بن الخطاب ارسال تعزيزات ، ولكن جبهة سوريا كانت في تلك الاثناء قد عادت للاشتعال بعد ان جند هرقل جيشه الكبير .. ولهذا ظلت جبهة العراق بيد الفرس الى ان تم الانتصار في معركة اليرموك الثانية وبدأ التحضير لحملة العراق من جديد ، فتشكل جيش يعد ثلاثين الفا بقيادة سعد بن ابي وقاص ، كما ارسل الى قوات سوريا ان ترسل جيشا لتعزيز حملة العراق. وفعلا تحرك القعقاع على رأس جيش .. وكانت معركة القادسية الحاسمة .

اذا تابعنا حملة عمرو بن العاص الى مصر حيث تحرك على راس قوة تقل عن اربعة آلاف مقاتل وقد زحفت من غزة فالعريش الى قناة السويس، وقد ارتطم بمدينة بابليون التي كانت تشكل مفتاح مصر ، ولكن كان ما لديه من القوات اضعف من تركيز قوات تيودور القائد البيزنطي والبطريق المقوقس Cyrus حاكم مصر . فطلب تعزيزات من المدينة المنورة ، ولكنه لم يتوقف فاتجه نحو الفيوم على الجانب الاخر من النيل ، وقد سجل غلوب ذلك عليه خطأ استراتيجيا لان وصول النجدة الى بابليون يترك جيشه منفصلا عنها وقد قام بينهما النيل ، ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار كثرة تحرك قوات عمرو بن العاص وسرعتها وبالتالي عدم مقدرة العدو على تحديد اتجاه الحملة ، يمكن ان يلغى نقد غلوب له ، خاصة ، وان تلك التحركات هي التي انقذت جيش عمرو بن العاص قبل وصول التعزيز من

الحجاز . فلو انه انتظر عند بابليون لحين قدوم التعزيز لاتاح ذلك فرصة لقوات تيودور لتنقض عليه . في حين استطاع من خلال استمرار حملته الى الفيوم ان يحتفظ بالمبادرة ويكشف المنطقة ويقضي على قوات متفرقة هنا وهناك ، والاهم انه استطاع ان يعود الى بابليون في الوقت المناسب عند وصول الزبير بن العوام على راس اثني عشر الف جندي ، وتركزت القوات في هليوبولس قبالة بابليون .

ان هذه الامثلة تؤكد الصفة المتحركة التي اعطاها العرب للحرب، بشكل لا يقل عن حركة الحرب في عهد بابليون .

يلاحظ ان المبادىء الاساسية التي حكمت عمليات حروب العرب المسلمين كانت :

ا ــ القضاء على جيش العدو في الميدان وليس الركض وراء احتلال المواقع ، فقد ادرك قادة العرب ان احتلال دمشق او القدس لا قيمة له ما دام هنالك جيش للبيزنطيين مقاتل في الميدان لذلك كان تركيزهم على ضرب هذا الجيش اولا لان اخلاء الميدان منه يعني سقوط المواقع كلها بما في ذلك المدن الكبرى مثل دمشق والقدس .

عندما قارن الجنرال غلوب بين المناورة الاستراتيجية التي قام بها خالد بن الوليد عندما قطع صحراء حمد من بئر قراقر باتجاه سبع البيار ثم الى تدمر فمرج راهط وراء تحصينات البيزنطيين في سهل درعا، مع المناورة التي قام بها لواء من الجيش البريطاني مع الجيش الاردني في ايار (مايو) ١٩٤١ ، متبعا خط عمليات خالد بن الوليد .. حاول اظهار عملية خالد بانها فاشلة بينما العملية الاخرى كانت ناجحة ، ولكن غلوب نسي ان اتباع مناورة خالد نفسها من قبل الجيش البريطاني بعد اكثر من ثلاثة عشر قرنا دليل على ان المناورة الاستراتيجية التي قام بها خالد وصلت حد الكمال . اما لماذا سماها فاشلة .. فذلك لان خالدا لم يهاجم دمشق وانما تابع سيره الى منطقة القتال وقد استدل كلوب من ذلك ان معركته في مرج راهط لم تكن ناجحة ان هذا الحكم يدل على ان خالد بن الوليد كان افهم في فن الحرب من غلوب بعد ثلاثة عشر قرنا وذلك للاسباب التالية :

ا ــ ان المحافظة على الهدف تقضي من خالد ان يتوجه من مرج راهط

الى نقطة التركيز في اليرموك لان مناورته اساسا كانت تستهدف الالتفاف على البيزنطيين في درعا وليس مهاجمة دمشق .

ب ــ ان مفتاح سوريا هو سحق القوات البيزنطية المركزة في درعا وليس احتلال مواقع .

جـ ــ ان القوات التي كانت مع خالد لا تستطيع ان تكتسح دمشق فعددها لم يتجاوز التسعة آلاف على اقصى تقدير ، وكانت محاصرته لتلك المدينة بمثل هذه القوات الصغيرة كما يقترح غلوب ، تعني تطويقه وابادته، خاصة ، وان دمشق استعصى احتلالها على المسلمين اكثر من شهرين بعد نجاح معركة اليرموك . ثم كيف يستطيع ان يؤكد غلوب ان البيزنطيين كانوا سيتخلون عن مواقعهم في درعا اذا هاجم خالد دمشق ، وهم ولا شك يعرفون كم تستطيع ان تصمد دمشق في وجه مثل تلك القوة .

ثم اذا تذكرنا ان قوات المسلمين بعد معركة اجنادين لم تتوقف لتحتل القدس او اية مدينة اخرى وانما توجهت فورا لمحاصرة قوات البيزنطيين في درعا ، واذا تذكرنا تخلي خالد وابي عبيدة عن كل سوريا امام جيش هرقل دون دفاع عن المدن من اجل التركيز مرة اخرى جنوبي درعا على اليرموك ، ثم اذا تذكرنا انسحاب المثنى من سواد العراق والحيرة ، ندرك ان العرب فهموا الحرب كما فهمها نابليون بعد اكثر من احد عشر قرنا وكما نظر لها كلاوسيفتز بعد حوالي اثني عشر قرنا ، سواء من ناحية اهمية سحق الجسم الرئيسي من قوات العدو بوصفه العامل الحاسم لتحقيق نصر أستراتيجي بما في ذلك سقوط المواقع والاستيلاء عليها ، وسواء من ناحية اهمية الاقتصاد بالقوى والتركيز والملاحقة والسير بارتال على مسافات متساندة الى جانب المرونة والمناورة وسرعة التحرك ، واعطاء الحرب صفة ديناميكية متحركة .

مقارنة تطبيقية :

حقا من الصعب ان تجد معركتين تنطبقان على بعضهما البعض في كل التفاصيل والظروف ، ولهذا فان اية مقارنة يجب ان تتناول الجوهر لا

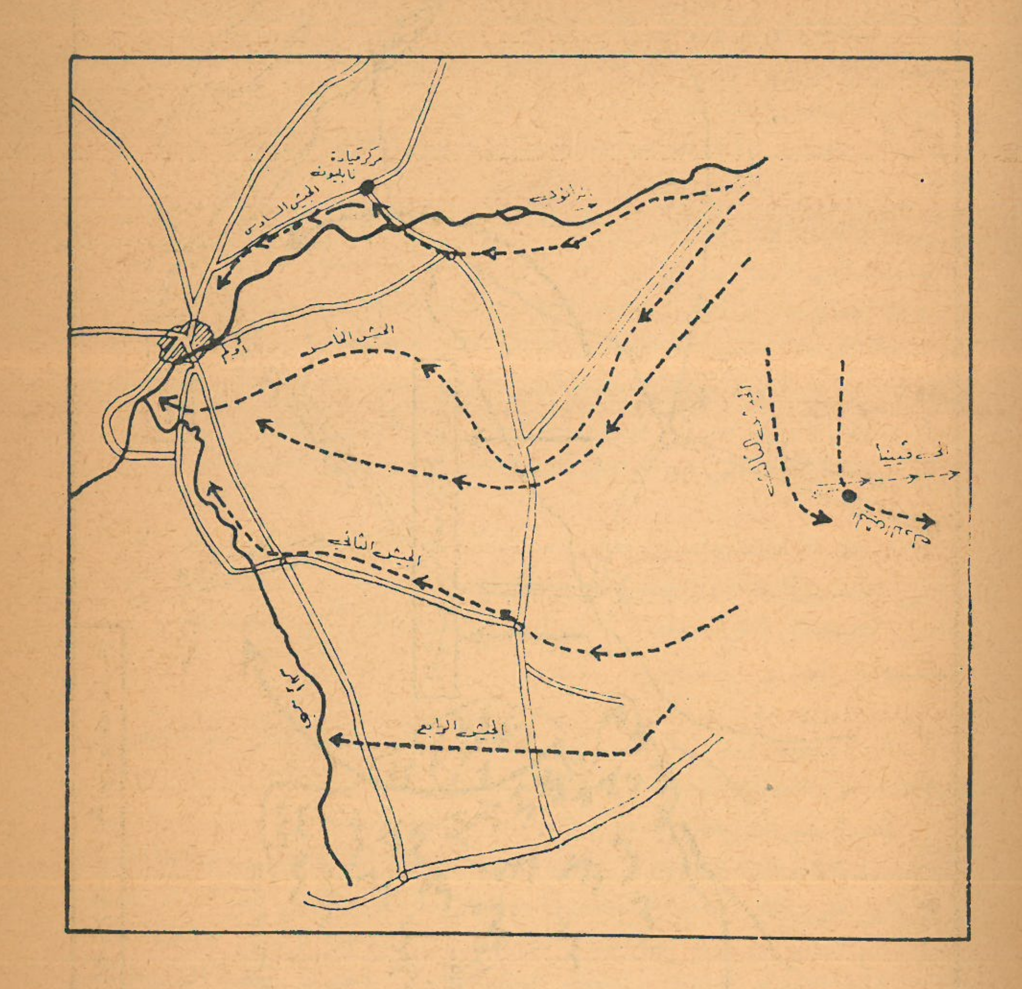
التفصيلات الخاصة ، ومن هنا فان محاولتنا للمقارنة بين بعض معارك نابليون وبين بعض معارك الفتوحات العربية تتناول الجوهر اساسا لكي نرى مدى الشبه بين عقلية العمليات والتكتيك في الحالتين . ولنأخذ معركة اولم Ulm - التي تعتبر احدى روائع نابليون الاستراتيجية ، وفي المقابل سنأخذ معركة اليرموك الثانية التي تعتبر احدى روائع القيادة العربية في الفتوحات الاولى .

كان القائد النمساوي ماك Mach متمركزا على راس خمسين الف جندي في منطقة اولم . فوضع نابليون جيوشه بينه وبين فيينا ، كما خصص الجيش الاول بقيادة برنادوت للتوجه الى ميونيخ كاحتياط ضد نجدة الجيش الروسي لماك ثم راح يلتف عليه ليحاصره من الجهات الاربع ، فحرك الجيش الثاني بقيادة مارمونت Marmont للتحرك نحو نهر اللر Ler جنوبي اولم ، بينما يتحرك الجيش الرابع بقيادة سولت Soult ليطوق اولم من الجنوب ايضا ويقطع طرق مواصلاتها مع الجنوب . اما الجيش الخامس بقيادة لانس Lannes والجيش السادس بقيادة ني Ney فيتقدمان غربا على اولم متتبعين ضفتي الدانوب . وبهذا يكون التطويق كاملا وكان قد ارسل الجيش الثالث بقيادة دافوت Davout لتعزيز جيش برنادوت - الجيش الاول - باتجاه ميونيخ ليمنع تقدم الجيش الروسي .

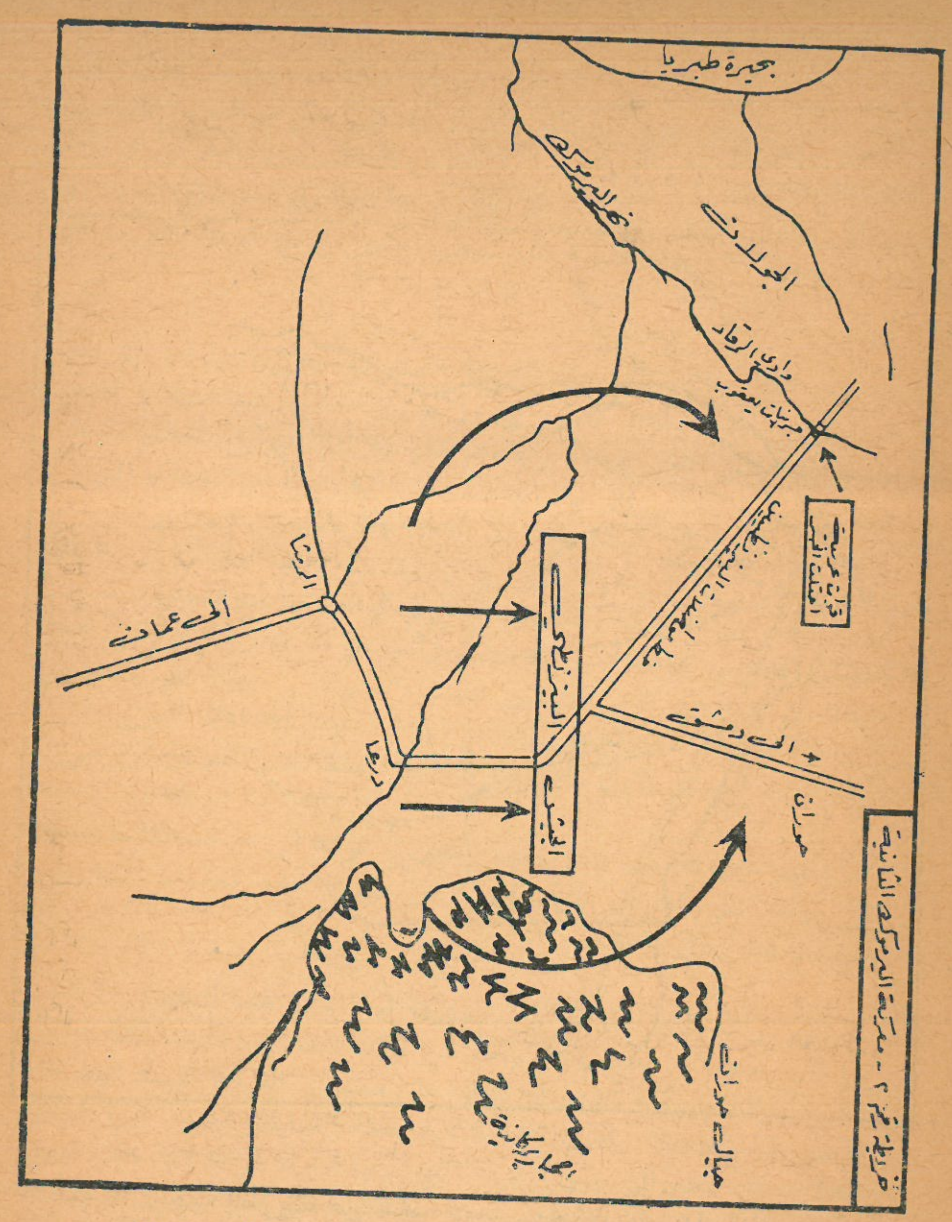
عندما انهى نابليون هذه الخطة وتحركت قواته الى مواقعها كتب رسالة الى سولت قال فيها «لن تكون المسألة هي هزيمة العدو فحسب وانما يجب الا يفلت منه رجل واحد» .

في الواقع كان سقوط اولم محتوما امام مثل هذا التطويق الرائع ، كما كان محتوما الا يفلت رجل واحد من قوات العدو ، ولكن مشكلة نابليون تركزت بقادة جيوشه الذين لم يكونوا على مستوى القيادة الاستراتيجية . ان ميورات Murat الذي كلف بتنفيذ خطة العمليات اصدر امرا لنيي Ney ان يقطع الى جنوب ضفة النهر وبهذا ترك فراغا لانسحاب العدو من ناحية شمال شرقي الحصن ... مما مكن بعض القوات من الفرار رغم ان الاغلبية سقطت بين قتلى وجرحى واسرى (راجع الخريطة رقم ١) .

كنا قد ذكرنا كيف جند هرقل جيشا كبيرا فاق باعداده كل ما عرفته سوريا من جيوش بعد هزيمته في معركة اليرموك الاولى ، كما ذكرنا كيف



(١) نقلت هذه الخريطة عن كتاب جيمس مارشال كورنول «نابليون كقائد عسكري» - باللغة الانكليزية ص ١٣٥ .
(٢) الخطوط المتقطعة مع الاسهم تدل على توزيع وحركة جيوش نابليون .
(٣) يلاحظ ان عمليات نابليون اوسع واشد تعقيدا .



(١) نقلت هذه الخريطة عن كتاب غلوب «الفتوحات العربية الكبرى» — باللغة الانكليزية ص ١٧٧ .

(٢) الاسهم تدل على توزيع وحركة الجيوش العربية الاسلامية .

انسحبت قوات المسلمين من حمص وحماه وبعلبك ودمشق وتركزت جنوبي درعا تاركة الصحراء وراءها كخط انسحاب استراتيجي وكطريق مواصلات مع المركز في المدينة المنورة ومكة .

اصبحت قوات هرقل الان بقيادة ثيوديروس تسيطر على كل سوريا وقد تركزت في سهل درعا حيث تحصيناتها الدفاعية القديمة . بينما كان العرب المسلمون قبالتها جنوبا يركزون قواتهم وقد انضمت اليهم قوات عمرو بن العاص واخذت تتوافد التعزيزات من الجزيرة العربية .

دام هذا الوضع اكثر من اربعة اشهر كان العرب خلالها يستكملون استعداداتهم دون ان يتوقفوا عن شن عمليات مناوشة صغيرة هنا وهناك لانهاك العدو .. واخيرا اعدت الخطة وكانت تتألف من عمليات التفاف واسعة تتم من ميسرة قوات البيزنطيين ومن ميمنتهم .. على شكل نصف دائرة من كل اتجاه وبهذا يصبح البيزنطيون ضمن حلقة محكمة الحصار. هذا بالاضافة الى تحريك قوة وراء جبهة البيزنطيين لتقطع طريق انسحابهم ومواصلاتهم الرئيسي عبر وادي الرقاد عند جسر بنات يعقوب .

لا توجد للأسف تفاصيل حول اسماء القادة الذين كانوا على رأس الفرقة التي قامت بالالتفاف الجانبي من جهة الشرق شمالا او اسماء قادة الفرقة التي التفت من الغرب شمالا ، او اسم قائد القوات التي اغلقت جسر بنات يعقوب .

اما الهجوم فقد تركز من قبل فرقتين كل منهما ركزت على نقطة محددة في الجبهة الامامية للدفاع ..

لقد اختيرت لحظة الهجوم الحاسم وتنفيذ الخطة في وقت هبت فيه عواصف رملية شديدة . وعلى الرغم من ان اعداء العرب حاولوا التركيز على تلك العاصفة ليفسروا بها هزيمة البيزنطيين .. الا ان من الواضح تماما ان دور العواصف الرملية كان مساعدا وليس حاسما امام مثل ذلك الاعداد الطويل والخطة المحكمة بل ان اختيار لحظة الهجوم مع هبوب تلك العواصف يعتبر براعة تكتيكية لا جدال فيها .

تبين بعد انتهاء المعركة ان الذي لعب دورا حاسما في القضاء على الجيش البيزنطي كله دون ان ينجو رجل واحد ، ليس هجوم الصدام

الامامي المدعوم بالعواصف الرملية ، وانما عملية الطوق الواسعة وقطع طريق الانسحاب .

ليس صعبا ان يلحظ المرء نقاط التشابه بين استراتيجية عمليات نابليون في معركة اولم وبين استراتيجية عمليات العرب (1) في معركة اليرموك الثانية .. خاصة من ناحية ضرب طوق من كل الجهات يبلغ عشرات الاميال المربعة .. الى جانب التركيز على قطع اي منفذ للانسحاب، والاصرار على اخذ قرار استراتيجي ينهي امر العدو نهائيا — لم ينج من قوات هرقل رجل واحد .

كان الجوهر في عمليات نابليون — التكتيك الكبير — وفي تكتيكه للمعركة يتلخص بضرب العدو من الامام لتثبيت جبهته الامامية مع عملية التفاف على احد الجناحين او كليهما من اجل ضعضعته نهائيا ، لذلك فقد تعلم ان يتجنب معارك المواجهة الامامية الصرف ويركز على الالتفاف على احدى النقاط الضعيفة . ومن هنا جهد في دراسة وضع العدو ونقاط قوته وضعفه وموقعه الطوبغرافي وراح ينظم عملياته الاستراتيجية وتكتيكه في المعركة من اجل محاصرة العدو وضربه من اضعف نقطة مع تثبيت النقاط القوية الاخرى . فلو اخذنا معركة اوستريليتز Austerlitz فسوف نجد ان قوات نابليون كانت ٦٥ الفا مقابل ٥٢ الفا من الجيش الروسي و٣٠ الفا من الجيش النمساوي . وكان العدو متفوقا ايضا في موقعه المحصن . ولهذا اعتمدت خطة نابليون على اغرائه ببدء الهجوم ضد مواقع دفاعية محصنة جيدا ثم عندما ارتكب العدو خطأ التخلي عن المرتفع في الوسط استغل نابليون ذلك فورا فانقض بسرعة البرق لاحتلاله قاسما العدو شطرين . وكان قد احتفظ رغم قلة عدد قواته ، بفرقة احتياط للتعزيز وشن الهجوم المضاد والملاحقة .. وانتصر في المعركة بعد ان حدد بدقة لحظة الانتقال الى الهجوم المضاد .

---

(1) كانت القيادة العامة بيد ابي عبيدة بن الجراح ، ولكن اغلب التقديرات ان خالد بن الوليد ، كان مصمم الخطة العسكرية ، او على الاصح واضع خطوطها العريضة ، دون ان ننسى تواجد عمرو بن العاص ويزيد بن ابي سفيان وغيرهم من القادة — ولا شك انهم شاركوا ابا عبيدة وخالدا في التخطيط والتنفيذ .

لو اخذنا بالمقابل معركة بابليون فسنجد ان تفوق البيزنطيين على قوات عمرو بن العاص والزبير بن العوام — ١٥ الفا — كانت ضعفا على الاقل . وكانت ممركزة في بابليون في موقع حصين جدا بينما كانت قوات عمرو والزبير في هيليوبوليس ، واخيرا استطاع عمرو اغراء قوات تيودور على الخروج من بابليون لشن الهجوم على القوات في هيليوبوليس ، وفعلا خرج تيودور باتجاه شمال شرقي بابليون بينما كان عمرو بن العاص قد بعث تحت جنح الليل بلواء استخفى في مكان قرب قلعة القاهرة الان وبعث بلواء اخر، في الوقت نفسه ليستخفي بمكان قرب الازبكية الان ... وعندما تقدمت قوات تيودور خرج عمرو والزبير لملاقاتها واشتبك الطرفان مواجهة دون ان يتحرك كمين الميمنة او كمين الميسرة .. ولكن عندما حمي وطيس المعركة تحرك اللواء الكامن شرقا والتف على مؤخرة قوات البيزنطيين التي تضعضعت وفوجئت بهذه الحركة غير المتوقعة ولكنها عادت فتماسكت اذ شقت راس سهم باتجاه الغرب لتفتح جبهة امامية ضد القوتين .. ولكن ما كاد يستقر حالها الجديد حتى فوجئت باندفاع اللواء الكامن غربا بهجوم زخم على ميسرتها .. وهنا عمت الفوضى في صفوف البيزنطيين ولم يستطع النجاة منهم غير عدد قليل هرب الى بابليون ولكن القسم الاكبر سقط في المعركة .

كان تكتيك العرب المسلمين ، يعتمد احيانا ، على اخذ موقف دفاعي بادىء ذي بدء مصحوبا بأعمال مناوشة وانهاك الى ان يروا نقطة ضعف فيحملون عليها بهجوم زخم .. بل ان معركة القادسية تعطي صورا على تكتيك متطور جدا .. اذ كانت نقطة التركيز في اليوم الاول على مهاجمة سلاح الفيلة من خلال تعاون رماة النبل والمشاة — كانت الخيول تخاف الاقتراب من الفيلة — اما في اليوم الثاني بعد ان اختفى سلاح الفيلة من الميدان كان سعد بن ابي وقاص قد اخفى سلاح الجمال كاحتياط ولم يشركه في اليوم الاول وانما استخدمه في اليوم الثاني .. اما في اليوم الثالث فكانت قوات القعقاع قد بدات تصل من بر الشام بعد ان انتهت من معركة اليرموك الثانية فتحققت مفاجأة اخرى عوضت عن بروز الفيلة للمرة الثانية .. وانتهى ذلك اليوم بالقتال الضاري للقضاء على الفيلة .. قوتل سلاح الفيلة في اليوم الاول عن طريق قطع مشدات الهوادج اما في اليوم الثالث فقد هوجمت الفيلة بالذات من خلال طعنها بعيونها — ولكن في ليل ذلك اليوم قرر المسلمون تحقيق مفاجأة حاسمة وهي شن الهجوم في الليل. وهنا

تحطم الجيش الفارسي نهائيا لتنتقل المعارك بعد ذلك الى قلب بلاد فارس.
واذا اخذنا معركة نهاوند فقد استخدم العرب تكتيكا غاية في الجدة والدقة .. فقد كان الفرس محصنين في موقع غرسوا حوله ما يشبه الاوتاد ورؤوس الرماح الامر الذي جعل التقدم اليه محالا على الخيل او على المشاة .. فكانت الخطة استدراج العدو الى خارج الحصن فقسم الجيش الى جسم رئيسي اخفي تماما عن العدو بينما ظهر قسم منه على اساس انه الجيش كله .. فشن هجوما وهميا وبدأ يترنح امام الدفاع وصعوبة الارض .. فتخيل المدافعون انه فقد تماسكه ودبت به الفوضى فشدوا عليه لملاحقته وانهائه بينما راح يفر من امامهم الى ان اوصلهم الى موقع الجسم الرئيسي للجيش الذي قطع عليهم طريق العودة الى حصنهم وانهى امرهم .

ظاهرتان :

١ ـ ثمة ظاهرة تولدت وتطورت مع حروب الفتوحات العربية الاولى يمكن اعتبارها قطعا كدليل على التشابه في الجوهر بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الاولى ، وهي تكوين مجموعات الاستطلاع والاستكشاف والتركيز على دراسة تحركات العدو ومواقعه والارض التي يقف عليها ، اذ ان هذه الظاهرة ذات دور حاسم بالنسبة لجيش مقسم لفرق ويعتمد على المناورات الاستراتيجية وحرب الحركة ، بينما دورها ضئيل جدا يكاد لا يذكر في الحروب التقليدية التي كان يزحف فيها الجيش كله ككتلة واحدة ويلتقي مع عدوه في نقطة يتم اختيارها بالاتفاق في كثير من الاحيان ، بل سميت تلك الحروب «المعركة بالاتفاق» . اما الحرب المتحركة التي تعتمد على قوة المناورة الاستراتيجية وتستخدم اسلوب المناوشات الى جانب قتالها النظامي ، فلا مفر لها من تلك الظاهرة . كان نابليون قد تعرض في معركة مارينغو Maringo الى هزيمة محققة لولا انه انقذ الموقف بمبادرة رائعة في اخر لحظة وحوّل الهزيمة الى نصر ، ولكنه اخذ درسا قاسيا منها وهو ضرورة تنظيم جهاز مخابرات فعال كفؤ ، بل انه خصص بعدها لكل سلاح فرسانه الخفيفة، بصورة كثيفة للاستطلاع، تاركا فرسانه الثقيلة لتكتيك الصدام . ولعل الفقرات التالية من رسالة عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص توضح الاهمية التي اعطيت لهذه

الظاهرة في حروب الفتوحات ، يقول عمر : «واذا وطئت ارض العدو فأذن العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك امرهم ، وليكن عندك من العرب او من اهل الارض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، والفاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك في ارض العدو ان تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، وتنق للطلائع اهل الراي والبأس من اصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل » .

بل ان عمرو بن العاص دخل احد الحصون في فلسطين مستخفيا على اساس انه رسول عمرو بن العاص الى القائد البيزنطي ارطبون ، بقصد استكشافه واستطلاعه بنفسه وكان قد اشتهر عن نابليون انه كان يمسح ارض المعركة بنفسه قبل خوضها . وكثيرا ما وبخ قادته اشد توبيخ حين كانوا يهملون بالاستطلاع او لا يوافونه بالمعلومات الدقيقة التي تتضمن اتفه التفاصيل .

٢ ـ ثمة ظاهرة اخرى مشتركة لا يمكن ان تتولد الا في ظل حرب متحركة ذات مناورات استراتيجية وتكتيكية على اعلى مستوى ، ولا يمكن ان توجد الا في الجيوش التي تقسم على اساس فرق مستقلة تتألف كل واحدة منها من مختلف صنوف الاسلحة ولها قيادتها، وبمقدورها اخذ خط عمليات مستقل ، او شبه مستقل ، وخوض معارك مستقلة بنفسها . وتلك الظاهرة هي زيادة الدور الاستراتيجي والتكتيكي الذي يلعبه القادة والكوادر الادنى من القائد العام .

كتب الجنرال د. باليت D.K. Palit في كتابه «اسس المعرفة العسكرية» The Essentials of Military Knowledge ، تحت فصل « قيادة العمليات» يقول ان في حروب الامم القديمة ، مثلا ، عندما كانت الفلانكسات والليجونات تلتحم في المعركة لم تترك الاجراءات المطلوب اتخاذها الى مبادرة القيادات الادنى ، لقد كانت اجراءات مقررة سلفا يجب اتباعها حرفيا بمجرد بدء عملية الاشتباك ـ حيث يأخذ كل فرد موقعه في الخط القتالي battle line . ويتقدم الجميع كتلة واحدة كل باتجاه عدوه المباشر ولكن هذا الوضع تغير مع القذائف بعيدة المدى والاسلحة الحديثة والتنظيمات الجديدة للجيوش واختلاف انواع الارض التي يجري عليها القتال وتنوع الحركات .. لقد ادى كل ذلك الى ولادة مفاهيم اكثر تعقيدا

حول الاستراتيجية والتكتيك ، مثلا ضرورة استخدام الاحتياط ، والزحف السري ، والمناورات التي تهيء للمعركة ولهذا اخذت مسؤوليات قادة الميدان تزداد اكثر فاكثر» .. ثم ينتهي الى القول «ان القفزة الكبرى التي احدثتها الحروب النابليونية الىامام ـ مفهوم التنظيم الى فرق، والاساليب الحديثة في المواصلات وكذلك حركات ومناورات كتل منفصلة عن بعضها تتقدم من اجل المعركة ـ باختصار «التكتيك الكبير» ـ هي التي ولدت ، وفتحت الطريق ، للقيادة اللامركزية في الميدان . وبهذا اصبحت حتى مراحل التخطيط والتحرك ـ استراتيجيا وتكتيكيا ـ ضمن نطاق القيادات الادنى، واصبح مصير المعارك يعتمد على مبادراتهم وقراراتهم في العمليات المتعددة المستويات . وعندئذ نشأت الحاجة الى وضع مجموعة من قواعد العمليات او المبادىء لهدي قادة الميدان » (ص ١٢٦ ـ ١٢٧) .

حين يراجع المرء حروب الفتوحات الاسلامية يندهش فعلا من عظم الدور الذي كانت تلعبه القيادات الادنى ، والكوادر التي على رأس المجموعات الصغيرة ، ومن قيادة العمليات على اساس الاعتماد على المبادرات الاستراتيجية والتكتيكية للقيادات الادنى ، ومن الجمع الخلاق بين المركزية واللامركزية. ويكفي ان نراجع ذلك العدد الكبير من اسماء القادة العسكريين الذين قدموا روائع استراتيجية وتكتيكية في فترة تاريخية في حدود عشر سنوات (٦٣٣ ـ ٦٤٤ م) ـ خالد بن الوليد ، المثنى بن حارثة ، ابو عبيدة بن الجراح ، عمرو بن العاص ، سعد بن ابي وقاص ، يزيد بن ابي سفيان، شرحبيل بن حسنة ، والنعمان بن مقارن ، والقعقاع وغيرهم عشرات ـ ولا نبالغ اذا قلنا ان هذا الجانب تطور لدى العرب بشكل يفوق عما تطور به في زمن نابليون ، فالذي يراجع مذكرات نابليون وملحوظاته حول قادته وكذلك عمليات اولئك القادة بالذات ، يتأكد ان نابليون لم تتوفر له قيادات ادنى على مستوى استراتيجي . فمثلا لو اخذنا نيي Ney فسنجده قد ارتكب خطأ فادحا فيحملة بولونيا وبخه نابليون اشد توبيخ على ذلك، بلان كثيرين من مؤرخي حروب نابليون يؤكدون ان احد العوامل الحاسمة في هزيمته في معركة ووترلو يرجع لتركه القيادة التكتيكية في المعركة للمارشال نيي Ney واذا كان مارشاله الكسندز بيرثير A. Berthier ضابطا ممتازا فيالاركان، وتنفيذ خطةمعدة له، الا انه، علىحد تعبير نابليون، لا يصلح كقائد مستقل يقدر الموقف ويبادر ، ويمكن ان يقال الشيء نفسه

على سائر قادته الاخرين رغم انهم يعتبرون ممتازين اذا ما قورنوا بزملائهم في الجيوش الاخرى في عهده . بينما ابرزت حروب الفتوحات ان العرب امتلكوا مجموعة من القادة ، في فترة زمنية واحدة ، قادرين على القيادة الاستراتيجية المستقلة فضلا عن القيادة التكتيكية المستقلة .

ان توفر هذه الظاهرة في حروب الفتوحات تؤكد ، بصورة غير مباشرة ولكن شديدة الدلالة ، على ان سمات الفن العسكري في حروب العرب لا تدخل في عائلة الحروب القديمة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وانما هي من عائلة الفن العسكري الذي ارسى نابليون اصوله في العصر الحديث.

خلاصة :

اذا كان العرب في مرحلة الفتوحات الاولى ، على هذا المستوى الراقي من الفن العسكري افلا يحق لنا ان نستنتج ان تفوقهم على اعدائهم في الفن العسكري كان احد العوامل الحاسمة في تحقيق الانتصارات الباهرة عليهم ، لقد واجه العرب في كل معاركهم الاولى اعداء متفوقين من حيث العدد والعدة والسلاح ، ولهذا عمد اغلب المؤرخين على تفسير تلك الانتصارات من خلال ابراز جوانب الشجاعة والتفوق المعنوي لدى القوات العربية الاسلامية . ولكن من السهل الاثبات ان هذه الجوانب وحدها لا يمكن ان تغطي جوانب تفوق اولئك الاعداء ، خاصة ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان اولئك الاعداء لم يكونوا ارانب جبناء ، بل ابدوا في كثير من الاحيان ضروبا من الشجاعة والثبات والمعنويات العالية والاصرار على القتال . فمثلا لقد قاتل الفرس قتالا مريرا في معركة الجسر وفي البويب وفي القادسية ، ولو اخذنا معركة القادسية التي دامت ثلاثة ايام وليلة طاحنة ، قتل في ايامها الثلاثة الاولى من المسلمين الفين وخمسمائة شهيد ، اما في الليلة الاخيرة التي دار فيها قتال مرير جدا فقد استشهد فيها من المسلمين ستة آلاف ، هذا عدا الجرحى ، كما سقط فيها من الفرس اضعاف ذلك العدد . فهل تدل هذه الوقائع على ان الاعداء كانوا جبناء او ان النقص المعنوي كان هو الشيء الحاسم في هزيمتهم ؟ وكذلك كان الحال بالنسبة للبيزنطيين في معارك اجنادين واليرموك وبابليون . ثم

كيف يمكن ابراز شجاعة العرب وقوة معنوياتهم اذا كان اعداؤهم جبناء . ان الشجاعة لا تظهر الا امام الشجاعة ، ومن يقاتل جبانا لا يحق له ان يتغنى بشجاعته .

لعل مراجعة ما قاله العرب الاوائل عن الفرس والروم تظهر انهم لم يستهينوا بشجاعة خصومهم او يطعنوا بها ، فقد وصف عبد الرحمن بن عوف الروم بانهم «حد حديد وركن شديد» وكان المثنى بن حارثة في رسالته الى سعد بن ابي وقاص شديد الحذر من الفرس . اما خالد بن الوليد فقد وصف اولئك الاعداء بقوله : «انما ارى اقواما لا علم لهم بالحرب » .

ان عبارة خالد بن الوليد تلك تؤكد موضوعتنا بما لا يدع مجالا للشك. فخالد قائد عسكري من الطراز الاول عبر التاريخ كله ، وقد دلل بتلك العبارة على تفوق العرب في مضمار الفن العسكري وتخلف خصومهم عنهم في هذا المضمار بشكل فتح هوة واسعة بين الطرفين اوسع من الهوة التي كانت في هذا المضمار بين نابليون وخصومه . اذ بينما ظل خصوم العرب يقاتلون بكتل جامدة ووفق أصول محددة — رغم انهم كانوا حسني التدريب — راح العرب يقاتلون بفرق متحركة ومناورات استراتيجية وتكتيكية ، يجمعون جمعا خلاقا بين المرونة في تقسيم القوات والتحرك والقيادة وبين التركيز المطلوب في المعركة ، ويجمعون جمعا خلاقا بين القتال في الكراديس والصفوف وبين المناوشة والالتفاف على الاجنحة والتركيز على نقاط الضعف .

ومن هنا ، يمكن القول ان التفوق في الفن العسكري قد لعب دورا حاسما في تحقيق انتصارات العرب المسلمين على اعدائهم في الفتوحات الاولى ، كما ان التفوق في الفن العسكري قد لعب دورا حاسما في تحقيق انتصارات نابليون الاولى على اعدائه حتى عام ١٨١٠ .

ولكن هل يعني هذا ان العرب المسلمين لم يكونوا متفوقين من الناحية المعنوية ؟ طبعا ان الدور الذي لعبته الناحية المعنوية في حروب الفتوحات لا يمكن ان ينكر او يقلل من قيمته ، ولكن الرأي هنا يستهدف عدم رؤية

المسألة من جانب واحد فقط ، كما يستهدف ابراز العامل الحاسم الاخر وهو جانب التفوق في الفن العسكري جنبا الى جنب مع العامل المعنوي ، دون ان ننسى اهمية عوامل اخرى في الوضع المدني والسياسي والاجتماعي في كل من الجبهات المتقابلة .

واخيرا حول هذه النقطة لا بد لنا من ان نكرر ما سبق وابرزناه في مطلع هذه الدراسة فيما يتعلق بأهمية الدور الذي لعبه العامل المعنوي — نتاج الثورة الاجتماعية والايديولوجية التي احدثها الاسلام — على الفن العسكري نفسه من الناحيتين الاستراتيجية والتكتيكية . ولا بد من ان نكرر ان ذلك الفن العسكري ما كان له ان يتجلى بأروع صوره لولا توفر الناحية المعنوية تلك ، او على الاصح لولا ثورة الاسلام . ولكن هذا كله يجب الا يطمس بأي شكل من الاشكال ذلك الدور الحاسم الذي لعبه تفوق العرب في مضمار الفن العسكري .

في الواقع يمكن ان يقال الشيء نفسه بالنسبة للعلاقة بين الثورة الفرنسية والفن العسكري النابليوني رغم ان نابليون عاد فخان الثورة الفرنسية وكان ذلك ايذانا بسقوطه .

ان الاسباب التي ادت الى تلك القفزة النوعية التي احدثها نابليون في الفن العسكري تتلخص باندلاع الثورة الفرنسية التي اطلقت القوى الاجتماعية الجديدة من عقالها وحطمت الاقطاعية والملكية فانطلقت البرجوازية الناشئة والجماهير الواسعة لتدافع اولا عن الثورة ضد الغزو الرجعي ثم لتدفع الثورة الى خارج الحدود الفرنسية ثانيا ، مما كرس ، لاول مرة ، في اوروبا التجنيد الجماهيري الواسع واصبح لدى فرنسا جيش جماهيري كبير وخلفه احتياط لا ينضب في مقابل جيوش اوروبا الصغيرة المحترفة عالية التدريب والنظام . لقد ادى تشكيل الجيش الجماهيري الواسع وانطلاق القوى الاجتماعية النامية في المجتمع للافادة من التطور التقني والعلمي مصحوبا بحماسة ثورية عالية ، الى جانب تطور الطرق والمواصلات والاسلحة ، الى خلق الارضية لدخول الاستراتيجية والتكتيك العسكريين في مرحلة جديدة راقية هي ارقى ما وصله الفن العسكري حتى ذلك الحين وذلك باعطاء الحرب صفة متحركة ذات مناورات

استراتيجية ومتابعة الحرب حتى نهايتها الحاسمة .

ولكن اذا كان الفن العسكري العربي قد احدث مثل تلك الثورة في مجال الحرب واعطى الحرب تلك السمات نفسها تقريبا ، فكيف يمكن ان يفسر ذلك ؟

ان مختلف انواع فن الحرب ليست من صنع العسكريين العباقرة بصورة تجريدية ، وانما هي نتاج ظروف مادية وتقنية ومعنوية يجد القادة العسكريون انفسهم فيها ، وتتجلى عبقريتهم في اكتشاف انسب انواع الفن العسكري فيما يتفق وتلك الظروف المعطاة . فلو وجد نابليون في زمن الاسكندر لكان الاسكندر ولم يكن نابليون ، وكذلك لو وجد الاسكندر في مكان نابليون لكان نابليون ولم يكن الاسكندر . طبعا ليس حرفيا وانما في الجوهر . ومن هنا ، فما هي تلك الظروف التي توفرت في الوضع العربي في فجر الاسلام وادت الى تطور الفن العسكري الى مستوى شبيه بقرينه في زمن نابليون ؟

ان ثورة الاسلام اطلقت القوى الاجتماعية النامية ودفعت الثورة الى خارج حدود الجزيرة العربية وكرست لاول مرة التجنيد الجماهيري الواسع واصبح لدى العرب جيش كبير وراءه احتياط لا ينضب ، مصحوبا بحماسة ثورية عالية . والى هنا تتشابه هذه الظروف مع نظيرتها في الثورة الفرنسية رغم اختلاف نوعية القوى الاجتماعية النامية ، ولكن خلافا للثورة الفرنسية لم يكن هنالك تطور في الاسلحة والمقذوفات ولم يكن هنالك تطور تقني وعلمي وآخر في الطرق والمواصلات ووسائط النقل . هذه التطورات التي شكلت الارضية لولادة الفن العسكري النابليوني والتي لولاها لما تحولت الحرب على يد نابليون الى حرب متحركة . وهنا مصدر العقدة في تفسير سبب بروز تلك السمات نفسها تقريبا في الفن العسكري العربي .

الجواب يكمن في البحث في ظروف اخرى فريدة توفرت في الجزيرة العربية ، ويمكن تلخيصها :

أ ـ ان الحياة القبلية التي اعتمدت على الغزو وكثرة التنقل والترحال اعطت للمجتمع سمات متحركة ، سحبت كذلك على فنه العسكري ، وان كان بدائيا في تلك المرحلة قبل الاسلام . ولكنه فن تميز بالسرعة والحركة، وعدم التقيد بالموقع او بأصول نظامية جامدة في القتال .

ب ـ عرفت الجزيرة العربية قبل الاسلام عدة حضارات مثل ممالك سبأ وحمير والبتراء والغساسنة واللخميين ، ولا شك في ان هذه التجارب ولدت تراكمات من الخبرات العسكرية .

ج ـ كان العرب على اتصال وثيق بالروم والفرس والاحباش ، وكثيرا ما قاتلت قبائل منهم في جيوش تلك الدول او ضدها ، وهذا بدوره جعل العرب على علم بكل التطورات العسكرية التي عرفتها تلك الدول .

د ـ خاض العرب اللخميون في جبهة العراق قبيل الاسلام صراعا طويل الاجل ضد الفرس ، واستطاعوا ان ينتصروا عليهم عسكريا في معركة ذي قار ، ولكن لما كان عرب العراق وعرب الجزيرة العربية المحاذون لهم قوة ضئيلة بالمقارنة بجبروت قوات الفرس ، فقد اعتمدوا على اسلوب القتال الفواري ضدهم ـ وهو شكل بدائي من الحرب المتحركة .. وقد ثبت لهم بالتجربة نجاح هذا الشكل من القتال ضد مثل تلك القوى الكبيرة المنظمة . وكان الغساسنة قد خاضوا تجربة مماثلة ضد دولة البيزنطيين .

ولما جاء الاسلام واطلق قوى المجتمع العربي النامية ووحدها والهبها بالحماسة للجهاد، وجد القادة العرب المسلمون بين ايديهم تقاليد عسكرية في القتال وثروة من التجارب العسكرية ضد الفرس والروم ، فكان من المنطقي مع توفر الجيش النظامي ان يطوروا تلك التقاليد ويفيدوا من تلك التجارب وان يدفعوا الى الامام الصفة المتحركة في المجتمع العربي ، ويستثمروها في حركة الجيش وعملياته ، خاصة ، وان تلك الصفة يمكن تنفيذها على مستوى الجيش دون حاجة الى نظام نقل متطور او دعم لوجستيكي معقد. فقد كان العرب متقشفين خفيفي الاحمال بسبب ظروف حياتهم الصحراوية .

كان كل ما تقدم يشكل الظروف الموضوعية لولادة وتطور فن الحرب المتحركة في الوضع العربي آنذاك .

عندما اجتمع ابو بكر بقادة المسلمين ليشاورهم في امر حملة الشام نصحه عبد الرحمن بن عوف قائلا : «يا خليفة رسول الله انها لروم وبنو الاصفر حد حديد وركن شديد ، والله ما ارى ان نقحم الخيل عليهم اقحاما ، ولكن تبعث الخيل فتغير من اداني ارضهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع اليك ، ثم تبعثها فترجع اليك ، فاذا فعلوا ذلك مرارا اضر بعدوهم، وغنموا من ادنى ارضهم فقووا بذلك على قتالهم ، ثم تبعث باقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم اليك جميعا ، فان شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك ، وان شئت بعثت على غزوهم غيرك» .

ان هذه الاستراتيجية شبيهة باستراتيجية المثنى بن حارثة التي تلخصت :

١ ـ عدم مقاتلة الفرس اذا اجتمع ملؤهم وامرهم .

٢ ـ عدم اقتحام عقر دارهم .

٣ ـ مقاتلتهم على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب وادنى مدر من ارض العجم ، او بكلمات اخرى ابقاء الصحراء العربية القاعدة الآمنة وخط المواصلات والانسحاب ـ اذا اقتضى الامر ـ مع قتال مناوشة على الاطراف .

وكان عمر بن الخطاب برسالته الى سعد بن ابي وقاص قد شدد عليه بالاكثار من الطلائع والعيون وبث السرايا بينه وبين العدو ثم يقول له : «فاذا عاينت العدو فاضمم اليك اقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع مكيدتك وقوتك ولا تعاجلهم بالمناجزة ، ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ، ومقاتله ، وتعرف الارض كمعرفة اهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك،

ثم اذك احراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك » .

ان هذه الامثلة ، قليل من كثير ، تدل على مستوى عال من التفكير العسكري جاء نتيجة تجارب ماضية عديدة ونتيجة طبيعة ظروف الحياة العربية ، تشكل نواة ، وما على العسكريين الا دفعها خطوة الى الامام من خلال تجربة التطبيق العملي في الظروف الجديدة ، حتى يكرس فن الحرب المتحركة على مستوى راق فعلا .

يبدو ايضا ، ان طبيعة القتال في الجزيرة العربية قبيل الاسلام، وعدم وجود الجيش المحترف جعلا الثقافة العسكرية وادراك فن الحرب على مستوى تكتيكي واستراتيجي ، ظاهرة عامة لا تقتصر على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمثنى ، وانما مملوكة من قبل غالبية القادة والرجال البارزين وهذا يفسر سبب ارتفاع مستوى القيادات العسكرية العليا والدنيا وكثرتها .

واخيرا ، لا بد من التأكيد على ضرورة اخذ هذه المقارنة بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الاسلامية بروحها وجوهرها لئلا نغفل عن ان نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف زمانا ومكانا وطبيعة في الحالتين . ولئلا يفهم من هذا الدراسة انها تبخس مما احدثه نابليون من تطوير في فن الحرب ، او تبالغ ، بصورة غير علمية ، بما احدثه العرب من تطوير في هذا الفن .

ولهذا علينا ان نتذكر ان حروب نابليون جرت ضمن اطار الاسلحة النارية وتطور المدفعية خصوصا ، الى جانب تطور التقنية والعلوم ووسائط النقل وتطور القوى الانتاجية ، مما دفع فن العمليات ـ التكتيك الكبير ـ وفن تكتيك المعركة على يده خطوات جبارة الى امام بالقياس الى فن الحرب الذي ساد قبل عهده . وان هذه الحقيقة هي التي تعطي قيمة متزايدة لما وصله العرب المسلمون من مستوى متطور في فن الحرب رغم ان حروبهم جرت ضمن اطار السلاح الابيض والسهام ، وضمن مستوى ادنى من

التطور التقني والعلمي ووسائط النقل والقوى الانتاجية . ولكنها كانت تقوم على اساس الحرب المتحركة بكل معنى الكلمة ، ولهـذا لا بد من ان توضع في مرتبة ارقى مما تقدمها وجاء بعدها من حروب حتى نابليون ، ولا بد من وضعها في اطار تاريخي يجعلها سباقة على نابليون فيما احدثه من تطوير على فن الحرب دون ان يقلل من قيمة ما احدثه نابليون من تطوير ضمن اطار الاسلحة النارية والتقنية المتقدمة .

انتهى

فهرست

صدر عن :

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت

قصة ثورة ٢٣ يوليو الجزء الاول : مصر والعسكريون الجزء الثاني : مجتمع عبد الناصر	احمد حمروش
الدول الكبرى والصراع العربي الاسرائيلي	المركز العربي للدراسات الاستراتيجية
الاستخبارات الاسرائيلية	المركز العربي للدراسات الاستراتيجية
اتفاق فصل القوات الثاني في سيناء ١٩٧٥	المقدم الهيثم الايوبي
تأملات في الصراع العربي الاسرائيلي	د. حامد ربيع
الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل	د. محمد عماره
عندما اصبحت مصر عربية	د. محمد عماره
الاعمال الكاملة للامام محمد عبده في ٦ اجزاء	تحقيق محمد عماره
الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي في ٦ اجزاء	تحقيق محمد عماره
الاعمال الكاملة للكواكبي	تحقيق محمد عماره

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن : ٨ ل . ل .
أو ما يعادلها